رهينة الواقع العاجز

رواية

إيناس عادل مهنا

باقي
للنشر والتوزيع

المدير العام / أسماء محمد ناقع
مدير النشر / محمد عبدالرازق

رواية: رهينة الواقع العاجز

تأليف: إيناس عادل مهنا

مراجعة لغوية: مها السيد

التنسيق الداخلي: سكون

تصميم الغلاف: محمد مجاهد

رقم الإيداع: ٧٥٤٧

تدمك:978/977-85485-9-5

جميع حقوق محفوظة ©
لا يجوز، دون الحصول على إذن خطي من الناشر،
استخدام أي من المواد التي يتضمنها هذا المصنف، أو استنساخها
أو نقلها، كليا أو جزئيا، في أي شكل وبأي وسيلة، سواء بطريقة
إلكترونية أو آلية، بما في ذلك الاستنساخ الفوتوغرافي، أو التسجيل أو استخدام
أي نظام من نظم تخزين المعلومات واسترجاعها

All rights reserved. No part of this book may be reproduced in any form or by any electronic or mechanical means, including information storge and retrieval systems, without permission in writing from the publisher,except by reviewers, who may quote brief passages in a review

الإهداء

إلى مَن أنارت بيتي الصغير بعذوبتها...
إلى قطعةِ السكر التي أضافتْ لحياتي
روحًا، وبهجة
وزرعت السعادة داخل قلبي
ابنتي الغالية سلمى.
إلى عائلتي الحبيبة: مصدر قوتي وإلهامي
أربع سنواتٍ مرّت وأنا بعيدةٌ عنكم
لكنْ لعلَّ فرجَ اللّه قريبٌ.
وأخيرًا
إلى مَن احتواني بحنانه، وعطفه، وصبرَ على طباعي،
ومزاجيتي، وأحيانًا جنوني!.
زوجي الحبيب.

أهدي روايتي هذه إليكم

المقدمة

ضياء القمر يتسلل عبر نافذتي كلصٍ خجول، وهأنَذا أجثو على الأرض ليغمرني شعاعه، رَنَـوْتُ أناجيه، وأشاركه ضياع أحلامي التي اندثرت بين طيات الزمن الغادر، جلستُ أحكي له حكايتي، حكاية ابنة دمشق عاصمة الياسمين، مدينة العشق الأبدي.

كنتُ فيما مضى كيان إنسانٍ جَبَلَه الله على الحُب؛ ليترعرع في مدينة الحُب لكن أيامنا الجميلة نحسبها لن تنتهي فإذا هي ثوان معدودات تتلاشى كغبار الربيع!!

تُحدثني أمي دائما أنَّ لكل امرئٍ من اسمه نصيب، ولكني لم أؤمن بتلك النظرية إلا منذ سنتين تقريبًا: اسمي حنين وحياتي منذ ذلك الحادث حنين على ماض كنتُ فيه كوردةٍ جُورية مليئة بالحياة حتى رماها قوْس الدهر بين براثن النيران، (حنين): هو صوت الذي في فؤاده نزعة ألم، صوت الريح والنسيم الرقيق وصوت المرأة تفتقد زوجها، وصوتي بعد أن فارقتني الروح.

هو اسم يحمل كل معاني الشوق، مناسب لحياتي التي أعيشها كل يوم بعذاب وانكسار وشوق للماضي الجميل، فأغلى وأجمل كَنز قد يملكه أي إنسان ويتفاخر به قد فارقني؛ وجهي الجميل ذو البشرة السمراء قد أصبح نَسْيًا مَنْسِيًّا وجار عليه الزمن بكل حقد، أنا أؤمن بالقضاء والقدر وحاشا لله أن أعترض على حكمه، ولكن تأتيني لحظات يأسٍ وخوف من نظرات مَن حولي، لا أحد يرحمني...أهلي...صديقاتي...الجيران، وحتى في الشارع أبسط كلمة يقولونها لي (اصبري واحتسبي) تقتلني كلماتهم المواسية كلما ألقوها على مسامعي ولا أحد يشعر بما أعانيه، لا يدركون أن مواساتهم لا تزيدني إلا قهرًا وقرفًا على ما آل

عليه شكلي الجديد، فلكم أن تتخيلوا شابة ذات سبعة عشر ربيعًا تجد نفسها بلحظة محاطة بالنيران، منزلها، أحلامها طموحاتها، كل ما حولها نيران، طبعًا نحن هنا لسنا بأحد الأفلام الأمريكية الساذجة التي يتواجد بها رجال الإطفاء حتى قبل اندلاع الحريق!! ولا يوجد مَن هو فارس أحلامي الذي سينتشلني من براثن النيران، وأنا لا أحتاجهم؛ كنتُ مُوقِنة أنَّ ربي سبحانه وتعالى سيحميني، كنتُ مؤمنة بقدرته وها أنذا قد وسعتني رحمة ربي بأن استطعتُ أنْ أشق طريقي عبر السلم الخشبي الذي كان يتهاوى معظمه بسبب اندلاع الحريق فيه، وعندما أتاني أخيرًا صوت رجل الإطفاء بعدما التهم الحريق ثلثي المنزل، ظننتُ أنَّ الخلاص قد حان دون خسائر فاقتربت منه أقطع تلك الخطوات القلية المتبقية لملاقاته وكأنه طوْق النجاة الوحيد وأملي في أن أعيش، ولكن خشبة محترقة سقطت من السقف التصقت بي كانت كفيلة بأخذ نصف وجهي وبعض من أجزاء جسدي النحيل.

فكيف ستكون حياتي وأنا بنصف وجه وجسد؟!!!

شابة مشوهة الروح والجوارح.

*****

الفصل الأول

ليلة كانت لا وتزال عالقة بمخيلتي وتفكيري ولا أنام إلا عندما أسترجعها بأدق تفاصيلها وآلامها كشريط سينمائي أشاهد أحداثه كل مساء قبل أنْ أغفو، فأتقلب في السرير أحاول جاهدةً النوم، ولكن عندما أسمع صوت صريره تعود بي ذاكرتي لصوت منزلي الذي احترق ومعه احترق قلبي ووجهي وأصبح كجمرة نار مُتقدة، وعندما أغوص بعالم الأحلام أخيرًا بعد إرهاق لا حدود له تأتيني ذكراه على شكل كابوس مزعج أكون فيه ضائعة بمكان معتم ومخيف ولا يوجد أمامي سوى مرآة كبيرة معلقة على الحائط، تشتعل النيران من خلفي لتضيء العتمة التي أغرق بها فأفاجأ بوجهي قد بدأ بالذوبان شيئًا فشيئًا أتلمسه وأبدأ بالصراخ، صراخ يكتسح المكان والعتمة؛ ليختلط بالواقع المرير الذي أعيشه الآن، أعتدل بجلستي وأدفن وجهي المتصبب عرقًا بيدي وأبدأ بنوبة بكاء لتهرع أمي ناحيتي، وليلة بعد أخرى وشهر تلاه آخر وآخر بعد الحادث حتى اعتادت هي على صرختي الفزعة وطلبتُ منها أنا عدم المجيء لأنها لن تفيدني بشيء بل ستضاعف شعوري بالعجز واليأس، أراها تشفق على حالي فأزداد انكسارًا، وهل يوجد أصعب من شعورهم بالشفقة تجاهك!

أقل ما كان يقال عني في الحي سابقًا: جميلة، فاتنة، شعلة مضاءة بالحيوية والنشاط، لكن هذه الشعلة قد خَبَتْ بعد أن التهمتها النيران لتحولها رمادًا! وصرتُ أتمنى أن يعود بي الزمن ليوم واحد فقط قبل الحادث لأستطيع الابتسام

أمام المرآة كأي شابة، أتمنى أن أتأمل وجهي الرقيق الذي لم يبقى منه سوى نصفه مع عيني الخضراوين، وغير ذلك أصبح مجرد تشوه قبيح متآكل أحمر اللون يغطي بعض وجهي وكتفي و أجزاء جسدي الهزيل.

((٦ / ١٢/ ٢٠١٣)) ذلك اليوم الذي لن أنسى تاريخه ما حييتُ، تاريخ حفرته السنون كنقش لعنة فوق ذاكرتي، تاريخ أنساني أحداث ما قبله وطمس تعلقي بالحياة من بعده، كنتُ وحيدة في منزلي فحينها الجميع كان قد ذهب لحضور حفل زفاف قريبتنا إلا أنا قررت البقاء لأدرس، فموعد فحص القبول في كلية العلوم بعد يومين ولم أكن راغبة في أن أضيع فرصة التحاقي بها، حُلمي الذي كنتُ أعشقه منذ الصغر ولكن سبحان الله! بلحظة قد تنقلب الأمور رأسًا على عقب ؛ بثوانٍ معدوداتٍ قد يُكْتب لك قدَر جديد لم تتخيل أنه قد يزورك يومًا أو هو قدرك المكتوب وأنت لا تدري!.

صوت مدفعية هادر كان كفيل بزلزلة كياني كله قبل أن يجتاح الصاروخ الجانب الشرقي من حديقة المنزل، وبلحظة اشتعلت النيران إثر شظاياه التي اقتحمت خلوة الدار اقتحامًا، صرختُ بصوت يهز الجبال: ((يا الله)) وركعتُ أرضًا بخوفٍ أحتضن كتابي قبل أن أنهض مجددًا محاولةً الفرار من النيران التي بدأت تلتهم المكان، آخر مشهد يمر بذاكرتي ذلك المنقذ الذي حملني بين ذراعيه قبل أن أغفو بسبات لم أعرف إن طال أم قصر، ولكني حينما فتحت عيناي لأول مرة بعد الحادث، كان هنالك ضوء أبيض قوي فوق رأسي، أغلقتُ عينيي وفتحتهما مرارًا حتى وضحت الرؤيا وأدركتُ أني في المستشفى، وسط أنين المرضى وصرخات بعضهم، رفعتُ يداي الملتفتان بالضمادات بشكل تلقائي

أتحسس وجهي المغطى كحالهما وأدركتُ ما أصابني، فأطلقتُ صرخة فزع هزت أركان المستشفى قبل أن تهز روحي، اختلطت صرختي بصرخات مَن حولي وبدأتْ بعدها رحلتي مع الألم، أن استيقظ كل يوم وأنا أتلمس الالتواءات المقيتة وتلك الحكة القاتلة التي تنتابني بين يوم وآخر ولا أعلم إن كان سببها نفسيًا أو عضويًا فذلك كفيل بتدمير ما بقي لدي من تعقل.

وهاأنذا في غياهب الوحدة منذ زمنٍ، أيامي باتت كقاضٍ حكم بالإعدام على مشاعري ودموع كل ليلة تلقيني بغياهب الآلام وكأنها قصة من قصص شهرزاد التي لا تنتهي إلا حينما تشرق شمس الصباح فتسكت هي عن الكلام المباح، ولكن بفارق بسيط أنَّ شمسي أنا لا تشرق أبدًا ويبدو أنها لا تريد أن تشرق.

في ليالٍ مليئة بالسهاد والأرق، أرقٌ مصحوب بأصوات المدافع والرصاص لا أرى أحد يواسيني ويشعر ما ألمَّ بي، فألتفُ كقطة تريد أن تستشعر الامان فتحتضن نفسها فوق السرير، بِتُ أشعر أني صفحات كتاب ممزق تبعثرت كلماته، ذكريات فقدت ذاكرتها، أحلام لم يعد لها وجود وهاأنذا ومنذ سنتين أعيش بمنفاي ؛ غرفتي التي صارت معتزلاً أهرب فيها من الواقع وأختبئ بين جدرانها ومعي عشرات الكتب والروايات التي أصبحتُ أدمنها كما أدمن التدخين بالخفاء، ألقيتُ آلة التصوير خاصتي تحت السرير، وسجنتُ نفسي في هذه الغرفة ذات الستارة القاتمة التي تغطي بابًا كبيرًا يطل على الشرفة ولكن لم تطأها قدماي منذ أشهر طويلة، ستارة تحجب ضوء الشمس من أنْ يتسلل كلصٍ إلى غرفتي ؛ ليبدد العتمة التي أغرق بها، فلا أريد لشيء أن ينتشلني من ظلمتي التي صرت أعشقها مرغمة، لا أرفعها سوى ليلاً لكي أشارك القمر مأساتي، وسريري

الوردي الذي كان كان بيومٍ ما يعج بالألعاب أصبح يلتحف بغطاء قاتم اللون حدادًا على روحي الميتة كذلك، أتدثر فيه كشبح هربًا من كل شيء، فمن يدخل معتزلي يشعر أنه بعنبر من عنابر مشفى الأمراض العقلية.

أتعلم شعور أنْ تهرب من واقعك وتخلق واقعًا افتراضيًا لك وحدك فقط تعيشه بكل تفاصيله أنا ببساطة أفعل ذلك، أنصهرتُ مع أبطال رواياتي حتى أصبح كتابي واقعًا، وواقعي خيال مريض أهرب منه، قد يكون تهربي من هذا الوضع وتعلقي الزائد بالقراءة نوع من أنواع الأمراض النفسية التي أصبحت مليئة بها مؤخرًا ولكن صدقًا لا يهمني ؛ فهذه الحياة البائسة لا أريد أن أنتمي إليها بعد الآن بشكلي الجديد، لو لم يكن الإنتحار من الكبائر المحرمة لكنتُ قد أرحتُ نفسي والجميع منذ زمن بعيد جدًا، ببساطة شديدة تناثر إحساسي بالواقع إلى أشلاء صغيرة وتبعثر فوق صفحات البحر الهائج.

وعلى مفكرتي السوداء فتحتُ صفحة بيضاء جديدة خططتُ عليها كلماتي المحتضرة كما العادة: (لعلك أيها الموت تأتي أخيرًا، أنا أشتاقك)

أغلقتها وتفقدتُ تاريخ اليوم وارتسمت ابتسامة سخرية على شفاهي، لم أعد أعرف معنى الأيام، تخبطت...تلاشت...ولعلها تكررت، وخاصة بعد أن تخلى عني فؤاد ذاك الشاب الذي ظننت بأنه يعشقني خطيبي، من ظننته – بعقل مراهقة ساذج – فارس أحلامي، هو ابن الجيران الذي كنتُ أهرب من مدرستي أحيانا لملاقاته، صغيرة كنتُ ذات ضفائر سوداء ناعمة ووجه بريء يتلهف لرؤية أول حب يطرق بابه، كان ينتظرني تحت العمارة ؛ ليغدقني بأجمل عبارات الحب والغزل، طلب يدي من أهلي بالحلال كما يقولون لكنه الآن قد أضحى بعيدًا

وتخلى عني منذ أول نظرة ألقاها على وجهي بعد الحادث، أضحى فارس آلامي وبجدارة.

نظرة من عينيه لمستُ فيها الخوف والجزع الممزوج بالشفقة تقدمت منه وقد هيأتُ نفسي منذ عدة ليال لذلك اللقاء، ولكن التوتر ما يزال يكتسح كياني ليجعلني أرتجف فعليًا لأول نظرة قد يلقيها عليّ.

على الرغم من أني صففت شعري الأسود بطريقة مناسبة ؛ ليغطي القليل من وجهي لتخفيف ظهور التشوه لكن بلا فائدة فعلى ما يبدو أنه كان قد حسم قراره قبل أن يلتقيني، جلستُ على الأريكة مقابلة له فصار يلعب بخاتمه الفضي ويحركه بين أصابعه بتوتر، نظرة واحدة فقط ولم يعد يمنحني سواها، صار يشيح ببصره عني ويتأمل التلفاز، السجادة، الأريكة، ويتمتم بتلك الكلمات التشجيعية التي اعتدتُ على سماعها مؤخرًا، وشغل نفسه بأحاديث تافهة عديمة القيمة بالنسبة لي.

كان يريد أن يهرب ولكنه يبحث عن كلمة مناسبة، و معه كل الحق في ذلك فمن يرغب بالارتباط من مشوهة؟! حتى لو كان يحبني يومًا، فالحب قد يضيع لمجرد أن تفقد عنصر الجمال، لربما تكون نظريتي خاطئة، لكن فؤاد أثبت لي مدى مصداقيتها، تقافزت دمعاتي المختنقة في عيني وقلت له بصوت مُتهدج لأريحه وأزيل عن كاهله عبء كلمات لن تفيدني في شيء: لن أغضب منك يا فؤاد مهما كان قرارك، بإمكانك فسخ الخطوبة متى شئتَ فمن حقك أن تعيش مع فتاة كاملة لاينقصها شيء، لا ذنب لك فيما حدث. كلمات قلتها كانت كافية لتزلزل كياني وتحطم قلبي العاشق تجاه هذا الشاب الذي أحببته بكافة جوارحي ولكن

لا بد من قولها ؛ لأني فتاة واقعية لا أسمح لنفسي بأن أحلم و أحلق عاليًا كي لا أهوي فيما بعد، وهو ما يزال صامتًا، مفكرًا، ليس طبعًا ببقائه معي، بل كان يبحث عن كلمة مناسبة يقولها لإنهاء علاقتنا.

– تفضل خذ خاتمك.

اغتصبتُ تلك الكلمة لأخرج حروفها من بين شفاهي وخلعته من بين أصبعي ووضعته أمامه على الطاولة، وكأنني بهذا العمل قد قمتُ بتقديم معروف كبير له، بقي صامتًا فترة يحاول استجماع شجاعته ولملمة حروف تتطاير في الهواء ثم خلع خاتمه وسط نظراتي المحترقة، وقال ببساطة: –أنا آسف حنين، تستحقين مَن هو أفضل، أنا لا أملك الشجاعة الكافية للاستمرار، أتمنى لك حياة سعيدة.

بضع كلمات فقط ألقاها على مسامعي لربما تدرب عليها مرارًا في طريقه، في حين كان الخاتم يتراقص على زجاج الطاولة مصدرًا صوتًا رنانًا قبل أن يهمد أخيرًا ومعه همد قلبي وسكنت آخر دقة فيه.

ووقف مغادرًا.... أغمضتُ عيناي طاردةً إياه من قلبي وعقلي وصرتُ أسمع صوت ضربات حذائه الأسود الجلدي على الأرضية أوضح من صوت القذائف التي تطلق خارجًا، وابتلعه الباب، وأصبح جزء آخر مني، من الماضي..

طبعًا لم أغضب أو أحزن منه فكما قلت سابقًا هذا حقه الطبيعي، لقد تعبتُ من الأحزان ونلتُ منها ما أشبعني، لقد متُ فعليًا منذ الحادث، بربكم وهل لميت أنْ يموت مرتين؟!

اقتربت مني أختي سلام والتصقت بي معانقة إياي ؛ لتمسح دمعتي التي قررت أخيرًا التمرد و النزول بعد مغادرته، ثم قالت تحاول تهدئتي:

- ذهب الأحمق وسيأتي من هو الرجل الحقيقي الذي يستحقك يا أختي لا تحزني.

فنظرتُ إليها بنصف ابتسامة باردة وربت على يدها.

- لستُ حزينة، أليس هذا قدري؟

*****

الفصل الثاني

عامر

الأحلام....

يا ألله كم أنَّ تلك الكلمة واسعة وجذابة رغم مرارة بعض أجزائها، تخيل نفسك تتدثر بلحافك الدافئ بإحدى ليالي الشتاء الباردة، لا تترك أي بصيص ضوء ينتشلك من تلك الرحلة الرائعة التي ستسافر فيها بعد أن تغفو على أنغام السكون، ثم اسبح ببحور أحلامك لتتقاذفك أمواج الخيال.

لكن مهلاً... برأيك هل من الممكن أن تتغير حياتك بسبب حلم أقلق مضجعك؟ بل وبات كصديق ظلام يزورك باستمرار، هل أتاك طيف حورية من بعيد، يراك فيصرخ ليتشبث بك وكأنك منقذ العالم، أو منقذ حورية بهذا العالم!.

أنا رجل عادي لم أكن يومًا مُلمًا بعلم الغيبيات أو عالم ما وراء الطبيعة، لم أملك يومًا ما يسمونه الحاسة السادسة ولا أظنني سأملكها، لكن تلك الفتاة قصة أخرى، رأيتها مرة واحدة فقط بأحد المحال التجارية وشدني شيء واحد بها: (عيناها الخضراوان اللتان تشعان بريقًا وأملاً) لستُ ممن يلاحقون النساء إن كنتَ تظن أن الأمر كذلك، ولا أظن أنهن يلفتن نظري بأي شكل كان، لكن ألم أقل أنها قصة أخرى.

رأيتها في الواقع مرة، لكن طيفها زاراني بعد ذلك كثيرًا، أتاني على هيئة حورية خضراء العينين، ملتحفة برداء أسود، أخرجها من أحضان النيران لأحتضنها أنا وهي تصرخ...

صراخها ينبعث من أعماق روحها وتتشبث بي، تأبى مفارقتي وأنا لا أشيح بنظري عن حوريتي تلك حتى بدأت بالذوبان بين يدي كقطعة هلام، كلانا نصرخ، هي تذوب شيئًا فشيئًا لتختفي ولا يبقى منها إلا الرداء وأنا أبحث عنها كالمجنون بين غياهب الظلمات،.حلم واحد لكنه يتكرر بشكل دائم هل لديك أي تفسير منطقي لما أمر به؟.

هل لعملي سبب بأن عقلي جمعها مع النار بمكان واحد ليخرج لي هذا الكابوس، و الذي صار واقعًا؟! لست أدري.

عملي كرجل إطفاء يجعلني مدركًا لحقيقة واحدة، لربما مهمتي هذه ستكون مهمتي الأخيرة، الأعمار بيد الله سبحانه ولا شك بهذا، لكن أن يكون عملك محفوفًا بالمخاطر من كل حَدَبٍ وصَوْب يختلف عن كونك تعمل وراء مكتب مثلاً أو كبائع أو سائق.

أن تجابه يوميًا النيران وتتعامل معها كفيل بأن توقع صك موتك احتراقًا بأية لحظة، وتستسلم لهذا الواقع بل وتنتظر بأحيان كثيرة أن يتحقق.

بالمناسبة، أدعى عامر، رجل في الثلاثينيات من العمر، ملامحي هادئة، أربي لحية خفيفة لربما منذ عقود، فأنا لا أحتسب الأيام، لربما أشبه الملايين من البشر لكن ما يميزني عن غيري، أن شكلي لم يتغير مذ كنت في العشرينيات من العمر، وكأن الزمان قد توقف فجأة ولم يعد راغبًا في سلب الشباب مني، أو لربما أكون أنا

البليد الذي لا يريد مجاراة الزمن!!، ولربما وفاة والدي حينما كنت في الجامعة هي من أوقفت الزمن بي بعكس أمي التي تدهورت صحتها بشكل ملحوظ في السنوات الأخيرة خاصة بعد اندلا ع الحرب.

أظن أن رجلاً مثلي يتعامل مع النيران بشكل دائم يجب أن يكون باردًا ؛ ليحقق التوازن المطلوب أليس كذلك؟ لنقل أني بارد، مشاعري خاوية كقطعة ثلج لا أسمح لها أن تجرفني وراء أي عاطفة كانت، لا الحب يعرف عنواني فيحرقني ولا الهوى يعزف ألحانً ا على سمعي، أقضي حياتي الرتيبة بين قسم الطوارئ الذي أعمل فيه مستنفرًا على الدوام، وبين منزلي الذي يحتضن الهدوء من كل حَدَب وصَوْب في هذه الحارة الضيفة من حارات دمشق القديمة والتي على ما يبدو قد شاركتنا بتوقف الزمان أيضًا بعيدًا عن جنون الحرب في بلدي!فلا أذكره سوى من أصوات المدافع التي باتت كموسيقى تصويرية لفيلم لن ينتهي.

تناقض غريب أعيشه كل يوم يجعلني بلحظة ككرة لهب محترقة، وبلحظة أخرى في ليال هادئة أنعم بطمأنينة على أنغام عبد الحليم الذي ما زلتُ أصر على الاستماع إليه مساء كل خميس مع النرجيلة التي لاتفارقني، طقوس لا بد من ممارستها مرة أسبوعيًا على الأقل، وإلا لا أعتبر نفسي على قيد الحياة.

لا النساء لهن اسم في قاموسي ولا اللهو يعرف طريقه إليَّ، أعيش لنفسي ولعملي ولأمي التي لم يتبقى لدي سواها في هذه الحياة المليئة بالمتاعب.

حياتي قبل تلك المهمة التي خرجت فيها بإحدى ليالي كانون كانت راكدة وبعد أن عدت أصبحت مليئة بالتساؤلات، هل هو القدر الذي بدأ بنسج شباكه

ليوقعني؟ أم هي تلك الموهبة التي تستشعر فيها الخطر قبل قدومه كنوع من قراءة المستقبل!!.

تساؤلات، تساؤلات لا أفقه فيها علمًا لكن الذي أنا موقن منه أني عرفت بشكل أو بآخر ما الذي سيحل بتلك الفتاة التي تدعى حنين.

(قبل سنتين)

يومٌ ليس كغيره من الأيام، برودة الجو تزحف كزحف الجيوش فوق ساحات الوغى وتتسلل إلى الأجساد ببطء مميت، الرياح المتقدمة تعصف وكأنها تريد اقتلاع الحياة، أغلقتُ نافذة مكتبي بإحكام، وجلستُ أرتشف كوبًا من الشاي برفقة بعض من رجال فرقتي، نكات ساذجة يلقيها بعضهم ليضحك الآخرون بنعاس شديد بسبب مناوباتهم طويلة الساعات، منهم من كان يجلس متكئًا على الأرائك الجلدية، ومنهم من يفترش الأرض ممددًا ساقيه وقد احمرت أنوفهم من شدة البرد، وكأنهم ينتظرون العم (محسن) ليحكي لهم قصة مرعبة تناسب أجواء هذه الليلة المسكونة بآلاف الشياطين، لكن لا تسألوني من هو العم محسن فحتى أنا لا أعرف من يكون!

– يبدو أنَّ هذه المدفئة لا تريد أن تتأجج اليوم!!

قالها أحدهم حانقًا وركلها بقدمه فنهضتُ من خلف المكتب وتأملتُ الجو العاصف من وراء النافذة المغلقة، كان المطر يضرب الشبابيك بعنف ليرتج زجاجها مصدرًا رنينًا صارخًا كسيمفونية غاضبة الألحان فقلت له مهمهمًا:

– أظن أنك ستتدفأ كثيرًا الليلة يا صديقي، فبعاصفة كهذه لا بد من أن يحدث شيء.

– شكرًا لهذا التفاؤل سيدي!!!.

وعاود الرجال الضحك من جديد بسبب نكتة بذيئة خرجت من أحدهم،

تجاهلتهم وتمتمتُ لنفسي حدْسي لا يخطئ كنتُ متيقنًا من حدوث حريق بين لحظة وأخرى، العاصفة لوحدها كفيلة بجلب المصائب، فما بالك لو اجتمعت مع تصاعد جنون المدافع التي تهوِي على أرجاء المدينة، وها هو رنين الهاتف والأضواء الحمراء المتراقصة فوقنا تعلن عن نبأ واحد فقط هناك حالة طوارئ، أخذتُ نفسًا عميقًا وطرحته وتهيأتُ لجولة جديدة من مصارعة النيران، استنفر الجميع وطعنوا ارتجافة البرد ؛ ليتهيأوا للعملية القادمة في حين حدجني ذاك الرجل وكأنه يقول لي ها قد صدقت!، ارتديتُ بزَّتي واعتمرتُ خوذتي لألبي نداء الواجب المقدس، كان الكل يهرع بسرعة ليستقل السيارة و صفارات الإنذار تعوي لتبعد السائقين عن مسارها ولتشق سيارة الإطفاء طريقها إلى مبتغاها ؛ حتى وصلت إلى ذلك المنزل الذي غير مجرى حياتي بالكامل.

النيران منتشرة في كل مكان وأهالي الحي يقفون صفًا واحدًا في محاولة يائسة لإيقاف الحريق الذي بدأ بالتهام بقايا المنزل كأسد جائع بات يفتك بغزال مسكين، شرعنا بالعمل حتى صاحت إحدى النسوة بي بجزع:

–يا بني، حنين بالداخل، الفتاة كانت محتجزة تصرخ هناك ساعدها أرجوك قلبت بصري بينها وبين المنزل، ثم هرعتُ إلى الداخل أنادي باسمها وسط النيران وشققتُ طريقي أبحث عن تلك الفتاة (حنين)، ولا أعلم أصغيرة أم كبيرة!!.

فجوة كبيرة جدًا بعرض الحائط و النيران التهمت كل ما بالأسفل تقريبًا وبقي السلم الخشبي كمخرج، ووسط دائرة النيران برزت تلك الشابة الملتحفة برداء

أسود تبكي وتستنجد خائفة كهِرٍ صغير، هبطت هي بضع درجات عندما ناديتها وصعدتُ إليها و الدخان الأسود يغلف المكان كشبح مخيف ولكني استطعتُ أن أرى تفاصيل هذا الوجه الذي باتت تضح شيئًا فشيئًا

مهلاً إن هاتين العينين أعرفهما جيدًا، بل وباتت ملازمات لكوابيسي! النظرة الخائفة ذاتها!! والاستنجاد نفسه!، حورية منامي ذات العيون الخضراء أصبحت واقعا الآن، لكنه واقع مرير بسبب تلك الخشبة التي سقطت من أعلى عليها قبل أن أمد لها يد العون، صرخت بأعلى صوتي واندفعت محاولاً انتشالها من براثن النيران التي تشبثت بها كعاشق مجنون يأبى مفارقة حبيبته.

تتلوى أمامي وتصرخ بحشرجة منقطعة الأنفاس وأنا أحاول انتشالها حتى نجحت أخيرًا، وحملتها بين ذراعي كالحُلم تمامًا لتتمسك بي قليلاً قبل أنْ تخر مغشيًا عليها، مخضبة بدمائها وحروقها ممزقة الثياب خرجت بها أنادي على المسعفين وقلبي يختلج بصدمة وكأنني عاجز، الفتاة التي رأيتها مرة واحدة بعالم الواقع و حلمت بها مرات قليلة قبلا ها هي الآن بين ذراعي هامدة بلا حراك.

خرجت من المنزل مترنحًا لفرط الإنهاك فظهرت امرأة أمامي فجأة خلعت معطفها لتغطي جسد تلك الفتاة التي انكشف معظمه، ثم هرع رجل ليحملها بدلاً عني فسلمته إياها لكن سلسلة ذهبية كانت على صدرها التصقت بي ثم سقطت أرضًا، أمسكتها ناظرًا إليها و لم أعر تلك الحروق التي تناثرت على يدي أي اهتمام حتى صرخ بي أحد رجال الطوارئ:

- اركب أنت أيضًا سيدي لنقوم بعلاجك.

ربتُ على كتف إحدى رجال فرقتي ليستلم عني قيادتهم، ثم جلست مقابلاً لها بجانب المسعف وصفارات الإنذار تدوي مرة أخرى وكأن هذه الليلة لا تريد أن تمر بسلام، وكأنني الآن أكمل الجزء الثاني من كابوسي المزعج!، المسعف بجانبي يحاول مساعدتها ريثما نصل المستشفى وهو يتمتم:

–حالتها حرجة جدً ا، حروق من الدرجة الثالثة، أتمنى أن تصمد حتى نصل

قطعت نظراتي المنكبة عليها لأنظر إليه بإنهاك شديد دون أن أعلق، ثم وضعت السلسلة بجيبي واستندت برأسي الى الوراء مغمضًا عيناي حتى وصلنا للمستشفى، على الرغم من ارتدائي الخوذة واتخاذي التدابير الازمة للأمان إلا أنْ النار أبَتْ إلا أنْ تقبلني من وجهي ويدي قُبلة خفيفة وكأنها تقول باستهزاء، حبي لك لن ينتهي ياعزيزي.

جالسًا كنت في قسم الإسعاف عندما دخل صديقي الدكتور (ضياء) مسرعًا، ألقى علي نظرة ثم هتف بي:

– ألا تكف عن حرق نفسك يا فتى، لما لم ترتدي القفازات أكل مرة علي أن أقولها لك؟؟؟

فقلت متذمرًا:

– بربك ضياء كفى ثرثرة، وقم بعملك إن الحروق بدأت تؤلمني بشدة.

خلعتُ خوذتي وطلب مني الاستلقاء على السرير؛ ليكمل معالجتي و الإنهاك كان واضحًا على تقاسيم وجهي ومازلت رافضًا التصديق أنها هي فتاة أحلامي! أخذتُ نفسًا عميقًا قبل أن أسأله بتردد: كيف هي الفتاة؟؟

نظرتُ إليه لأفهم أن الأمور سيئة فعلاً، ثم قال بحسرة واضحة وهو يتنهد: – ليكن الله في عونها لقد احترق جزء كبير من وجهها وجسدها، جهزت لها غرفة العناية المركزة وستبقى تحت المراقبة.

اعتصرتُ قبضتي بقوة قبل أن أنهض منصرفًا فاستوقفني.

– ما بك عامر لم أنته بعد!

ربتتُ على كتفه متجهمًا وأجبته:

– لا شيء أبدًا، فقط اهتم بها جيدًا صديقي.

شعرتُ بانفراج شفتيه قبل أن يصيح بي وأنا أغادر: –عامر هل تعرفها؟.–عامر!!. هل أعرفها!!! أنا حقًا لا أعرف إن كنتُ على معرفة بها أم لا، في طريق العودة تمنيتُ حقًا أني لم أرها ذلك اليوم في متجر البقالة، تمنيت لو أني أشحتُ ببصري كي لا تعلق صورتها بمخيلتي، وتسبب لي كل ذلك الإرتباك، وصلت أخيرًا إلى المنزل، كانت الكهرباء مقطوعة كما اعتدنا والشموع تتناثر هنا وهناك، ولا أعلم كيف رأتني والدتي بهذا الضوء الباهت ؛ صرخت و لطمت صدرها بقوة وقبل أن تتفوه بأي كلمة قلت لها راجيًا:

– أيتها الغالية سأذهب لأستريح قليلاً وغدًا باستطاعتك فعل كل ما تشائين، لستُ مستعدًا لسماع أي كلمة الليلة، نظرت إليّ بصدمة وقد ألجمت لسانها فعلاً عن النطق فانحنيتُ مقبلاً جبهتها واتجهتُ نحو غرفتي.

لحظات حتى طرقت ريم الباب ودخلت، وهي الفتاة التي ترعى أمي بغيابي، تفحصتني باهتمام بالغ، ثم وضعت فنجان قهوتي على المنضدة بجانبي وهمست بصوتها الخجول: –حمدا لله على سلامتك سيدي.

أومأت لها وأنا مستلقٍ على السرير أقاوم الألم ونظراتها القلقة تجاهي، ليلتها كانت آلام حروقي لا تعني لي شيئًا أمام آلام احتلت قلبي لسبب غريب، هل شفقتي عليها هي السبب، أم إعجابي بهاتين العينين اللتين تشبهان سنابل الأرض الخضراء؟ أو لعلها تلك الحالة الغريبة التي أمر بها منذ بضعة أسابيع!! لست أدري، المهم أني استسلمت أخيرًا للنوم ؛ لأريح جسدي المنهك وكانت تلك أول ليلة لي بلا كوابيس.

الفصل الثالث

حنين

حياةٌ بائسة وسكون يجثم على صدري الذي بتُ أشعر فيه بغربة شديدة وكأنه ليس بجسدي، بل أنا مجرد ضيفة فيه، كنت أتمنى أن أستيقظ بيوم ما ليقول لي أحدهم أنها مزحة، عودي لما كنتِ عليه من قبل ولكن يصدمني الواقع مرة أخرى ويقول مكشرًا عن أنيابه: (هذا ما أنت عليه)، وهاأنذا أعيش ما أنا عليه و ما زالت جراح قلبي دامية بكل يوم أفتح عيني فيه وأتلمس وجهي، جراح حرب ما زالت تنزف ألمًا وحزنًا واحتجاجًا على واقعي، جراح أطفأت رغبتي من أن أستمر بهذه الحياة ويبدو أني لن أستمر فيها طويلاً، صديقات الثانوية ابتعدتُ عنهن وبنات الجيران لم يعد لي رغبة في استقبالهن، لا أريد الشفقة من أحدٍ ولا أحتاج لكلماتهم المواسية الكاذبة فعيونهم عندما يروننني تفضح كل شيء، حتى ابن أختي سليم ذو الأعوام الخمس عندما رآني بعد أنْ عدتُ من المستشفى اتسعت حدقتا عينيه رعبًا والتصق بوالدته وأنا أهمس له:

– أنا حنين ألم تعرفني؟!

قوس شفتيه قائلاً كلماته القاتلة التي لا تفقه شيئًا بعمره الصغير ولكن لها معنى كبيرًا بقلبي:–لست خالتي حنين، أنتِ قبيحة بينما هي كانت جميلة!!

أغلقت له (سلام) فمه بيديها مانعة إياه من التحدث، حينها لكني ربتُ على كتفها هامسة:

– لا بأس، أعرف أني قبيحة الآن.

كلمات طفل بريء عرتني وأظهرت حقيقتي المؤلمة التي كنت أناضل لأجتازها ولكني في كل مرة أسقط فيها بهوة عميقة وأصرخ دون أن ينجدني أحد، مازالت نظرات أولئك الأطفال تعصف في مخيلتي عندما رأوني بعد أن قررت ولأول مرة أن أخرج فيها إلى السوق مع والدتي لأكسر ذلك الحاجز، حاجز الخوف من مواجهة العالم الخارجي الذي لم يزدني إلا خوفًا ورهبة من المستقبل، بعد خمسة أشهر كاملة من عزلتي في المنزل وبعد إلحاح كبير من والدتي وأخي خالد قررتُ الخروج ؛ لأني صرت أشعر بالملل الشديد.

مللتُ! مصطلح بسيط جدًا وساذج عما كنت أعانيه بهذا السجن، لنقل أني كأرملة تعد أيامها للرجوع إلى الحياة، كنتُ أريد أن أفرد جناحاي وأطير عاليًا كحمامة تعرف طعم الحرية، أن أحلق بعيدًا عنهم جميعًا، بعيدًا لمكان لا أعرف أحدًا فيه، ويومها صففتُ شعري الأسود ليغطي نصف جبهتي المحترقة كما اعتدت في المنزل، لا أنكر أني كنت خائفة جدًا من مواجهة الناس بشكلي الجديد، وهاأنذا أقف أمام الباب الذي يفصلني عن الحرية، عن العالم الخارجي الذي بتُ أفتقده بشدة، نظرتُ إلي أمي مطمئنة وأومأتْ لي بابتسامتها الحانية، ووقفت في الخارج بانتظاري وقبل أن أخرج أغمضتُ عيناي و أخذتُ نفسًا عميقًا جدًا وزفرته، ذكرت اسم الله سبحانه ليبثَ الطمأنينة بصدري وضربات قلبي قد ازدادت أضعافًا عندما خطوتُ أولى خطواتي خارج عتبة المبنى، وكأنه اليوم الأول لسجين قد مضى على سجنه مئة عام وتحرر أخيرًا، ويومها رفعت رأسي فورًا إلى السماء الزرقاء، كانت الشمس ساطعة في كَبَد السماء ونسيمات دافئة

تغمر الأرض وهدوء مخيف يعم المكان فلا أصوات مدافع ولا رصاص، لا جنود منتشرون في الشارع حتى رجال الحاجز كانوا مبتسمين اليوم على غير العادة!، وأولاد الحي يلعبون بحرية وأصوات الباعة تختلط بأصواتهم المجلجلة.

– أتريدين تناول الكعك؟

قالتها أمي عندما أدركت نظراتي تجاه عربة البائع فأومأتُ لها بسعادة ضائعة، وتذكرتُ آخر مرة تناولته فيها عندما كنت في طريقي لمدرستي صباحًا، أضم معطفي الصوفي وأعتمر قبعتي الحمراء التي تنسدل ضفيرتي السوداء من تحتها وأنا أفكر بحلمي بالالتحاق بالجامعة.، وأخيرًا قضمت قضمة كبيرة و ابتسامة شقت طريقها إلى فمي عندما رأيت طفلة صغيرة تتقافز على رسمة الطباشير التي رسمتها على الأرض وهي تغني:

شمس..قمر...نجوم...غيوم

شمس..قمر...نجوم... غيوم

تقولها وتقفز فرحة وجدائلها تتطاير معها بكل انسيابية، وتذكرتُ نفسي عندما كنتُ بمثل عمرها طفلة طائشة لا هم لها سوى اللعب والمرح...

تذكرتُ عندما كنتُ ألعب مع خالد وسلام وابن عمي كمال في حديقة منزلنا فى اللاذقية قبل أن ننتقل إلى العاصمة دمشق.

انشغلتُ بالصغيرة وسرحتُ فيها و لم المح تلك الكرة التي اصطدمت بوجهي وجعلتني أشهق فزعة وأرمي الكعكة لتتدحرج على الأرض.

الطفل ركض باتجاهي ليأسف لكنه فتح فمه على اتساعه عندما نظر إلي، تعلقت عيناه على تقاسيم وجهي قبل أن يتلعثم بحروفه متأسفًا، ثم يحتضن كرته و يفر

هاربًا من أمامي ليهمس بإذن صديقه بصوت سمعته: أنظر إنها البنت المشوهة لينظر ذلك الأخير إليَّ،غطيتُ وجهي بشعري بعصبية وأطرقته أرضًا وتبعتُ أمي بصمت على أمل أن أكمل طريقي وأتناسى ما حصل للتو، كلمات بسيطة وعيون بريئة خائفة كذلك لكنها تحولت بنظري إلى سوط لا يرحم.

خرجنا إلى السوق ولأول مرة منذ مدة طويلة أشعر بهذه الفرحة العارمة تجتاح كياني وكأنني طفلة صغيرة ترى مدينة الملاهي لأول مرة في حياتها، تناسيتُ نفسي وصرتُ أنظر إلى واجهات المحال التجارية وأنتقي لباسًا جديدًا لي وطبعًا ذا لون أسود، حتى اصطدمت به وحصلت تلك الكارثة التي دمرتني بالكامل، اعتصرت قبضتي بقوة وأحسستُ بأن وجهي اشتعل نارًا عندما حدَّق فيَّ فؤاد وهو برفقة مخطوبته الجديدة، ألقى علينا السلام بارتباك فردته أمي بينما عيناي لاتزالان معلقتان على مَن بجانبه، وعندما قال: هذه هند مخطوبتي، اغتصبت كلمة مبارك بقهر واضح سألني: كيف حالك؟ هززتُ رأسي وأجبت بخفوت: الحمد لله، لكن هند قالت لربما بعفوية، لربما بخبث، صدقًا لا أعرف: من الجيد جرأتك في الخروج بهذا الحال يا حنين، أخبرني فؤاد عنك ليكن الله في عونك. كتمتُ شهقتي وألمي وأنا أراهما ينصرفان من أمامي، بالكاد استطعتُ السيطرة على أعصابي لكن كيس التفاح قد سقط من بين يدي ؛ لتتبعثر حباته على الأرض تركت أمي و ركضت بشكل جنوني عائدة إلى المنزل ومنها إلى غرفتي وانهرت بنوبة بكاء عنيفة وأنا أصرخ ملء حنجرتي.

–لماذا يا الله....لماذا أنا، لما اخترت لي هذا العذاب؟!

دفنتُ وجهي بكلتا يدي وصرت أنهش فيه غير عابئة بمحاولات أمي التي لحقت بي مسرعة لتهدئتي، كان أخي خالد قد عاد للتو من عمله ودخل مسرعًا إلى غرفتي على صوت صراخي لتخبره أمي بما جرى ضرب بقبضته على الباب بقوة وتمتم بكلمات لم أفهمها، ما زلت لا أصدق كيف لشخص أن يسخر من ألم شخص آخر وعذابه! كيف له أن ينطق بكلمة كهذه وهو يرى حالي غير عابئ بما قد يعتريني عند سماعي لكلماته التي جرحتني بالصميم.

فجأة سحبني أخي من يدي وهو يهزني و يصرخ:

- كفى، كفاكِ غباءً وارفعي وجهك، أنت جميلة بقلبك وأخلاقك وتربيتك، كل شيء فيكِ جميل، لأجل حادثة كهذه تعذبيننا وتعذبين نفسك! لا تعطي بالاً لأولئك المرضى أن يدمروك يا حنين.

فصرختُ فيه، وأنا أضرب الهواء بيدي ثم أشرت إلى وجهي:

- وهل يوجد دمار أكثر من الذي أنا فيه انظر، انظر لوجهي أخي، انظر إليه ألا ترى أم أنك أعمى؟

ضمني إلى صدره بقوة لتهدئتي فتشبث به أصرخ:

- أريد أن أختبئ فيك إلى الأبد، أن أحتمي بك كما كنت أفعل عندما كنت صغيرة لكنه رفع وجهي بكلتا يديه ومسح دمعي قائلاً:
- لن تحتمي بأحد، أنتِ قوية، القوة التي بقلبك ستحميك من الجميع، وأنا واثق أنكِ ستتخطين هذه المحنة.

ولكني لم أتخطاها، عامان كنتُ فيهما أرتشف سموم الحياة وأعزف ألحان الموت على جدران الزمن، كنت أقاوم حزن نفسي ونظرات المجتمع إليَّ ولا أنهض إلا

لأقع مجددًا وأيقنتُ أني ضعيفة لا أملك الشجاعة حتى لأنظر لنفسي في المرآة فكيف لي أن أنظر بعيون مَن يراني من الناس!!

ومن بعدها صارت غرفتي هي موطني الكبير، حُلمي في دخول الجامعة أصبح ماضٍ أسود ولا أريده، الكون باتساعه أصبح بنظري سجنًا بغيضًا خانقًا مميتًا مدمرًا، ولم يبقى لي سوى هذه الجدران فهي عزائي الوحيد لأكمل فيه مقطوعتي، القصر الذهبي الذي لم أعد أفارقه، أنظر منه إلى الواقع الحقيقي دون أن أشارك بشيء، مجرد عينان تشهدان مقتطفات الحياة كعرض سينمائي درامي أسود ليس إلا، صرتُ رهينة هذا الواقع المريض فعلاً

حياتي مثالية بامتياز أليس كذلك؟ أحيانًا كثيرة اسأل نفسي لما اختصني الله دون غيري بالتشوه، لما أنا؟ الحرب دمرت الكثيرين في بلدي، قتلت المئات وشردت الآلاف لكن تشوهي فاق آلامهم، الموت كان راحة لهم ولكم تمنيت أن أموت ذلك اليوم، هل يعاقبني الله على أفعالي الماضية بهذه الطريقة القاسية، ثم استغفر الله من جديد وأتذكر قول أمي أنه ابتلاء من الله سبحانه ليختبر صبري وإيماني، يتنازع الخير والشر في قلبي ولا أعرف كيف أسيطر على انفعالاتي التي أرهقتني وأرهقت الجميع من حولي، أمي أبي وأخوتي، حتى باتوا عاجزين عن مساعدتي واكتفوا بمشاهدة عرض الحياة التي أموتها ببطء كل يوم منذ عامين إلى الآن.

*****

خالدة

أنهيتُ عملي متأخرًا هذا اليوم، خرجتُ من مكتب المحاماة الذي أعمل به واتجهتُ بخطوات متثاقلة إلى المقهى الذي يقبع بآخر الشارع مقهى قديم جدًا

بكل شيء فيه حتى بمالكه العم (أحمد) الذي قد قرر أن يتجاوز السبعين من العمر، ولكنه ما يزال مصرًا على تدخين النرجيلة كشاب بالثلاثين، هذا عدا صوته الجهوري الذي يصدع بالأرجاء كلما تحدث مع أحد ليعرف كل ساكني الحي ما هو موضوع حديثهما!

هذا الشارع الهادئ مرصوف بالحجارة السوداء مسقوف بأوراق العريش الخضراء ذات العناقيد المتعانقة بحب، وبنهايته يقبع هذا المقهى العتيق ذو السقف البلوري المعشق بألوان الطيف والذي تنعكس ألوانه على الأرضية التي تتوسطها بركة ماء ذات خرير عذب، كل شيء من حولي في هذا الشارع قديم يعكس أصالة دمشق وعراقتها، تتدلى من خلف نوافذه زهور الياسمين التي تملأ المكان برائحتها الفواحة، جلستُ طالبًا كأسًا من الشاي الساخن كعادتي وأنا أستمع إلى صوت أم كلثوم الذي يضيف سحرًا لا مثيل له خاصة بهذه الليلة الهادئة، سرحتُ بكلماتها وتأملتُ الشارع المظلم خارجًا كان خالٍ من المارة تقريبًا وأضواء النيون الخافتة التي تزين المقهى مع أصوات النراجيل وتراتيل أحجار النرد التي يلعب بها الحاضرون كأنها أنشودة ليشاركنا القمر يعطي جوًا من الألفة لذلك قررت اليوم ألا أفكر بشيء، أريد ليوم واحد فقط أن يمر دون أن أرهق تفكيري بنفسي أو بدمار بلادي أو بحالة أختي، كنت أتمنى ليوم واحد أن أنسى كل مايجري بي و حولي، مازلت شابًا لم يتجاوز الثلاثين من العمر لكنه يشعر دائمًا بأنه عجوز أكثر من العم (أحمد) ؛ فالأخير دائم الابتسام والضحك رغم أنه فقد أحد أبنائه في جبهة القتال والآخر بات عاجزًا جراء تفجير تعرض له الحي، أحسده على

روحه المرحة والطيبة التي يتحلى بها وصفاء قلبه ونقاء نفسه وكأنه قد تصالح مع الكون كله وعقد مع الحياة اتفاقية حب.

يقولون دائما أن أعصابي قوية وجامدة ولكن خلف هذا الجمود بركان يكاد ينفجر بأية لحظة، لكم أن تتخيلوا شابًا قد تخرج من كلية الحقوق منذ سنوات بمعدل مرتفع جدًا و إلى الآن لا يملك لنفسه تأسيس مكتب خاص به بسبب سوء الأوضاع الاقتصادية، وارتفاع الغلاء، وانعدام الأمان بأغلب مناطق البلاد فيضطر إلى العمل تحت إمرة جزار لاهم له سوى ملء جيوبه بنقود الناس ولا يهم من هو الموكل سواء أكان مجرمًا، أم سفاحًا، أم شابًا، بريئًا، فالعنصر الأهم في كل الموضوع هو كم يملك من النقود لتخفيف الحكم أو محاولة إلغائه، وغير ذلك نحن أسفون لن نستلم القضية، يتلاعب بالقانون باحترافية ويقلب أوراقه السرية بمهارة فائقة ؛ ليصبح المجرم هو الضحية بين يديه بل ويثبت بالأدلة الدامغة براءة المجرم، وإدانة البريء!

حياتي الآن أشبه بدائرة كبيرة أسير فيها دون أن أصل إلى خط النهاية!!! فأسير عبر دوائر لا متناهية وأرى أني قد عدتُ إلى ما انطلقتُ منه، ومنذ عامين زادت الأمور سوءًا بذلك الحادث الذي تعرضت له أختي فأحالت حياة الأسرة إلى جحيم يومها و في حفل الزفاف، بمنتصف القاعة كنت أقف حين رن هاتفي مطولاً، خرجتُ مبتعدًا عن الضوضاء وأجبتُ ليأتيني صوت جارنا يجلجل أنَّ منزلنا قد قُصِفَ ؛ لم أستوعب بادئ الأمر، شُلَّ تفكيري تمامًا وكأن الزمن قد توقف عند هذه النقطة بالتحديد، ثم طلبت منه أن يعيد على مسامعي مرة أخرى ما الذي يجري فأعاد الجار مرة واثنتين حتى صرخت به بفزع... (حنين)؟.ولم

تمض دقائق معدودات حتى رأيت نفسي بشارع منزلنا الذي تغيرت معالمه، ورجال الإطفاء يحاولون السيطرة على لهيب النيران التي التهمت المنزل بما فيه أو بمن فيه!!!، تقدمت بقدمين كالهلام أشق حشود الناس المجتمعة وأنا أشعر بلمساتهم التشجيعية على كتفي وبكلماتهم المواسية ؛ اقتربت أكثر أجول بعينيي عن أختي حتى خرج رجل إطفاء من حديقة المنزل وكانت بين يديه، هل هي حنين!!! رفض عقلي التصديق بأن الجسد الصغير المنكمش على نفسه بين ذراعي ذلك الرجل أختي الصغرى وإلى الأن لم أعرف أماتت هي أم ما تزال على قيد الحياة؟؟؟ ثوان لاستوعب ما يدور حولي ركضتُ نحوها أصرخ وأراهم يضعونها بسيارة الإسعاف، وكيف صرتُ مع خطيبها فؤاد بسيارته لاحقًا بها لا أعرف فكل شيء كان مشوشًا ضبابيًا بنظري، أفقتُ من هذه الذكرى على صوت أحدهم يلقي علي السلام فرددته وأنا أرتشف الشاي وطبعًا فشلت مرة أخرى في ألا أفكر بعائلتي وخاصة بحنين التي تعيش الآن جسدًا بلا روح، مسحت وجهي بكلتا يدي مستغفرًا الله وتحسستُ عنقي شاعرًا باختناق رهيب في حين لمحت العم أحمد يتقدم مني باسمًا، ربت على كتفي قائلاً بحنو بالغ: إنَّ مع العسر يسرًا يا ولدي.... توكل على الله، أومأتُ له بابتسامة طفيفة مجيبًا:

ونعم بالله، ونعم بالله، قبل أن أدفع ثمن مشروبي ثم أقف مغادر المقهى ومن ثَمَّ تابعت سيري على حجارة الطريق العتيقة لأتوجه إلى المنزل، وصلت أخيرًا وكالعادة كان هادئا كئيبًا إلا من صوت التلفاز فهذا هو الوحيد الذي صار يدوي بمنزلنا مؤخرًا طبعًا حينما تتواجد الكهرباء!! كانت أمي بالمطبخ تعد طعام العشاء

وأبي كعادته يجلس شاردًا أمام التلفاز وكأنه بعالم آخر، بادلته السلام ودخلت عند أمي مقبلاً وجنتها:

– أرجوك أمي سأموت من الجوع ؛

ابتسمت قائلة بحنان بالغ:

– حسنا حبيبي غيَّر ملابسك وسيكون الطعام جاهزًا خلال دقائق.

كدتُ أن أخطو إلى خارج الغرفة لكني استدارت مستفسرا: كيف هي حنين اليوم؟ وطبعًا أجابتني كما تجيبني دائمًا: ككل يوم يا بُني لا شيء جديد، سؤال أعرف إجابته جيدًا ولكنها عادة اكتسبتها منذ وقت طويل لأختلق حوارًا مع والدتي ليس إلا، لأخرجها من حالة الصمت التي استبدت بها أو حتى بي

أطلقتُ تنهيدة ودخلت غرفتي، غيرتُ ملابسي واستلقيتُ قليلاً على السرير، أغمضتُ عيناي لدقائق قبل أن أنهض مرتديًا قناع التفاؤل والابتسام على وجهي واتجهتُ مباشرة إلى غرفتها، طرقتُ الباب ودخلتُ وكعادتها تجلس على السرير دافنة وجهها وتضم ساقيها إلى صدرها وكأنها تلتمس الأمان بهما.

كانت ترتدي قميصا قطنيا أسود اللون طويل الأكمام مع بنطال أسود كذلك ؛ ليخفي آثار التشوه الذي التهم جسدها، وكأنها إحدى ثكالى الحروب تعاني المر لفقدان زوجها وأطفالها نادايتها فرفعت نظرها تجاهي مغطية نصف وجهها بشعرها الاسود الفاحم

– كيف حالك اليوم حبيبتي؟

تقدمتُ ناحيتها وجلستُ على السرير أمسح بيدي على شعرها فاستكانت برأسها على صدري وقالت بخفوت:

- اشتقت إليك، لماذا تأخرت؟.
- كان لدي عمل كثير...هيَّا الآن ألا تريدين تناول طعام العشاء؟ أنا أتضور جوعًا.

اغتصبت ابتسامة ثم أومأت لي:

- سألحق بك.

خطوتُ خارجًا وقلتُ أمازحها:

- لا تتأخري وإلا لن اترك لك شيئًا.

وخرجت إلى الصالة، كان أبي متجهم الوجه كعادته أمام شاشة التلفاز، لربما عمله كشرطي في السلك هو ما أكسبه هذا الوجوم الدائم والعبوس الذي لا يفارق تقاسيم وجهه الستيني، وما حلَّ بأرجاء الوطن و بحنين زاد من عبوسه وغضبه وسرعة انفلات أعصابه وتوتره على الدوام، وبدأ الشوط الثاني من صراع كل يوم معه، ما الأمر أبي ما بك؟

سألته مستفسرًا فزفر بقوة قائلاً: نعيش بكذبة كبيرة كل حياتنا مجرد كذبة ساذجة! يوميًا نفس الأخبار عن القتل والدمار والتشريد في أرجاء البلاد، لقد سأمتهم وسأمت أخبارهم التي لا هم لها سوى أن تزيدنا بؤسًا فوق بؤسنا، جلست على طاولة الطعام قائلاً له:

- هدئ من روعك أبي لا تنفعل هكذا لأجل صحتك.

دخلت أمي وبدأت تضع الأطباق على المائدة ونهرته قائلة:

- بالله عليك يا عبد الله اترك التلفاز لدقيقة واحدة منذ مجيئك وأنت على هذا الحال، تعال لتجلس معنا وتشاركنا الطعام.

قالتها وهي تعرف جيدًا عواقب أن تطلب منه مشاركتنا أي فعل فببساطة سيقلب كل شيء جحيمًا! نهض أبي من مكانه مجبرًا بينما يقول:

– مابك يا امرأة ألا يحق لي أن أعرف أحوال البلاد والعباد.

وجلس على مائدة الطعام، خرجت حنين أخيرًا وبالكاد حركت شفاهها تلقي السلام وجلست مكانها بهدوء شديد وأبي يراقبها، وأرى ذبول عينيه وإنهاكهما،صرتُ أقلب بصري بين أفراد عائلتي الصغيرة المعذبة بصمت بينما يتناولون الطعام والمائدة لم ينقص من طعامها سوى لقيمات قليلة فقط وكأن هذه العائلة باتت تتبارى بالتقليل من كل شيء حتى بالسعادة التي لم نعد نعرف عنها شيئًا منذ وقت طويل، وكالعادة يقع على عاتقي أخذ دور المهرج بإلقائي بضع نكات ساذجة أو مواقف حصلت معي أو مع زملائي في العمل، علي أزيل هذه الغمامة السوداء التي استعمرت منزلنا منذ سنتين وأبت أن تخرج ولا يبدو أنها ستخرج في القريب، وصمتنا بعدها مدة فقد نفذت طاقتي لهذا اليوم، أنهت حنين لقيماتها التي تتناولها يوميًا جبرًا لتبقى جسدًا يتنفس ليس إلا، ثم قالت أمي تقطع الصمت المطبق:

– اتصلت سلام اليوم وهي تلقي التحية على الجميع، ثم

رفعت نظرها تجاه حنين وأردفت:

– وإليك كذلك وتسأل لما لا تجيبين على اتصالاتها ألا يكفيها الغربة التي تعيشها وأنت تزيدين حزنها بهذا الشكل!، رفعت حنين وجهها تجاه أمي ثم أجابتها بطريقة غريبة جدًا.

– لم تعد تهمني في شيء تعرفين هذا.

رفع أبي وجهه محدقًا بحنين ودوى صوته بحدة:

– لأنها استمرت بزواجها من شقيق ذلك الغبي فؤاد تقاطعين أختك! أتريدين لها الطلاق تضامنا معك.

ربتت أمي على كف والدي بهدوء لكنه لم يعرها اهتماما و أكمل:

– أتريدين من ابنها أن يعيش بلا أب لكي تشعري بالراحة، ما دخل فواز بعمل أخيه!

اطرقت رأسها أرضاً ولم تجبه ثم نهضت متجهة إلى غرفتها فصرخ بها فجأة:

– ألم تتعلمي الإستئذان قبل الإنصراف، كل يوم علينا أن نتكلم بهذا الموضوع!

رفعت بصرها إليه متمتمة باعتذارات غير مفهومة وأكملت طريقها، ربتت أمي على يد أبي مجددًا لتهدئته ولكنه انتفض صارخًا بعنف بعد أن دفع يدها:

– لقد سأمتكم وسأمتُ جو المجانين هذا، ابتعدي عني يا امرأة.

*****

أغلقت حنين الباب واستندت عليه مرتجفة الشفتين ثم انزلقت على الأرض، و تقوقعت على نفسها وكأنها تختبئ من كل شيء يحيط بها وهي ماتزال تسمع صراخ والدها الذي لا يهدأ إلا ليزيدها ألمًا إلى الآن تشعر بأن سلام قد خانتها عندما سافرت مع زوجها فواز وتركتها تعاني البؤس وحدها.

– أبي رجاءًا اتركها وشأنها أنت تزيد الأمور سوءًا هكذا "

قالها خالد مترجيًا أباه في حين أن الأخير ارتفع صراخه أكثر فأكثر.

– لتذهب تلك المخبولة إلى الجحيم، أهي أول فتاة تحترق، لقد قلبت حياتنا جحيمًا منذ الحادثة اللعينة وكل شيء بات كما ترغب هي، وكما تحب هي.، وأنتم من شجعتموها على ارتداء ثوب الضحية المسكينة، حتى أتقنت الدور وأبدعت فيه، غرفتها السوداوية لا تخرج منها إلا مساءًا عند عودتك وكأن لاوجود لي أو لأمك هنا!

فترجته أمينة أن يصمت فازداد صراخه أكثر.

– وألبستها اللعينة السوداء تلك وكأنها تقوم بإحدى طقوس عبدة الشيطان!

تنهد خالد قائلاً في محاولة يائسة منه لتهدئة والده:

– أبي رجاءًا قدر موقفها وكفاك تجريحًا لتلك الفتاة، أو اتركني أنا سأتصرف معها اتفقنا.

ضرب عبد الله بقبضته على الطاولة صائحًا بعنف: –منذ سنتين أسمع هذا الكلام منك أيها الولد وهاهي الأمور تتعقد أكثر فأكثر حتى بتُ جديًا أفكر بإلقائها بإحدى المصحات العقلية لأرتاح.

وبهذه اللحظة شهقت حنين خوفًا ودفنت رأسها بين قدميها ترتجف بفزع من هذه الكلمة التي ألقاها والدها، ثم أردف صياحه على زوجته:.

– وأنتِ يا امرأة تتساهلين معها حتى لم تعد تعترف على شيء بهذا المنزل وكأنك أصبحت مجرد خادمة هنا لها لا أكثر!!.

هنا ارتفع صوت أمينة:–أنا بخير حال إن لاحظت، فقط كف عن تجريحنا بكلامك هذا.

ازداد تجهم وجهه، ثم صرخ بعنف وهو يقلب طاولة الطعام وما عليها لتتهشم الكؤوس والصحون المليئة بالطعام وتفترش الأرض.

– سأضع حدًا لهذه المهزلة "

وتقدم من غرفتها وفتح الباب فجأة ؛ لتتراجع حنين زحفًا إلى الوراء وتسند ظهرها على السرير بخوف بينما عبد الله يجول ببصره بأنحاء الغرفة قبل أن يتقدم نحو خزانتها ويخرج الأثواب السوداء ممزقًا إياها، ثم سحب غطاء الفراش الداكن راميًا إياه وهو يصرخ بينما خالد يحاول تهدئته عبثًا لتتقدم الأم وتعانق طفلتها الباكية بخوف، أطلق شتائمه وتهديداته المعتادة ثم غادر المنزل، ككل يوم يختلق شجارًا ويهرب وكأنها أصبحت طقوس يومية لدى هذه الأسرة التي لم تنل يومًا هانئًا بعد الحادث، انتشلت نفسها من بين يدي والدتها ثم قالت بخفوت: أريد أن أبقى لوحدي اخرجي.

تبادلت أمينة نظرات منهكة مع خالد الذي ساعد والدته وأخرجها الى الصالة التي استحالت لفوضى عارمة، فربت على كتف والدته وساعدها لتجلس على الأريكة مقدمًا لها كأسًا من الماء، لم تتوقف أمينة عن البكاء فركع أمامها قائلاً: أرجوك تماسكي، سأقوم بتنظيف كل شيء لا تقلقي

وفي الغرفة الأخرى أخرجت حنين مفكرتها وخطت كلماتها القليلة على وريقاتها (لتحرقني نار كلماته للمرة الألف فلم يعد لها أي معنى) لكن المعنى تجسد كله من خلال تلك الدموع الساخنة التي تساقطت على الورقة البيضاء لتترك آثارًا مجعدة امتلأت بها صفحات هذه المفكرة أكثر من الكلمات المدونة بداخلها، و انسلت مجددًا لتدفن نفسها فوق السرير الذي اصطبغ بلون قلبها الأسود، . و

خالد بدوره بعد أن أنهى تنظيف الفوضى جلس على حافة الشرفة نافثًا دخان سيجاره بهدوء شديد وروية وكأنه يريد إخراج كل السموم التي باتت تلتهم جسده من الداخل،.وسمع صوت عزف رقيق يأتي من الشقة المجاورة تبسم بسخرية من حياته والجحيم الذي بات يشمل كل ثنايا هذا المنزل المسكون بآلاف الشياطين، أي يوم مر عليه بسلام في هذا المنزل؟ ألا يكفيه الجحيم المستعر بكافة أرجاء البلاد!

الفصل الرابع

عامر

قبل ذلك الحادث ببضع أيام لم أهنأ بليلي ومنذ سنتين بعده الحلم ذاته قد أقلق مضجعي، طيفها لم يفارقني يومًا، صراخها العميق يستنزف طاقتي وتشبثها بي أكاد أرى آثاره عندما أستيقظ صباحًا، أتخيلها أحيانًا أخرى تبتسم بوجه مشرق لي وتتراقص عيناها اللتان تحملان كل خيرات الأرض، لكن لما هي تحديدًا دون غيرها؟! ما السر وراء أحلامي المتكررة بتلك الشابة التي لا أعرف عنها سوى اسمها؟؟.

أنقذتُ الكثيرين من براثن النيران لكنها مَن خلدت بذاكرتي وعقلي، أتناساها بضعة أيام لتعاود مهاجمة أحلامي من جديد وكأنها تقول: (ابحث عني أنا أحتاجك، ساعدني، حررني)

ثم يؤنبني ضميري بطريقة أو بأخرى وأتسائل هل كان علي البحث عنها بجدية لأن تلك الكوابيس كانت نوعًا من التحذير قبل الحادث؟ ولكن كيف لي أن أعرف أن كل شيء كان سيتحقق على أرض الواقع بهذا الشكل المخيف!، بعد تلك المهمة ببضعة أشهر كنت جالسًا بمكتبي أحتسي كوب قهوتي المرة التي أستلذ بها بجنون وكأنها امرأة سمراء فاتنة تجلس أمامي لا مجرد فنجان قهوة!! وأتأمل ذلك العقد الذي سقط من حنين وقت الحادث، كان ذهبيًا محفوراً عليه

اسمها، كنت أتامله بكل يوم وأتلمس حروفه بأصابعي،كان لي أن أعيده إلى عائلتها بذلك الوقت لكن لا أعرف ما الذي منعني؟؟.

رنَّ الهاتف الأرضي فأجبتُ لأذهب من بعدها فورًا لمكتب رئيس القسم (عثمان) بادلته السلام فدعاني للجلوس لأمر مهم على حد قوله.

حسنًا لأكن صريحًا إن أموره المهمة لا تنتهي وغالبًا ما تكون مجرد استشارة أو أمر لتدريب دفعة جديدة من رجال الإطفاء، استسلمت للأمر الواقع وجلست أمامه على الكرسي الجلدي مع أني كنت اتحسر على فنجاني الذي لم أرتشف منه إلا القليل، طبعًا قبل أن يتكلم بأي شيء عليه اتخاذ وضعيته المشهورة بمد ذراعيه على الطاولة ومشابكة أصابعه، باغته قبل أن يسترسل بمقدمة لا طائل منها وقلت بصرامة كعادتي:

- أنا أستمع سيدي، هل هنالك دفعة جديدة علي تدريبها؟

كشف عن صف أسنانه البيضاء الناعمة ضاحكًا ثم أجابني:

- دائمًا ما تستبق الأحداث يا عامر، إسمع أعرف أنك لا تحب الكلام الزائد لذلك سأقولها لك مباشرة، هنالك تبادل عملي لمدة خمسة عشر شهرًا ستقضيها في الصين لنقل أنه نوع من تبادل الخبرات والإمكانات بيننا وبينهم ولا أعرف صراحة أي إمكانات سيكتسبونها عندنا! المهم... أنت قائد فرقة الطوارئ لدي فبالتالي إن اسمك كان من أوائل الأسماء المشاركة في البعثة نحتاج إلى ثلاثة رجال بعد، عليك اختيار الأنسب وتقديم أسمائهم إليَّ فموعد السفر سيكون بعد شهر من الآن"

رفعت حاجبي دهشة واستنكارًا! فمن هو ليقرر بالنيابة عني وكأن علي السمع والطاعة فقط! وصرتُ انقر بأصابعي على الطاولة البلورية أمامي ثم قلت له:

– ولكن تعرف أن وضعي لا يسمح لي بالسفر إلى أي مكان، بإمكاني ترشيح الأسماء المناسبة لك هذا سيكون من دواعي سروري.

اقترب مني مضيقا عينيه: –عامر....أنت تعرف أن المصلحة العامة فوق كل شيء، دع مسائلك الشخصية جانبًا لو سمحت وفكر بعقلانية، ستكتسب خبرة هائلة بذهابك وأصلاً إن الأمر خارج عن إرادتي وإرادتك، أنت المسؤول عن الفرقة فبشكل تلقائي ستذهب وبالتالي عليك تنفيذ الأوامر العليا والاطاعة دونما اعتراض، يا أخي اعتبرها رحلة سياحية بعيدًا عن التوتر الدائم هنا.

مررت يدي بين خصلات شعري ثم أومأت له بامتعاض وأنا افكر بأمي:

– حسنًا لا بأس سأفكر بالموضوع.

ليقول لي من خلف مكتبه:

– ستذهب عامر..ستذهب.

ابتسمت بسخرية و غادرت بعدها المكتب وأنا في حيرة من أمري، إن المسألة مغرية حقًا لكن أمي هي المشكلة الأساسية فكيف لي أن أتركها وحيدة مدة سنة كاملة خاصة أنها مريضة.

مساءًا عدت إلى المنزل، إستقبلتني ريم الثرثارة بابتسامتها الواسعة كالعادة أمام الباب، خلعتُ معطفي وعلقته ثم اتجهت إلى غرفة المعيشة وهي تتبعني كظلي، لتسأل عن أحوالي وصحتي ككل يوم، و بعد أن تناولت طعام العشاء حادثتُ والدتي في هذا الموضوع لتبتسم لي ابتسامتها التي أعشقها ثم قالت بجدية بالغة:

– طبعًا ستذهب بُني، لعلك تغير هذه الحياة الروتينية التي تعيشها هنا.

وبعد جدال طويل بيننا واصرار مني أن تبقى بمنزل خالتي لحين عودتي تنهدت بقلة حيلة، ثم استجابت لي لتتسع ابتسامتي وألثم يدها شاكرًا.

ومرَّ شهر كامل وسافرت بعدها إلى الصين وكنت آمل أن تبتعد عني تلك الكوابيس التي باتت تجثم على صدري، فارقت الوطن لكن طيفها الخائف لم يفارقني، خمسة عشر شهرًا كاملة أعيشها باتت عيناها الخضراوان حُلمي الوحيد الذي لا أفقه غيره وكأنها محبوبتي التي أعدُّ ثواني اغترابي للقياها،خمسة عشر شهرًا كاملة أحاول عبثًا النوم بهدوء، لكن طفح الكيل فعلاً أريد أن أرتاح ولن أرتاح طبعًا إلا حينما أقابل تلك الفتاة وأكلمها ؛ لعلي أفهم ما يجري معي وكأنه داء عضال قد اخترق عالم أحلامي.

خمسة عشر شهرًا مرت ببطء لكنه بطء مليء بالأحداث المثيرة وبالتجارب العملية والواقعية التي زادت من خبرتي، عدتُ بعدها إلى الوطن مجددًا أحمل من اللهفة والشوق الكثير ومن العلم والخبرة أضعاف ما تمنيته.

بعد أسبوع تقريبًا فعلتُ أول شيء كنتُ قد قررته هناك، سأبحث عنها وأول ما خطر لي هو الذهاب لذلك المنزل لعلهم أصلحوه و عادوا إليه بعد الحادث ولكن مع الأسف كان ما يزال حطامًا، بل وامتد الحطام لبعض المنازل المجاورة التي تلقت نصيبها من القذائف كدتُ أن أعود بخيبة لكني قررت أن أسأل أحد الجيران لعله يقودني إليهم، واتجهت للمنزل في الشارع المقابل مباشرة طارقًا الباب ليفتح لي رجل عجوز، تلكأتُ قليلاً أمامه أرمش بعيني كالمخابيل ولا أعلم كيف أبدأ الحديث

- أهلاً بُني كيف أساعدك؟

قالها لي العجوز فتنحنحتُ قليلاً منظفًا حلقي قبل أن أجيبه:

- آسف سيدي لإزعاجك بهذا الوقت لكن أريد أن أسألك سؤالاً.
- تفضل.
- أصحاب ذلك الدار المهدم هل تعرف مسكنهم الجديد؟

نظر العجوز لي بشكك بالغ فعاجلته فورًا:

- أدعى عامر، أنا رجل إطفاء كنتُ وقت الحادثة التي تعرض لها الدار منذ سنتين وهنالك أمانة وجب إرجاعها لأصحاب المنزل رجاءًا، إن كنت تعرف أي معلومة عن هذا الموضوع أن تخبرني.

هنا ابتسم العجوز لي قائلاً بلطف:

- ليباركك الله على أمانتك، ونعم بني يبدو أنك تقصد عائلة السيد عبد الله الرشيد.
- نعم...نعم سيدي هل تعرف أين يتواجدون الآن؟..
- لا أعذرني لا أعرف سوى أنهم انتقلوا لمنطقة قريبة لكن أين بالتحديد لاعلم لي
- شكرًا لك سيدي.

وانصرفتُ يائسًا بعدها لكن على الأقل ذلك العجوز قدم لي معروفا كبيرًا عندما أخبرني عن اسم العائلة..

الأيام تراكضت بعدها وكنت أبحث عن عائلة الرشيد بتلك االمنطقة والمناطق المجاورة لكن دون فائدة، ليأتي مساء يوم كنت جالسًا فيه في المقهى المعتاد

أدخن الشيشة منتظرًا ضياء حتى وصل أخيرًا وقبل أن يجلس حتى، طلب كأسًا من الشاي من الصبي، أقسم أن هذا الرجل لو جلبوا له برميل شاي لارتشفه كله، خذ نفسًا وارتح قليلاً أن تطلب مشروبًا يا بني –قلتها ضاحكًا – في حين انتشل مني النرجيلة ليدخنها قائلاً بحزم مصطنع...

– ألا تعرف أنها مضرة بالصحة! قلت له ساخرًا:

– نعم سيادة الدكتور والدليل إدمانك عليها!

كاد أن يرد علي بكلماته لاذعة لكني فجأة ضربت على رأسي وتذكرت أمرًا مهما فصرخت فيه:

– ضياء أنتم تحتفظون في المستشفى بسجلات المرضى أليس كذلك؟

– طبعًا لماذا تسأل؟

ابتسمت بسعادة بالغة جدًا وقلتُ له بلهفة جلية:.

– أحتاجك بمسألة مهمة.

فقال لي بجدية:

– أنا أستمع

– أتذكر يوم حضرت إلى الإسعاف محترق اليدين قبل أن أسافر.

فقال ساخرًا:

– أنت بأغلب مهماتك تأتيني محترق اليدين عزيزي!!

تنهدتُ بنفاذ صبر ثم ضربت على الطاولة بقبضتي:

- إفتح دماغك ضياء.يومها كانت برفقتي تلك الفتاة الذي أنقذتها، كان اسمها حنين، أنت أخبرتني أنَّ قسمًا كبيرًا من وجهها قد تشوه بالإضافة لجسدها.

بقي صامتًا مدة من الزمن وكأنه يقلب بدفتر ذكرياته العقلية حتى صفق بيديه صائحًا:

- نعم، نعم تذكرت تلك الحالة.
- جيد جدًا، أريد منك أن تبحث في السجلات أحتاج رقم هاتف أو عنوانًا أو أي معلومة تدلني على مكانها.

وطبعا حشرية ضياء لا مثيل لها بمواقف كهذه وسأل بلهفة لا تخلو من المكر.:

- لكن ما الذي تريده منها!؟ هل لها أختًا جميلة.

نقرت بأصابعي على الطاولة وقلت له: تبًا لأفكارك العفنة يا أخي ألا أبحث عن فتاة إلا لهذا الأمر، لنقل أن لها أمانة عندي.

فابتسم بمكر قائلاً: أمانة عزيزي!! وبعد سنتين لتذكرت أن عليك إرجاعها؟.

- ضياء كفى ثرثرة لا طائل منها ستساعدني أم لا؟
- لأكن صريحًا معك عامر لن أساعدك حتى أعرف السبب فكما تعلم هذه خصوصيات مرضى وعليها تقع مسؤولية كبيرة.

نفختُ بقوة من عناده ثم استسلمت للأمر الواقع وحدثته عن كل شيء وأنا موقن أني فتحت على نفسي أسئلة فضولية، لربما تجاوزت المئات في حين أنه كان يستمع بصدمة وكأنه لم يصدق أي حرف من الذي أخبرته به فقال بعد مدة من الزمن.

– عامر....أنت لا تكذب علي صحيح؟ ضربت بقبضتي على الطاولة وصحت فيه: –أيها المعتوه هل حالتي توحي إليك بأني أكذب؟

حك شعر رأسه مفكرًا قليلاً قبل أن يقول لي:

– أتعلم؟ يجب عليك استشارة طبيب نفسي لعله يشرح لك ماتمر به.

عضضتُ على أسناني غيظًا وقلت: –وهل أبدو لك كمجنون سيد ضياء؟.

هذه المرة تعالت ضحكته بقوة جعلت المحيطين يحدقون بنا قبل أن أضربه على يده ليصمت، فأردف قائلاً:

– لا لم أقصد أنك مجنون أيها الأبله كنت أتكلم بجدية، عليك الإستشارة بشخص يفهم بهذه الأمور طبعًا لن أقول لك اذهب لرجل دجال مشعوذ يقيدك على كرسي و يضربك بضع أسواط على مؤخرتك قائلاً: اخرج يا خليل الشيطان ظنًا منه أنك ملبوس، الطبيب النفسي خير رشيد لك فكما قلت لي ذلك الحلم قد استمر منذ سنتين وإلى الآن فالموضوع كبير جدًا حتى لوقابلتها لا أظن أنك ستحل اللغز.

فكرت قليلاً بكلامه كان منطقيًا ومعقولاً، ولكني قلت له –لا أعرف أي طبيبٍ نفسي، أتدلني أنت؟.

– طبعًا صديقي الدكتور كمال سيساعدنا بهذا الموضوع لقد درس الطب النفسي والبرمجة اللغوية العصبية في أمريكا، وعاد منذ بضعة أسابيع فقط ليستقر هنا حظك جميل.

أخذتُ نفسًا عميقًا من النرجيلة، ثم قلت له:

– عظيم...لكن بكافة الأحوال أنت ابحث لي عن أرقام عائلتها.

– أعطني أي يوم دخلت الإسعاف بالتحديد وسأخرج لك الملف.

نظرت إليه بصدمة فلم يخطر لي سؤاله عن التاريخ وقلت بحيرة بالغة:

– لا أعلم.

وكيف لي أن أبحث لك عنها أيها العبقري؟

زفرتُ بغيظ فكلما شعرت أتي تقدمت خطوة أعود إلى نقطة البداية.

قال لي بعد صمت مطبق طال بيننا:

– أتذكر أنَّ الجو كان باردًا آنذاك أليس كذلك؟

رفعت وجهي تجاهه وأنا أحكُ ذقني:

– نعم على الأغلب كنا بالشتاء، إسمع ضياء بهذه الحالة ينحصر بحثك بأربعة أشهر فقط، أرجوك إنَّ الأمر مهم جدًا بالنسبة لي، ساعدني وسأكون لك من الشاكرين.

ضربني بخفة على كتفي، ثم قال مطمئنا:

– لا عليك سأقوم بهذا لأجلك...ولأجل فارسة أحلامك ما قلت لي اسمها

– (حنين..... عبد الله الرشيد)

*****

حنين

التشوه نار عظيمة ليس للهبها حدود، لا يحسها إلّا من اكتوى بها، هو الموت البطيء لروحك وجسدك، هو جرح لا يبرأ و داء تعجز الحروف عن وصفه، هو انكسار، ضعف وخوف من المستقبل خوف من المجهول الذي يتربص بك

كأفعى تسعى للإنقضاض بأية لحظة لتغرس أنيابها السامة بعنقك،.وأنا...أقف مكاني دون حراك، كعاجز أبكم أخرس بل وأعمى كذلك...

فكيف سيكون شعورك وأنت لا شيء؟؟؟ تقف على العدم ولا ترى أي نور قد يدلك على بر الأمان؟ صراخ أبي قد اعتدت عليه حتى لم أعد آبه به، مسلسل تلفزيوني لا يتعدى ساعة واحدة تكون أمي فيها هي الضحية الوحيد، حزنه على حالتي لا يترجمه إلا بهذه الطريقة فهل هو محق أم لا؟

أعلم أني أتعبتهم معي كثيرًا؟ وأزهقت راحة بالهم وأعلم أني مهما بلغ مني الألم مبلغه لن أرد النهر إلى مصبه ولن أرد الشمس إلى مطلعها، سأكون ببساطة كمن يعتصر الماء، ويطحن الطحين، لكني اعتدت على حزني حتى أصبح هو الحياة بالنسبة إليَّ..

ليلة كغيرها لم يختلف بتفاصيلها أي شيء، ألبستي المرمية على الأرض تركتها كما هي وخزانتي المفتوحة، حتى غطاء السرير القاتم.

كنت أكتفي بالنظر الى هذا الفوضى دون أن تكون لي رغبة بترتيب شيء، أو ببساطة أكثر سأستيقظ صباحًا وستكون أمي قد أعادت غرفتي لما كانت عليه سابقًا، ألم أقل أنها طقوس لا بد من ممارستها يوميًا ؛ لذلك تناسيت كل تلك الفوضى أخذتُ قرصًا منومًا و أمسكتُ كتابًا لأقرأ فيه قليلاً قبل أن أذهب في سُبات الله وحده يعلم عدد ساعاته وبدأت برحلتي المعتادة بين صفحاته لأنتقل بعدها إلى مكان آخر أكثر أمانًا من هنا.

وأقبلت شمس الصباح، يوم كغيره من الأيام لا أشعر به أو بنفسي أو فيمن حولي، الكل كعادته قد خرج إلى عمله إلا أنا أبقى بغرفتي الخاوية الباردة وطبعًا كانت

مرتبة، نظرتُ إلى الساعة التي لم تتجاوز بعد التاسعة صباحًا إعتدلت بحلستي وأخرجت العلبة من درج الخزنة وأشعلت سيجارًا، وصرتُ انفث دخانه بهدوء شديد وأراقبه كيف يتلاشى ويختفي كما ظهر.

صرتُ أدخن بالخفاء كل يوم عندما أكون وحيدة، أسرق من أبي أو أخي واحدة أو اثنتين وأخفيها لحين بقائي بمفردي.

لكم أتمنى أن أختفي كذلك لكي لا يراني أحد أو أن أتلاشى كهذا الدخان المتصاعد أمامي.، ضحكت على سذاجتي وراح فكري يعبث بعيدًا مع فؤاد، لكم كنت أحبه، ولم لا! وهو أول حب يطرق بابي وأول شاب يقول لي تلك الكلمة التي تدغدغ قلب أي أنثى ومراهقة، تذكرت صوته وهمساته ووعوده لي وأحلامه التي كنا سنحققها يدًا بيد.

لكنه بأول عقبة قد واجهتنا حول أحلامي إلى كوابيس لم أستطع مقاومة رغبتي في البكاء مجددًا لكن دموعي قد جفت مؤخرًا وبقي صوتي مجرد نحيب مختنق، سمعتُ أبواق السيارات من خلف نافدتي والتفتُ ناحيتها أتبسم بتعاسة، لكم أتمنى أن أرى الشارع مرة أخرى لكني لم أعد أملك الجرأة للخروج مجددًا بعد آخر مرة، أغلقت عيناي متنهدة وشعرت حينها باسترخاء جميل ؛ فأتاني صوت عزف على الناي انساب إلى قلبي بطريقة غريبة، ليست المرة الأولى التي أسمعه فيها لكنه هذه المرة كان عاليًا بما يكفي، فتحتُ عيناي وصرتُ أرى من أي اتجاه يأتي وتسمرتُ بعدها بمكاني.

- لا.....لن أستطيع فتح ستارة الشرفة والخروج، فلا أريد لنور الشمس أن يقتحم خلوتي.

كنتُ أقنع نفسي بتلك الكلمات لكن اللحن كان رقيقًا عذبًا أخذني إلى عالم آخر، نهضتُ ووقفتُ أمام الشرفة و ارتجفتْ يداي وأنا أحاول أن أفتح الستارة القاتمة ليدخل نور الشمس فجأة ؛ أغلقت عيناي بخوف بعدها وأسدلت الستارة مجددًا بقوة و جلستُ على الأرض وأرحتُ وجهي على طرف السرير أستمع إلى هذا الإبداع.

كنتُ الآن مع فؤاد بفستان أحمر، أرقص وشعري الأسود الغجري يتطاير حولي بحرية، أنظر إليه بابتسامة واسعة وأشعر بلمساته الدافئة، ضغط على يدي أكثر وقال لي:

– أحبك – لأنظر إلى الأرض بخجل شديد و العشرات حولنا يتمايلون على أنغام الألحان كذلك، ليقول مجددًا:

– لن أتخلى عنك ما حييت، لكني حينها رفعت نظري إليه.

تعالت ضوضاء صاخبة وموسيقى أشد اختلطت بأبواق السيارات وثبتت عيني بقوة قائلة له:

– لقد تخليت عني...حطمت أسوار قلعتي وهدمت جدرانها وتركتني بالعراء أعاني الوحدة والخوف.

ليبتسم هو هذه المرة بمرارة ويلوح لي بعيدًا بيديه قائلاً:

– أنا آسف...أتمنى لك حياة سعيدة

ويبدأ بالتلاشي شيئًا فشيئًا حتى صفق الباب بقوة!

رسوت على شاطئ الواقع مجددً ا بعد أن غرقت ببحور أحلام اليقظة، كانت قد وصلت أمي إلى المنزل وكعادتها توجهت مباشرة إلى غرفتي ألقت علي نظرة

عابرة، تجهم وجهها بطريقة لم أفهمها، ثم قالت لي بنبرة حادة: –اتبعيني، قمتُ بتكاسل من مكاني وأسدلتُ شعري ليغطي نصف جبهتي وتبعتها، كانت تقف بمنتصف الصالة وما إن اقتربت فتحت يدها مشيرة لما حولها.:

– ماهذه الفوضى حنين؟! كالعادة أنا من سيرتب كل شيء أليس كذلك؟ ما الذي تفعلينه كل يوم، تدفنين رأسك بالسرير كالنعامة!

شعرتُ حينها بغضب بالغ من كلامها ليس من عادتها أن تنهرني بهذه الطريقة أبدًا، لكنها أردفت بصوت أعلى:

– زادت الأمور عن حدها كثيرًا، لقد تعبتُ حنين أقسم بالله أني تعبت منك ومن أباك الذي لم يعد إلى المنزل حتى الآن ولا أعرف أين هو؟!

عضتْ على شفتها مانعة نفسها من البكاء في حين أني أطرقت رأسي أرضًا صامتة، ولكنها محقة بكل شيء قالته، تتحمل أعباء كثيرة وأنا لا هم لي سوى الجلوس بغرفتي، نادرة هي المرات التي بتُ أساعدها فيها.، تمتمتُ لها متأسفة وهممتُ بالمغادرة لكنها توجهت نحوي خطوات واثقة ووقفت قبالتي نظرت بعيني بقوة ورفعت شعري فصرخت بها بذعر:

– أمي توقفي.

لكنها لم تبالي بصراخي بل قالت بتحد:

– من الآن فصاعدًا لن أسمح لك أبدًا بتغطية وجهك هل فهمتِ....كفاك كل شيء تفعلينه بنا، أباكِ محق بكل شيء أنت أول فتاة وجهها يحترق؟

هنالك من فقد روحه أو جزءًا من جسده، هنالك من فقد عائلته، هنالك أناس في المخيمات أو ينامون بالعراء يموتون جوعًا وبردًا، وأنت تبكين على جمالك الذي تشوه!

- أمي اصمتي....رجاءًا.

قلتها باكية لكنها أردفت:

- لقد راعيتك وراعيت مشاعرك بادئ الأمر، ظننتُ أنها صدمة وستزول لكن هذا الوضع قد أعجبك على مايبدو، بل ازدادت الأمور سوءًا وأصبحتِ تصدقين أنك مريضة نفسيًا،أتعبتني وأتعبت الجميع يا حنين، قلنا لك أننا نحاول جمع المال لتسافري لإجراء عملية تجميلية لكن هذا يحتاج وقتًا، إرحمينا وارحمي نفسك، جميعنا نعمل لأجلك وأنت بكل أنانية تقلبين حياتنا جحيمًا، والآن تدخنين وغدًا بحجة أنك تريدين الهروب من الواقع اللعين لا استبعد أن تتعاطي أنواع المخدرات! لن أسمح لك بالتمادي أكثر هل فهمت؟ أكملت باقي كلماتها بغضب عارم قبل أن تدلف غرفتها مغلقة الباب بعنف.
- أمي! أُنفرجتْ شفتاي وأنا أهمس باسمها دامعة العينين، فجأة دوت أصوات رجال الحي وهم يشيعون أحد الشهداء، وتعالت أصوات الرصاص من بندقياتهم تكريما له.

غطيتُ فمي بيدي ومنعتُ شهقاتي ثم اتجهت إلى غرفتي، رأيتُ عقب السيجار الذي نسيته على الطاولة ضربتها بقوة لتنقلب وما عليها، ثم استلقيت على سريري لقد سئمتُ حقًا من حياتي التي لا أعمل بها شيء سوى البكاء على ماض

قد حفر آلامه على وجهي.، سئمتُ من وحدتي وصمتي وبكائي الذي لا فائدة منه مئات الشهداء يسقطون يوميًا في وطني...ألم يحن دوري بعد!!

بعد فترة ساعتين تقريبًا طرق الباب وتقدمت مني أمي تحمل بيدها كوبا من العصير ابتسمت لي وجلست بجانبي على السرير وصارت تمسح على شعري بكل لطف ثم قبلتني قائلة: (أريد أن أسترجع حنين الصغيرة التي تضحك وتمرح، حنين التي تملأ المنزل بعفويتها وبرائتها، أنت ملاكي يا ابنتي، أموت كل يوم لما أراه فيك من ذبول.أمر الله وقد حدث، تعايشي مع وضعك الجديد ولا تخطئي أكثر بحقك وبحقنا.)

استدرتُ لمواجهتها ثم دفنتُ رأسي بصدرها أذرف دموعي واعتذر عن كل شيء قد سببته لها فرفعت رأسي بيدها باسمة:

(أتعدينني بأن تهتمي بنفسك وتكوني قوية حنين ومهما حصل، نظرتُ لها بصمت لكنها أصرت وأعادت سؤالها مجددًا فهززت رأسي بإيجاب، ضمتني بقوة قائلة –لا تنسي أني أحبك "

*****

عامر

إنها نهاية الأسبوع أي أن طقوسي المعتادة قد بدأت، اعتكفت ريم بغرفتها بعد أن استلقت أمي على السرير لتنام، وهاأنذا بهذا الليل الهادئ أجلس مع ضياء بساحة المنزل، أمامنا بركة المياه التي تتموضع عليها الزهور وأرتشف من فنجان قهوتي المرة على أنغام القذائف –عفوًا – أنغام عبد الحليم الذي لا امل من سماعه أبدًا:

جلست والخوف بعينيها.....تتأمل فنجاني المقلوب

قالت يا ولدي لا تحزن..... الحب عليك هو المكتوب

هل هي مصادفة الآن أن أستمع إلى تلك الأغنية بالتحديد! لا أظن ذلك أبدًا فأنا لا أؤمن بالمصادفات، كل شيء بحياتنا مرسوم حتى بأدق تفاصيله، بعد أنْ ابعدتُ الفنجان عن شفاهي قلت له:

- ياه القهوة عشق لا يموت"

نظر إلي ضياء باستهجان بعد أن رآني استلذ بفنجاني، وقال ضاحكًا:

- لو أن القهوة امرأة لحاربتُ الدنيا لتظفر بها ياصديقي.

شردت بالمياه المتدفقة وسألته:

- وما أدراك أن المرأة ليست كالقهوة!

رفع بصره تجاهي ساخرًا: وكيف ذلك أيها العبقري من يسمعك يظن أنك زير نساء لا يعرف أنك لم تواعد امرأة قط!!.

فضحكت مجاوبًا:

- أنت تعرف أني ملتزم ولا رغبة لي بتلك السخافات فليس من الرجولة أن أواعد من لا أريد الزواج منها أليس كذلك؟.

وطبعًا أعرف أن كلامي هذا لا يروقه، فبالنسبة لضياء تبديل عشيقاته كتبديل ملابسه كل يوم، هن الأزهار بالنسبة إليه ولا بد من أن يشتم كل مرة زهرة جديدة، ووسامته قد أوقعت بطريقه أجمل النساء لكنه لا يكتفي ولا أظنه سيكتفي حتى يدمر نفسه!

تأملتُ فنجاني مجددًا وقلتُ له: صدقني إنهن متشابهات، فهنالك المرأة الحلوة، والمرأة المرة لكنك تستلذ بمرارتها حد الجنون هناك السمراء والشقراء منها الغالية ومنها الرخيصة تمامًا كأنواع القهوة.

صمت مفكرًا بكلماتي، ثم أكمل كلمة جعلت الفنجان يسقط من يدي لتتناثر شظاياه على الأرض:

– وهناك القهوة المحترقة أليس كذلك؟

رفعت بصري إليه مثبتًا عيني عليه، ثم قال بعدها:

– لقد استطعت العثور بملفها على رقم أخاها إنه يعمل محاميا، هاك الرقم خذه، تناولتُ الورقة من بين يديه وحدقتُ فيه مبتسمًا فقال مجددًا:

والآن مالذي ستفعله؟ إنه سؤال صعب صراحة فإلى الآن لم أرسم خطة مناسبة لذلك، لكني على أقل تقدير قد اقتربت كثيرًا منها وأكاد أرى أني الآن أفك شيفرة اللغز المتعلق بها وقلت له ببساطة:–سأكلمه.

انفرجت شفتاه عن ضحكة عالية قبل أن يقول ساخرًا:

وماالذي ستقوله أيها الأبله:

– عذرًا سيدي ولكني أحلم بأختك ليلاً! كي يمحيك من على وجه الكرة الأرضية!

حدفته بوسادة كانت بجانبي مجيبًا:

– أحيانًا كثيرًا أشك بأنك اشتريت من سمسار شهادة الطب أيها الأحمق، هل تراني ساذجًا لهذه الدرجة، سأرى ما علي فعله؟ لكن ذلك الطبيب النفسي متى سأقابله؟

.فاعتدل بجلسته قائلاً: غدًا إن رغبتَ، لقد حادثته البارحة وهو متفرغ حاليًا.

مقدورك أن تبقى مسجوناً بين الماء وبين النار

فبرغم جميع سوابقه وبرغم جميع حرائقه

الحب سيبقى يا ولدي أحلى الأفكار

ومازال عبد الحليم يترنم بكلماته وهاأنذا ألملم فنجاني المكسور من على الأرض وكان ضياء ممددًا ساقيه على الأرجوحة بهذه الليلة التي قررت فجأة أن تطول ،وهو يسحب من نرجيلته باستمتاع حقيقي بعد أن سلمني الورقة المحتوية على رقم خالد.

انتهيتُ وارتميتُ أيضًا على الأرجوحة وشردتُ بنجوم السماء والتي أصبحت فجأة ترسم لي طيفها ذا الشعر الغجري وكأن عبد الحليم يصفها لي عندما رأيتها لأول مرة في المتجر.

بحياتك يا ولدي امرأة.....عيناها سبحان المعبود

فمها مرسوم كالعنقود..... ضحكتها أنغام وورود

والشعر الغجري المجنون..... يسافر في كل الدنيا

قد تغدو امرأة يا ولدي..... يهواها القلب هي الدنيا

وكيف لأغنية أن تترجم ما يعتريك هكذا ببساطة!

تغدو زمنًا تحاول فك طلاسم أفكارك تجاه شخص معين وبضع كلمات فقط تستمع إليها مصادفة تعري كل أفكارك وتكشف الحقائق أمام عينيك، وللحظة تذكرت صوتها الناعم عندما طلبت من البائع أن يعطيها كيسًا من السكر، بالله عليكم كيف لقطعة سكر أن تشتري السكر!!!

لكن سماءك ممطرة... وطريقك مسدود

فحبيبة قلبك يا ولدي..... نائمة في قصر مرصود

من يدخل حجرتها .... من يطلب يدها

من يدنو من سور حديقتها....من حاول فك ضفائرها يا ولدي

مفقود مفقود مفقود

تنحنح ضياء فوق رأسي ورفع حاجباه قائلاً:

- أين صرت الآن يا ولدي.

نظفتُ حلقي وقلت بلا مبالاة:

- اشتري السكر.

وعاودتُ الشرود بكلمات أغنيتي التي بتُ أعشقها مؤخرًا وكأنها ترسل لي إشارات سحرية عما كان وما سيكون.

وسترجع يوماً يا ولدي مهزوماً مكسور الوجدان

وستعرف بعد رحيل العمر بأنك كنت تطارد خيط دخان

فحبيبة قلبك يا ولدي ليس لها أرض أو وطن أو عنوان

ما أصعب أن تهوى امرأة ليس لها عنوان

- لكن حنين لها عنوان وسأجده.

- عفوًا!!!

نهضتُ فجأة بعد أن شعرتُ بإحراج من الذي تفوهتُ به قبل قليل أمامه، وضحكتُ بسذاجة فنهض من مكانه، وقال بملل:

- لن أقضي باقي الأمسية معك أيها المعتوه، لقد فقدتَ عقلك بكل تأكيد، سأذهب لأنام بمنزلي سلام..
- لا تنس إغلاق الباب خلفك.

قلتها بلا مبالاة ولكن لما رماني بعلبة دخانه هل أخطأت بحقه!! حسنًا تناسيته و بعد أن سمعت صوت انغلاق الباب عاودت الإستلقاء على الأريكة الأرجوحة واضعًا يدي تحت رأسي مستمتعًا بهذه الأغنية التي أعدتُ تشغيلها للمرة الثانية والثالثة والرابعة تحت نجوم سماء حنيني حتى غفوت.

وأطلتْ شمس صباح اليوم التالي لتغمر الأرض بدفء جميل فتحت عيناي بعد أن عكست الشمس أشعتها لتسقط على وجهي و كانت ريم تقف قبالتي تبتسم ببلاهة لم أفقه سببها نظرت إليها ؛ فتلون وجهها الأبيض بألوان الطيف السبعة قبل أن تتلعثم بحروفها قائلة:

- صباح سيدي خير.

ضحكتُ قائلاً لها وأنا أنهض من على الأريكة والتي على ما يبدو أنني نمت عليها البارحة:

- تقصدين صباح الخير سيدي أليس كذلك؟

اطرقتْ رأسها الذي أصبح بلون الطماطم خجلاً، ثم هربت من أمامي! يا لهذه الفتاة! بعد أن اطمأننتُ على أمي وتناولت طعام الفطور الذي أعدته ريم نظرت إلى الساعة التي قد تجاوزت الحادية عشرة بقليل، وأخرجتُ هاتفي لأتصل بضياء لنذهب لملاقاة ذلك الطبيب النفسي الذي أخبرني عنه، لكن السؤال الذي شغل

تفكيري كيف له أن يترك أمريكا و يعود إلى الوطن بهذا الوقت!!! ومن هنا يتمنى الهرب ويسعى جاهدًا لذلك، شككتُ بأنه مختل عقليًا.

مرت ساعتان من الزمن تقريبًا وها نحن نقف أمام عمارته، دلفنا إلى الداخل وصعدنا إلى الطابق الرابع حيث عيادته وأنا أتمنى ألا يكون نصابًا أو مجنونًا...كانت عيادته جديدة على يبدو فلا زال هنالك الكثير من الصناديق المغلقة هنا وهناك، تقدم منا رجل حليق الذقن، وسيم نوعًا ما و ملامحه مريحة لكنه حتمًا أصغر مني سنًا،عانق ضياء بحرارة بالغة مرحبًا به ومعبرًا عن اشتياقه الشديد إليه ثم ألقى السلام عليَّ واقتادنا إلى مكتبه.

- إعذراني فكما تعلمان أني افتتحتها حديثًا وأنتما أول من يدخلها.
- لا عليك دكتور ليجعلها الله آية رزق لك، قلتها له وأنا اتلفتُ حولي كانت جدران الغرفة بيضاء بها أريكة حمراء مخملية وفوقها على الحائط لوحة كبيرة لشلال يتدفق من أعلى الجبال الخضراء، إطارها كبير مزخرف، وثريا بلورية معلقة على السقف وخلف المكتب الخشبي مباشرة نافذة عريضة جدًا بستائر مخملية خمرية اللون كذلك.

ومكتبة معظم رفوفها فارغة فما زالت الكتب في تلك الصناديق المرمية بجانبها على ما يبدو، الجو العام يوحي بالدفء والطمأنينة يبدو أنه يعرف عمله جيدًا وهذا ما أشعرني بالإرتياح.

- حسنًا سيد عامر كيف لي أن أخدمك، إن ضياء أخبرني أنك تريدني باستشارة مستعجلة.

قالها د. كمال لي لأجيبه بابتسامة:

- سأخبرك بكل شيء لكن أرجوك لا تطلب مني أن أستلقي على تلك الأريكة ولا تشغل موسيقى يابانية لأسترخي فلا أحب هذه الاجواء الكئيبة.

ضحك عاليًا على كلماتي قبل أن يقول كمال مطمئنًا:

- لا تقلق صديقي لن أفعل إلا ما يرضيك فلسنا نصور هنا فيلمًا عربيًا قديمًا، تكلم براحتك وأنا أستمع إليك.

شكرتُ تفهمه وبدأتُ أخبره عما أمر به منذ سنتين تقريبًا، مذ رأيتها أول مرة وعلقت بمخيلتي إلى تلك الأحلام التي تطاردني ليلاً.... قلت له كيف تحقق الحلم ورأيتها محاطة بالنيران...شرحت له صوتها...بكائها واستغاثتها بي وتفكيري الدائم بها بعد ذلك وتلك الأحلام التي باتت تفقدني صوابي.، وهو يدون الملاحظات، رأيت نفسي تدريجيًا أقف من على الكرسي وأتحرك بالغرفة جيئةً وذهابًا، حتى جلست على تلك الأريكة الحمراء بغير إرادة مني وأكملت له قصتي كان يستمع إليَّ بصمت ولم يتفوه بأي كلمة وأنا أتكلم وأتكلم لساعة أو اثنتين ربما، رأيت أن ملامحه انقبضت فجأة عندما قلت له:

- عيناها الخضراوان أصبحتا إدمانًا بالنسبة لي ولا أفقه السبب لتعلقي الزائد بها، اسمها بات محفورًا في تلافيف عقلي، لقد تعبتُ منها ومن نفسي ومن حلمي المتكرر بها صدقًا "

إستند برأسه على مرفقيه فقلت له:

- ما بك دكتور؟

رفع بصره تجاهي ورسم ابتسامة غريبة قائلاً:

- لا أبدًا لكن يبدو أنك أحييت ذكرى قديمة بقلبي لا عليك لا تهتم و أكمل.
- لا، لقد انتهيت.

هنا أكمل ضياء قائلاً:

- وفي ذلك اليوم وصلت سيارة الإسعاف التي كانت تقلهما سويًا إلى المستشفى وأنا من قمت بعلاج تلك الفتاة التي عانت من حروق شديدة من الدرجة الثالثة، أخذت قسمًا كبيرًا من وجهها فبقيت على إثرها لبضعة أسابيع في العناية المركزة، كانت صغيرة لم تتجاوز السابعة أو الثمانية عشر ربيعًا لكني لم أعرف بشأن تلك الأحلام التي تطارده إلا منذ بضعة أيام فقط عندما أخبرني.

أخذ كمال نفسًا عميقًا وطرحه قبل أن يقول لي:

- هنالك الكثيرمن علماء النفس والفلاسفة الذين شرحوا عن الأحلام وأبدوا نظرياتهم تجاه هذا العالم الغريب والكبير، إنَّ الحالة التي تمر بها سيد عامر اسمها ((الأحلام التنبؤية)) فهناك أحلام تؤكد لنا أن لها بُعداً غيبيّاً وما ورائيّاً.

قاطعته قائلاً:

- ولكن لم يتحقق أي حُلم من أحلامي قبل هذه الحادثة لستُ أملك هذه الخاصية.
- كل شخص فينا يمتلكها صديقي لكن هنالك من هم الأكثر حظًا فتتحقق أحلامهم أكثر من غيرهم، العديد من البشر يشعرون أن موقفًا

معينًا مروا به مألوفا بالنسبة إليهم،هذا إحساس عميق يستوطن قلوبهم كمن يزور منطقة ما لأول مرة ولكنه يشعر بأنه قد رآه سابقًا بل وببعض الحالات يستطيع التعرف على أشياء معينة متعلقة بهذا المكان، وبالنسبة إليك كانت تلك المرة الأولى لكنها نقطة مفصلية غيرت حياتك.

إنَّ أرسطو تحايل بذكائه وقدّم تفسيرات، فقال بأنَّ كل حلم تنبؤي يمكن أن يفسر بعدة عوامل:

العامل الأول:

الصدفة.. فكما تحدث الصدفة في الحياة الطبيعية تحصل كذلك في المنام، والدليل على وجود العامل الصدفي علميّاً ؛ هو أن الأحلام التي في المنام والتي لا تتحقق أكثر بكثير من تلك التي تتحقق، لذلك فهي أقرب للصدفة منها للتنبؤ.

العامل الثاني:

الإيحاء الحلم يوحي لصاحبه – أو لمن له علاقة به – بما يجعله يندفع إلى تنفيذه، وإن بطريقة غير واعية من حيث أراد أو لم يرد أو رغب أو لم يرغب وبالنسبة إليك إن تلك الفتاة علقت بمخيلتك ولربما لفتت انتباهك لجمالها، لذلك ولشدة تفكيرك اللاواعي بها وبالنسبة لعملك كرجل إطفاء قد حبك عقلك ذلك السيناريو ليخرجه بهذا الشكل في المنام.

العامل الثالث:

"نظرية الحافز النفسي"، وهذا العامل يشير إلى ارتباط الواقع بعالم الأحلام.

وهنا قاطعه ضياء باسمًا:

– أرأيت، أنك تفكر بها كثيرًا ولذلك سلامة موسى.

المصري يقول:

- **"أنا أنصح كل من يريد أن ينتصح بكلامي ألا يفشي أحلامه إلى أحد، إلا أن يكون أكثر من ثقة ؛ لأن الحلم وإن كان ظاهر البراءة والنزاهة قد يتورط صاحبه في كشف أسرار مخزية "**

لأبتسم بدوري مجيبًا:

- **هل تظن أني افتتنت بتلك الصغيرة أيها الأبله!**

فقال بتحدٍ:

- **إن لم تكن كذلك ما حاولت جاهدًا البحث عنها وما احتفظت بتلك السلسلة الذهبية.**

هنا انتفض كمال بطريقة غريبة قائلا:

- **عن أي سلسلة تتحدثان!**

قلب بصره بيننا بينما لم نفهم تصرفاته البتة، فأخرجت السلسلة الذهبية التي لاتفارقني أبدًا وأعطيته إياها فانتشلها بطريقة مفاجئة وثبت بصره عليها قبل أن يرتجف جسده ويصرخ:

- **حنين!....لا مستحيل.**

*****

الفصل الخامس

لربما تكون الصدفة أشد قهرًا من التخطيط، ولربما يضعنا القدر بمواقف لا نحسد عليها، كيف للأقدار أن تغرقنا بمستنقع واقع أليم ومفجع وبلحظة واحدة تنقلب الجنة إلى جحيمٍ مستعرٍ..

صرخ كمال بطريقة جعلت عامر وضياء يفزعان من تصرفه فيستحيل أن يقصدانها هي... حنين التي يعرفها يستحيل أن تتشوه بهذا الشكل،يستحيل أن تلتهم النيران جسدها الرقيق الفاتن بكل وحشية، ويستحيل أن تذبل سنابل عينيها الخضراوان، في بادئ الأمر ظن أنه تشابه في وصف الشكل ليس إلا لكنه بعد أن رآى قلادتها و التي لا تفارق صدرها منذ كانت طفلة، هرع بكل جنون نحو الخارج ولم يأبه لمناداة صديقه ضياء من خلفه.

ترك المكتب والعمارة واستقل سيارته بسرعة جنونية نحو المنزل، في حين وقف عامر يتبادل نظرات حائرة مع ضياء وقال بعدها:

- أحضرتني عند مختل عقلي يا غبي!

ثم انحنى ليلتقط القلادة التي سقطت من يد كمال قبل خروجه، لكن ضياء بهذه اللحظة بالتحديد ضرب على رأسه بقبضة يده بقوة، ثم توجه نحو الشهادة المعلقة على الحائط وصار يقرأ بصوت مسموع وببطءٍ شديدٍ:

- (كمال الرشيد) يا إله السموات كيف غفلت عن هذا الأمر.
- ماذا! انتفض عامر وتوجه بسرعة مزيحًا ضياء من طريقه ووقف يقرأ شهادة التخصص كذلك..

–مهلاً....أيعرفها، من يكون لها، قريبها؟

صار يتمتم لنفسه بصدمة، ثم استدار نحو ضياء الذي قال بدهشة: هو ابن عمها ضربه عامر على كتفه ونهره قائلاً:

– صديقك ولا تعرف اسم عائلته أيها الأحمق! لكن ما هذه الصدفة الغريبة؟.

فقال له ضياء بحنق:

– ما أدراني لقد نسيت كليًا أنه من بيت الرشيد، لكنها فعلاً صدفة تقشعر لها الأبدان والأهم من هذا كيف لا يعلم ما جرى لها؟؟!

خرجا من العيادة وقام ضياء بإغلاق الباب بإحكام ونزلا إلى الشارع و كانا يسيران بصمت وكأن هذه الأحلام قد باتت كوابيس حقيقية الآن، وقف عامر بعدها ليستقل سيارة أجرى ويعود إلى منزله فأوقفه ضياء قائلاً:

– ما العمل الآن؟

– لا أعلم...سننتظر كمال.

لكن كمال الآن كان في عالم آخر تمامًا أعمى الغضب عقله وتفكيره وأكل الحزن قلبه، ركن سيارته السوداء أمام باب المنزل ودلف إلى الداخل مغلقا الباب بعنف وصرخ بأعلى صوت مناديا:

– أمي..

كانت تجلس أمام شاشة التلفاز فأفزعها دخوله المفاجئ وصراخه بهذا الشكل، تقدم بعنف وأطفأ جهاز التلفاز ونظر بعدها بعيون ضائعة إلى والدته.

– ما الأمر كمال مابك؟

كانت أنفاسه متلاحقة وضربات قلبه تتسارع في حين عاود الصراخ...

- لماذا لم تخبريني بما جرى مع حنين!

سكنت حركة الأم للحظة قبل أن تبتلع لعابها بصعوبة وتتمتم:

- كيف عرفت؟.

لكنه أمسك زهرية وحطمها أرضًا وعاود الصراخ من جديد:

- لا تبادلي سؤالي بسؤال....لماذا لم تخبريني بذلك، لا أريد أن أفقد صوابي أمي، لقد احترق جسد حنين وها أنتِ تقولين ببساطة كيف عرفت! المشكلة بنظرك أني كيف عرفت؟ ألهذا لم ترغبي بعودتي!؟.

زفرت الأم بقوة ثم قالت له:

- أنت من قلت يوم خطبتها أن تذهب للجحيم فلم تعد تريد سماع أخبارها مجددًا أم أنك نسيت؟

جلس على الأريكة وحرر أول زر من قميصه وتلمس رقبته شاعرًا باختناق رهيب ثم رفع نظره تجاه والدته وتمتم بخفوت:

- –وهاهي قد لاقت الجحيم، ألا ترأفين بحالي أمي، ألا تعرفين من هي بالنسبة لي كذبتِ عليَّ وقلتِ انهم مسافرون إلى القرية كي لا أراها!

تقدمت الأم منه وجلست بجانبه محتضنة إياه ثم قالت بحنان:

- لأني أعرف من هي بالنسبة إليك آثرتُ الصمت، كنتُ موقنة أنك ستترك مشروع تخرجك حينها، ستحرق سنين دراستك كلها و تهرع لرؤياها، لم أستطع فعل ذلك بك، سامحني بُني كنت غاضبة منها بسبب ما فعلته معك ولم أتحمل أن تدمرك تلك الفتاة مرتين.

أطرق رأسه أرضًا وقال بألم:

– لأن تدمرني مئة مرة خير لي من أراها قد تدمرت بهذا الشكل.

صمت قليلاً يهدأ نفسه ثم سألها:

– وكيف هي، هل تعرف أني لا أعلم شيئًا عن الموضوع أم ماذا؟

ربتت على كتفه مجاوبة إياه:– لا أعلم صدقًا بُني، أباك رحمه الله منذ رفضتك وعلم بخطبتها أجبرني على عدم الذهاب إليهم لكن ما عرفته من زوجات أعمامك أن وضعها صعب جدًا حاليًا حتى أن خطيبها قد تركها بعد الحادثة.

– الوغد، عديم الشرف.

قالها كمال حانقًا فأكملت والدته:

– تدهورت حالتها النفسية كثيرًا وحجزت نفسها في المنزل تأبى الخروج أو مقابلة أحد أو حتى تلقي العلاج،هذا كل ما أعرفه.

إعتصر قبضة يده بغضب، ثم توجه إلى غرفته واستلقى على السرير عله يريح جسده وعقله المنهكين ومئات الأفكار والذكريات السوداء تهاجم قلبه.

لو تزوجت من ذلك الوغد خير لي من أن أراها مدمرة بهذا الشكل، أن تطعن قلبي بسكين حاد خير لي من أن تحرق إصبعها بعود ثقاب فكيف بوجهها وجسدها!.

أغمض عينيه وعادت به ذاكرته لسنوات مرت كانت فيها ما تزال مراهقة فاتنة، أسرته منذ الطفولة ببرائتها وسرقت قلبه أيام شبابه لكنها قتلته عندما اعترفت له بحبها لابن الجيران، كان بيت سرها وأصبح بلحظة تابوتًا يحتضن جثة هامدة بلا

حراك، لم يتحمل عقله التصديق بادئ الأمر ظنًا منه أنها تمازحه فقال لها بلهفة: غدًا سأرسل أبي لطلبتك رسميًا...

ابتسمت له بشقاوة قائلة:

- إفعلها وستندم...

وهاهو قد فعلها وندم، رفضته رفضًا قاطعًا أمام أعين الجميع مما أحرجه بشدة وأحرج والده، بعد أيام انتظرها خلف سور المدرسة وحينما خرجت جرها بعنف وسط الشارع صارخًا:

- لما فعلتي هذا بي؟ تعرفين إني أحبك حنين.

لكنها نهرته قائلة:

- كنت أظنك صديقي لكنك حطمت كل شيء جميل مر بنا، كنت أئتمنك على أسراري كأخٍ لي لا أستطيع أن أتزوج منك يا أحمق.

حينها وبلحظة طيش مرت ضربها على الحائط بعنف وقال:

- سأقتلك قبل أن تفكري بالزواج من أحد غيري سأحرقك إن تماديتي أكثر، صدقيني لن أتوانى عن خطفك لحظة واحدة إن فعلت هذا بي ولنرى من سيقبل بك حينها.

صفعته بقوة وقالت باكية وجسدها يرتجف بخوف:

- أنت عديم الشرف هيا ابتعد عني.

أفلتها من بين يديه مجبرًا و غادرت بعدها بغضب أما هو فكان مكسورًا ومهزومًا، كسرت تلك الصغيرة له قلبه وأغضبت أباه حد الجنون من تصرفها ومن موقف

أباها السلبي كذلك، فمن هي لتقرر؟ بقاموس والده المتعصب كان يتوجب على أباها اتخاذ القرار الذي لا رجعة فيه ولا رأي لفتاة بحق تقرير مصيرها.

تشاجرت العائلتان وتفاقمت المشكلة بين والديهما حتى سافر كمال هربًا منها ومن الجميع وانشغل بدراسته لكنه لم يستطع نسيانها أبدًا بل كان يختلس لحظات ليستمع بها إلى صوتها الرقيق.

يتصل فقط ليسمع كلمة (ألو) منها ويغلق الخط فورًا، وها هو الآن يستمع إلى صوت الألم، هل هو القدر من انتقم لعذابه طيلة تلك السنوات،أم خياله الذي صور له حنين نادمة بأبشع الطرق.

نهض بعد صراع طويل مع أحلامه البائسة مغادرًا المنزل وتوجه إلى مكتب المحاماة الذي يعمل به خالد داعيًا الله أنه مايزال يعمل هناك، وكان الأخير يجلس خلف مكتبه يطالع قضية بين يديه.

قال له بهدوء:

- أما زلت تعمل هنا يا ابن العم.

رفع خالد رأسه ليرى كمال ولترتسم ابتسامة عذبة على شفتيه قبل أن يقول:

- ويبدو أني سأموت بينما أعمل هنا خلف المكتب.

ثم نهض محتضنًا كمال بقوة لتمحى كل آثار السنوات المظلمة من حياتهما.

- متى عدت من أمريكا.
- منذ شهر ونصف تقريبًا.
- حمدًا لله على سلامتك هيَّا الآن لنخرج من هنا لأني سأحطم عنقك ولا أريد شهودًا على فعلتي.

ترك خالد الملف على الطاولة ثم تناول معطفه وخرجا إلى المقهى الذي اعتاد الجلوس فيه.

كان كمال يتلفت حوله طوال الطريق وكأنه يتذكر أيامه الماضية، كل شيء كان كما تركه هنا، الأيام مرت بسرعة وكأنها البارحة، جلس على طاولته التي اعتاد خالد الجلوس عليها بجانب النافذة التي تتدلى منها شتلات الياسمين فقال بشوق بالغ:

أتذكر جلساتنا هنا.

أدار خالد بصره إليه بعد أن طلب كأسين من الشاي من العم أحمد ثم قال له:

- كل شيء جميل مرَّ بنا كنت مشاركًا فيه يا ابن عمي، وكأنك بعد مغادرتك انتشلت السعادة من عائلتنا ومن هذه الحياة.

تجهم وجه كمال وقال له:

- أنا آسف صديقي...أشعر بما تعانيه لكن صدقًا لم أعرف بما حل بحنين سوى اليوم صباحًا وبالصدفة لم يخبرني أحد من عائلتنا طيلة سنتين.

رفع خالد حاجبيه دهشة لكنه يثق بكمال ويعرف أنه لا يكذب أبدًا لكنه قال بعتاب:

- إن عرفت أم لم تعرف لا حجة لك بأن تهرب هكذا، إن أختي أخطأت بحقك عندما أحرجتك بشدة أمام العائلة، لكن هذا لا يعني بأن تلغي صداقتنا بهذا الشكل وتسبب بمشاكل لا حصر لها بين عمي وأبي

ارتشف كمال من كوب الشاي الساخن أمامه ثم قال له:

- أعذرني خالد لكن الأمر حينها تحدى حدود الإحراج بالنسبة لي، أنا متأسف لما سأقوله لك لكني كنت أعشقها حد الجنون، لم أستطع تحمل أن تكون لشخص غيري..

هنا ضرب خالد بيده على الطاولة بحنق وقال:

- تأدب يا هذا وكفاك كلامًا عن أختي أيها المغفل.

تبادلا النظرات قليلاً قبل أن يضحكا عاليًا كأيام مضت، كانا يتشاجران فيها بسبب حنين فقال كمال:

- إسمع خالد يجب أن أراها،لا تنسى أني طبيب نفسي، سأحاول مساعدتها بأي شكل.
- لا تتعب نفسك لن ترض، لقد حاولت كثيرًا أن أعرضها على أطباء لكنها أبت، تعرف عنادها.

بهذه اللحظة رنَّ هاتف كمال نظر إليه فإذا به ضياء يتصل، أغلق الهاتف واستطرد:

- ولكني كمال...أنا متأكد من أنها ستستمع إليَّ.

تبسم خالد بأسى ثم أجابه: لأنك كمال لا أظنها ستقابلك أم أنك نسيت.

فقال بإصرار: سأحاول.

رأى بعينية بريق أمل يحتاجه بشدة فلربما استطاع مساعدتها خاصة وأن كمال يعرفها جيدًا لذلك قال له:

- حسنا لكن قبل كل شيء ستقابل والدي لنزيل هذا التوتر القائم بينكما.

*****

الحنين

كالسحب التي تخفي نجوم الليل لتغسل وجه الأرض باتت أدمعي، بحار لا شطآن لها تتصارع أمواجها لتجلدني على جسدي وكتفي ووجهي جلدة جعلت الحياة تسير بسرعة من حولي، لكن بالنسبة لي كان الزمان قد توقف، كانت جميع الأيام يومًا واحدًا يتكرر معي منذ بزوغ الفجر حتى اندثاره وراء ستارة الليل البارد.، وتحت ستارته السوداء التي تجعل الجميل يزداد جمالاً، والحزن يزداد حزنًا وألمًا، والعاشق يزداد عشقًا، سمعت ذلك اللحن مجددًا.

عزف جميل عاود الانسياب إلى قلبي بطريقة عذبة شدتني نحو شرفة غرفتي من جديد، انجرفت وراء ذلك الإبداع كالمغيبة حتى فتحت ستارة الغرفة بعنف هذه المرة وبلا تردد ليقتحم ضوء القمر غرفتي الباردة ولكني لم أبالي كثيرًا ففضولي كان أشد من أي شيء آخر، إن الليل يخفي العيوب لذلك سأكون متوارية من أن يلمحني أحدهم.

أدرت مقبض باب الشرفة وخطوت أولى خطواتي خارجة لتلفح وجهي ريح قوية هبت، ارتعش جسدي بسبب برودة الجو قبل أن التفت يمينًا لأراها في الشرفة المجاورة لشرفتي.كانت فتاة ذات شعر أشقر متماوج ترتدي قميصًا أبيض اللون تدير ظهرها إلي وتعزف على الناي، اقتربت بهدوء أتكئ بيدي على العارضة الحديدية وسرحت بالمعزوفة..

كان اللحن رائعًا يأخذك فعليًا إلى عالم آخر وكأنه لغة الطبيعة هي التي تتكلم من حولك، للحظة تناسيت ما يحيط بي من أصوات القذائف التي لم تعد تهدأ

وتخيلتُ أني بغابة كبيرة أشجارها عالية تصل حد السماء الأرجوانية لحظة الغسق، كنتُ أستمع لتغريد الطيور بأشكالها وأنواعها المختلفة المختلطة بغدير المياه العذبة التي تنسكب من الشلالات العالية وشعرتُ كأني ورقة شجرة تطفو على سطح بحيرة عذبة، تغير اللحن ومعه تغير كل شيء من حولي لأرى أني بقاعة كبيرة جدًا، أتلفت حولي ابتسم لكل أولئك الحضور في القاعة المزينة بزهور البنفسج،.صرتُ أراهم كيف يرقصون ويتسامرون بانسجام تام، و سرت قليلاً لأرى إنعكاس صورتي في المرآة، نفس الصورة التي كنت عليها قبل الحادث...فتاة جميلة جدًا شعرها الطويل الغجري ينسدل بكل حرية على كتفيها، عيناها تكتحلان باللون الأسود مع أحمر شفاه وردي يناسب مراهقة بعمري.

فتاة ترتدي ثوبًا أحمر اللون عاري الكتفين يضيق عند خصره كثيرًا وبعدها ينسدل على الجسد النحيل بكل انسيابية،.في ذلك اليوم كان يقف أمامي كأمير حقيقي ينظر إليَّ ويتفحص كل شبر بجسدي ويبتسم، وحينها اقترب مني هامسًا:

– كل يوم أزداد عشقًا لجمالك الآسر.

أبتسمتُ بخجل شديد من كلماته تلك فحاوطني بذراعه قائلاً:

– هل تسمحين لي بهذه الرقصة يا عروس الياسمين.

و كان هذا تحديدًا يوم خطبتي من فؤاد.

وتبسمتُ دامعة العينين وأنا أتلمس انعكاس صورتي وأشعر بحنين على ماض جميل اندثر بين طيات الزمن الغابر حتى لمحت انعكاس صورة لشاب يتقدم نحوي من الخلف بابتسامة عذبة أسرتني كثيرًا وصرتُ أتبسم له بدوري، استدرتُ

وتقابلتْ أعيننا للحظات طويلة جدًا كانت ملامحه واضحة وكأنني اعرفه لكني لا أتذكر أين قابلته.

- يا أنسة! يا أنسة!

وقعت فجأة من فوق سحابة أحلامي لأرتطم بأرض الواقع المرير فتلعثمت قائلة:

- هاااه..

وكأن أحدهم قد سكب على جسدي دلو ماء بارد!

- هل أنت بخير؟

نظرت إليها وتسمرت بمكاني وقد شددت بقبضتي أكثرعلى العارضة الحديدية وكدتُ أذوب خجلاً من شرودي الأحمق بهذا الشكل أمامها.

كان وجهها مريح بطريقة غريبة جدًا، بشرتها بيضاء صافية ووجنتاها متوردتان بفم ممتلئ، ابتسمت لي بعذوبة فقلت لها بتلعثم:

- نعم بخير..أنا جيدة.
- إذن لماذا هذه الدموع الآن؟.

تحسست وجهي بتلقائية لأشعر بتلك الدموع التي تتدفق بغزارة من عيني، مسحتها بسرعة وقلت لها:

- لا أبدًا، لا شيء، يبدو أنه الغبار فحسب، أعاني حساسية، لكن أتعرفين عزفك جميل جدًا أعذريني إن أزعجتك أكملي رجاءًا.
- بالعكس تمامًا لم تزعجيني....كنت أتدرب لأقدم عرضًا بالمركز الثقافي فموعد حفلتي بعد بضعة أسابيع.
- آوه حقًا...بالتوفيق لك.

- أتمنى مجيئك إلى هناك.

أومأت لها فقالت:

- اسمي سارة بالمناسبة لقد قطنا هذه الشقة منذ بضعة أشهر فقط، أنا وعائلتي ويالها من مصادفة جميلة بأن تعرفت على رفيقة بنفس عمري.

اكتفيتُ بالصمت وأنا أحكم إسدال شعري على جزء مكان التشوه فسألتني:

- ما اسمك؟.

- حنين.

إجاباتي مختصرة جدًا، باردة جدًا، على الرغم من اشتياقي الشديد لمحادثة أحدهم، إلا أن خوفي من العالم الخارجي مايزال يتملكني، أحسست بأحد يتقدم من خلفي إستدرت فإذا بأمي تتقدم بابتسامة واسعة تحتل محياها، ألقت السلام على سارة لتردها بطريقة لطيفة ثم قالت:

- يا ابنتي بإمكانك الحضور إن أحببت لتتعرفي على حنين.

تبسمت سارة بكل لطف وأجابتها:

- طبعا خالتي أتشرف بالحضور.

لحظتها ارتبكتُ جدًا من دعوة أمي المفاجئة تمتمتُ ببضع كلمات حتى أنا لم أفهمها واستأذنتُ للدخول ثم لحقتني أمي فقلت لها بغضب:

- لماذا دعوتها؟

زفرت أمي بقوة من سؤالي وأجابتني:

- تبدو فتاة ذات خلق، لقد حان الوقت يا حنين لتعودي إلى حياتك السابقة، إلى متى ستبتعدين عن الناس بهذا الشكل؟.

– أمي رجاءًا...تعجبني حياتي هكذا لا أحتاج أحدًا.

فقالت لي بحنان بالغ وهي تتلمس وجهي بأنامها:

– لا يا ابنتي تحتاجين إلى صديقة تحادثيها لا تكذبي على نفسك، أتعلمين...لا أستطيع أن أعبر لك عن مدى سعادتي عندما رأيتك تتحدثين معها.

ولكن!! قلتها فقاطعتني بابتسامة واردفت:

– هيَّا الآن العشاء جاهز ولنؤجل هذا الحديث.

وعلى العشاء كان خالد يجلس ناظرًا إلي بتمعن، ثم ابتسم ابتسامة واسعة لم أفهم مغزاها، تجاهلته وتابعت طعامي بصمت لحين انتهائي ثم وقفت لأغادر لكنه باغتنا قائلاً:

– إحزروا من قابلتُ اليوم؟.

طبعًا لم أكن لأهتم أبدًا فيمن سيقابل فتابعتُ مسيري دونما اكتراث لكلماته فسألته أمي:

– من؟

ليجيب بصوت عالٍ قبل أن أدخل غرفتي:

– كمال.

توقفت أمام الباب لبرهة فأكمل قوله:

– لقد عاد من أمريكا منذ شهر تقريبًا ودعوته غدًا لتناول العشاء إن لم تمانعوا.

حاولت جاهدة تجاهل حديثه ودخلت غرفتي مغلقة الباب، فسمعت ارتفاع صوت أبي قائلا بغضب:

– طبعًا لن أسمح له بدخول منزلي.

بعد كلمته تلك انتابني فضول لأستمع إلى حوارهم هذا فتواريت خلف الباب استرق السمع في حين كان خالد يقنع أبي بقوله:

– حان الوقت ليحل هذا الخلاف الذي مضى عليه سنوات طوال يا أبي أليس كذلك؟، لقد طلب مني آخذ إذنك في المجيء خصيصًا ليعتذر لك على خلاف انقضى وقته واندثر.

زفرتُ بقوة وأعدتُ إغلاق الباب عندما شعرت بأن جدالهم سيطول وجلست على سريري لكن فعلاً ما الذي يريده كمال بعد هذه السنوات التي انقضت، إلى الآن لم أنسَ تلك المشكلة التي تسببتُ بها برفضه وإحراجه أمام أفراد عائلتنا، أيعقل أنه نسي ببساطة كل تلك الكلمات الجارحة والمسيئة بحقه؟ لكن مهلاً ما دخلي أنا بهم وبضيوفهم! بكافة الأحوال لن أخرج لمقابلته فليفعلوا مايحلو لهم.

تمتمتُ بهذا واستلقيتُ بعدها على السرير وتناولتُ الكتاب من فوق المنضدة لأتابع القصة التي كنت أقرأها.

*****

عامرة

وها هوذا لغز آخر من ألغاز (فتاة أحلامي حنين) أعذروني لكن ما من تسمية أخرى لها، مازلتُ أفكر بردة الفعل الغريبة التي صدرت من كمال البارحة ما إن رأى القلادة ولكن التساؤلات باتت تحيرني وتجبرني على أن أعرف المزيد منه

عنها ؛ لذلك قررت أن أذهب لملاقاته لأستوضح كل شيء، وهاهي ذي الساعة تشير الآن إلى السادسة مساءًا، انتهت فترة مناوبتي في القسم فاستبدلت ملابسي وانطلقت بسرعة إلى عيادته داعيًا الله أن يكون تفكيري صحيحًا برؤيته هناك وفعلاً ماهي إلا نصف ساعة مرت كنتُ فيها أمام باب مكتبه المفتوح، تبسمتُ برضا وخطوت إلى الداخل طارقًا الباب عدة مرات لكن ما من مجيب!!كان يرتب رفوف مكتبته لكن أيعقل أنه لم يسمعني؟

تركتُ أسألتي جانبًا وتقدمتً منه، كاد أن ينحني ليلتقط كتابا آخر من الصندوق لكني تناولتُ واحدًا ووضعته أمامه فرفع وجهه بتلقائية ورآني لكن على ما يبدو أنه لم يُسَر لرؤيتي ولا أفهم السبب لذلك!، أنزل سماعات الهاتف كانت معلقة بأذنيه، هذا هو سر عدم سماعه طرقاتي على الباب، باغته قبل أن يتفوه بأي كلمة:

– أنت مدين لي بتفسير منطقي عما فعلته البارحة د: كمال.

تناول الكتاب من راحة يدي ووضعه على الرف الذي أمامه فقلت له:

– بالمناسبة لقد طرقتُ الباب عدة مرات لكنك لم تجبني.

فقال لي مجاوبًا:

– كنت أستمع لأغنية فلم انتبه.

فعاودتُ القول من جديد:

– لم تجبني عن سؤالي.

– أي سؤال بالتحديد سيد عامر؟

– لما تصرفت بهذه الطريقة؟ هل هي قريبتك؟

تجاهلني مجددًا وأكمل عمله ؛ فاستهجنتُ تصرفه وانقلابه تجاهي بهذا الشكل بين ليلة وضحاها، أمسكت الكتاب من يده وقلت بإصرار:

– أريد أن أفهم رجاءًا.

فقال لي بتململ:

– لا شيء لتفهمه ظننتها فتاة أعرفها ليس إلا لكنها لم تكن هي، أما بالنسبة لحالة كوابيسك خذ قرصًا مهدئًا وستنام بعدها بلا أحلام تزعجك صدقني لست مفسر أحلام إن لاحظت ذلك!!.

مهلاً، هل يسخر مني هذا الأحمق الآن أم ماذا! بتحدٍ قلت له:

– إنك من بيت الرشيد كذلك.

ضيق عينيه أكثر تجاهي وقال بعدها:

– تشابه أسماء ليس إلا والآن رجاءًا عندي موعد مهم.

مسحتُ وجهي بتوتر وجاهدتُ كي لا أبرحه ضربًا إلى وقاحته تلك وقلت بهدوء شديد:

– حسنًا إذن إن كنت مصرًا على أنه تشابه أسماء ليس إلا، ساصل إليها بطريقتي الخاصة وقريبًا جدًا "

وتركته مغادرًا بحنق.

*****

الفصل السادس

لم يفقه كمال سببًا لتصرفه الفظ مع عامر، فليس من عادته أبدًا التعامل مع أحد بهذه الطريقة وكأنه منافس قوي لشيء يمتلكه هو.

لكنه الآن يعرف أمرًا واحدًا فقط، سيقابلها الليلة، مهما كان ما آل عليه شكلها لن يتأثر بذلك أبدًا، لقد أحبها منذ كانت طفلة، عشق طباعها وبرائتها وعفويتها والشكل بات آخر ما يفكر فيه حاليًا، أقنع نفسه بتلك العبارات وابتسم بسعادة وهو يجلس خلف مكتبه منتظرًا أن يحين الوقت لذهابه ؛ ولهذا اعتنى بملبسه جيدًا الليلة بل وأغدق نفسه برائحة عطرة كأيام كان يقابلها ليتحادثا سويًا وهي كالبلهاء تخاله مجرد صبي مراهق متأنق ليس إلا، لم تكن تعرف أنه في كل مرة كان يذهب فيها لرؤيتها وبتفكير الشاب المراهق يهتم بنفسه وبرائحته خصيصًا كي تنجذب إليه كالفراشة التي تلاحق الأزهار، لكنها وبرغم سنها الصغيرة في كل مرة تثبت له مدى سذاجته.تخاله مجرد ابن عم وصديق وهي بالنسبة إليه الوجود كله، وكأن الزمن قد عاد إلى الوراء لبضع سنوات قضاها معها يلعبان بحديقة منزل جدهما في الريف.تبسم وهو يتذكر كيف كان يؤرجحها على الأرجوحة الخشبية التي علقها على شجرة وسط شجيرات الزيتون وهي تقهقه بسعادة، لكن ابتسامته ازدادت اتساعًا عندما تذكر صفعتها إليه جراء قبلته التي سرقها من وجنتها ذات مرة، كانت لحظاتهما معا تمر بذاكرته الآن ولحسن حظه أن ذاكرته قوية جدًا لاستذكاره أدق التفاصيل، نظر إلى ساعته ثم هيأ نفسه للذهاب.

وها هو الآن يجلس بغرفة المعيشة وأمامه عمه عبد الله وزوجة عمه أمينة، كان يريد أن يزيل هذا الخلاف ويلين قليلاً تعابير وجه عمه المتجهمة وها هو قد استطاع بكلماته المنمقة التي اختارها بعناية فائقة أن يضرب على الوتر الحساس ويوقظ ذكريات نفض عنها غبار الزمن وأهداها لعمه الذي شرد بالماضي الجميل،وخاصة بأنه عندما كان صغيرًا وولدت حنين هو من اختار لها هذا الأسم، رآها طفلة رضيعة كملاك صغير ينقصه فقط جناحان ليرفرف عاليًا فقال لعمه وهو يقهقه سعيدًا:

- سمها حنين يا عمي أرجوك، ليقبله عمه عبد الله حينها ويطلق عليها هذا الاسم.

بعد نقاشٍ طويل دار بينهما تعلل بأنه كان مجرد شاب طائش أحمق لاحق ابنة عمه متناسيًا رأيها في الموضوع وبهذا صفح عنه عبد الله وكأنه لم يبدأ صفحة جديدة فقط بل انتقى كتابًا جديدًا وخطَّ على أول ورقة فيه....

- هاهي السعادة تعود إليَّ من جديد.

ولكن أي سعادة يتكلم عنها وهو لم يرها إلى الآن، تناسى أو تغافل كيف سيتقبل انقلاب ملاكه الأسمر إلى مجرد جسد مشوه.

كان بكل لحظة ينظر إلى الباب علها ترحمه و تخرج للترحاب به، ومع مرور الوقت بدأ اليأس يتسلل إلى قلبه فتنهد بنفاذ صبر وانتقل بجلسته قريبًا من عمه، وقال له بهدوء ورصانة:

- عمي...أريد أن أتكلم مع حنين إن سمحت.

صمت عبد الله مفكرًا فلا حنين ستخرج لمقابلته ولا هو سيسمح له بالدخول إلى غرفة ابنته بالطبع، لكن كمال أردف حديثه:

- خالد شرح لي وضعها وحالتها النفسية المتدهورة وكنت أود أخذ إذنك بعلاجها ومساعدتها.
- لن تقبل لقد حاولنا مرارًا أن نقنعها بالأمر من قبل.
- دعني أحاول...لن نخسر شيئًا.

وهنا ابتسمت أمينة وقدمت له معروفًا كبيرًا وقالت موافقة:

- طبعًا، ومن خير من ابن عمها نثق فيه لعلاجها ونأتمنه عليها أليس كذلك يا عبد الله؟ نظر إلى زوجته التي شجعته على الموافقة ؛ لتتسع ابتسامة كمال وينهض خلف خالد للدخول إلى غرفة حنين.

انتظر خارجًا لبضع دقائق فقط وقد استمع فيها و لأول مرة منذ سنوات إلى صوتها الرقيق، لكنه بات صوتًا بلا روح، شعر بهذه اللحظة باقترابه من حافة الهاوية فلا يريد لقلبه وعقله أن يتزحزحا عن موقفه بحبه لها.

كان يدعو الله سبحانه أن يثبته على مشاعره بالوقت الذي تأخر فيه خالد عند أخته و التي بدورها رفضت مقابلة كمال،.كما كان متوقعًا وهاهو قد خرج إليه ممتقع الوجه لكنه كان مصرًا على مقابلتها لم يقطع كل تلك المسافة للجلوس مع عمه!!

- خالد إن كنت لا تمانع سأدخل الآن بغض النظر عن رفضها.

قالها هامسًا له ليرد عليه الأخير:

- لا أظن أنها فكرة جيدة لكن كما تشاء إدخل.

– شكرًا.، أخذ نفسًا عميقًا وطرحه بروية، ثم خطى إلى داخل الغرفة، وجمد بمكانه لثوان ينظر حوله.

أسود، كل شيء أسود، غطاء السرير والستارة وضوء قاتم لا ينير الغرفة بقدر ما يزيد ظلامها وخيالات لأشباح وهمية كأنها تسبح بالفضاء، دار ببصره قليلاً ليراها تجلس أمام النافذة التي عكست ضوء القمر ليسقط على ملاكه المتشح بالسواد كذلك كقديسة باتت وهي تجلس على الكرسي الخشبي وتطالع كتاباً ولم يفهم أصلاً كيف لها أن تقرأ بهذا الضوء الشحيح!.تنحنح قليلاً، وقال بصوت ثابت:

– حنين.

شعر بتوتر بأطراف أصابعها التي قبضت على الكتاب فلو كان ذا روح لتأوه من شدة الألم، عاود الحديث من جديد:

– هل لي أن أدخل؟

لتقول له حتى دون أن تكلف نفسها عناء النظر إليه:

– أرى أنك قد دخلت فعلاً، فلماذا تسأل!!

تبسم لكلماتها فبرغم كل شيء مازالت محتفظة في طريقتها التهكمية بالكلام فعاود القول من جديد:

– إذا كان يجب أن اسألك...أتسمحين لي بالتقدم ناحيتك؟

– لا "،

صدته فورًا، شعر بيد خالد على كتفه فاستدار وأومأ له مطمئنا وأشار إليه أن لا بأس فانصاع خالد لمطلبه وبقي يراقب الموقف بصمت عند باب الغرفة في حين

تقدم كمال ببطئ منها، شعرت بحركته فانسابت يدها بتلقائية لتسدل شعرها مغطية القسم المحترق من وجهها وهي تتمتم بخوف:

- قلت لك لاتقترب كمال.

لكنه تجاهل حديثها وتابع تقدمه بثقة حتى أصبح قبالتها مباشرة وجلس على السرير لتحني رأسها أكثر إلى الأرض بحيث أصبحت تغرق بالعتمة.

- لا أخفيك سرًا شعرك ما زال جميلاً كما عهدتك.
- شعري هو الشيء الوحيد الذي تبقى لدي..

قالتها بسخرية مريرة ليكمل كمال:

- لكن الشيء الغريب بالنسبة لي كيف تقرأين بهذه العتمة؟ أم أنك تتظاهرين بذلك أمامي

قالها باسمًا ليرتفع صوتها فجأة تقرأ له من كتابها:

- (((كنت في الثامنة عشرة حينما فتح الحب عيني بأشعته السحرية، ولمس نفسي لأول مرة بأصابعه النارية وكانت سلمى كرامة المرأة الأولى التي ايقظت روحي بمحاسنها ومشت أمامي إلى جنة العواطف العلوية حيث تمر الأيام كالأحلام وتنقضي الليالي كالأعراس.))

صمتت قليلاً لتثبت إليه أنها لاتتظاهر، بل تقرأ فأحنى جزعه قليلاً الى الأمام ليقلص المسافة بينهما قائلاً بخفوت:

- وصوتك ما زال دافئًا كذلك"

قالت بصوت متهدج مرتبك:

- ما الذي تريده مني كمال؟.

اعتدل بجلسته وقال بثقة:

بالمناسبة رواية الأجنحة المتكسرة جميلة جدًا قرأتها منذ سنة تقريبًا و كاا.....

لكنها قاطعته قائلة بحدة:

- كمال...لما أتيت الآن؟ ما الذي تريده مني؟

قال هامسًا بحنو شديد:

- أريد أن تكوني بخير.

- بك أم بدونك لن أكون بخير أبدًا لذا رجاءًا أتركني أريد أن أنام الآن.

رأى لمعة دمعة انسابت من مقلتيها، حاول الاقتراب منها لكنها أدارت جسدها ناحية النافذة أكثر قائلة:

- رجاءًا.....إنصرف.

نهض من مجلسه لتيقننه أنها لن تتحمل مزيدًا من الضغط لذلك قرر تركها اليوم، أخرج من جيب سترته وردة حمراء صغيرة وضعها فوق الكتاب المفتوح برفق ثم ألقى عليها نظرة أخيرة و خرج إلى الصالة حيث كان ينتظره الجميع بترقب،تبادل معهم نظرات يائسة لكنه قال:

- كيف تسمحون لها بالمكوث بتلك الغرفة السوداوية وبهذا الجو الكئيب.

- حاولنا كثيرًا منعها حتى أن عبد الله كان يغضب منها ويمزق الستائر والأغطية فتقوم بخياطتهم واستخدامهم من جديد.

قالتها الأم بألم فاقترب منها وربت على كتفها قائلاً:

- لن أستسلم حتى تعود إلى سابق عهدها أنا اعدكم بهذا، والآن أستأذنكم في الأنصراف.

قالها دون أن يضيف كلمة أخرى وخرج بسرعة من المنزل، سار في الشارع تاركًا سيارته مركونة أمام عمارتهم، كان يريد أن يتنفس قليلاً بعد هذا الاختناق الذي شعر به عندهم، كيف لصغيرته أن تعيش بمكان كهذا؟

ظل طوال الطريق يفكر بأمرها، دراسته طيلة سنوات وعمله لا يعنيان له شيئًا بهذه اللحظة أمام فشله معها إن حصل، هذا هو التحدي الحقيقي، ولكني لن أفشل، صار يردد تلك العبارة وكأنه يريد منها أن ترسخ بعقله وقلبه.

*****

حنين

لأول مرة منذ أشهر طويلة أفتح أهدابي لأستشعر نور الشمس التي تسللت أشعتها لتنير قسمًا من غرفتي، كان خطًا طويلاً من نورها يقسم غرفتي إلى نصفين وتذكرتُ أني البارحة كنتُ قد نسيت الستارة مفتوحة بعدما خرج كمال ولم أغلقها مجددًا.، نزلتُ من فوق سريري وسرتُ بخطى بطيئة نحو تلك الأشعة التي اشتقتُ إلى نورها منذ زمن، وكأني من أتباع درايكولا و كنت بسبات لمئة عام، جلستُ على الأرض وصرتُ أحاول أن أحرك أصابعي لألمس الخيط الذي رسمته أشعتها المتمردة أمامي.

و رفعت يدي عاليًا، شعرتُ بسعادة غريبة فنهضتُ واتجهت نحو الستارة وأكملتُ فتحها كاملة هذه المرة لتصبح غرفتي سابحة بنور الشمس، ضحكت

بسعادة وكأني طفلة صغيرة تتذوق الشوكولاه لأول مرة،هل وصلت لهذه المرحلة من اليأس والكآبة حقًا!

فتحت أمي الباب فجأة لأجفل مكاني.

كانت تنظر إلي بصدمة شديدة لكنها رسمت ابتسامة كبيرة وتقدمت نحوي وبدأت تحتضنني وتقبلني...

- أمي..أمي رجاءًا سأختنق!، ابعدتني عنها قليلاً وقالت بسعادة:
- أسفة حبيبتي أنا اسفة، لكني فرحت جدًا لأنك فتحت الستارة من تلقاء نفسك نهارًا.

ابتسمتُ لها قائلةً :

- لم افتحها كنت أتفقدها لقد اتسخت وتحتاج إلى الغسل ليس إلا.

حركت رأسها وكأنها تقول لي نعم صدقتك، ثم قالت: -تجهزي لأن سارة ووالدتها ستأتيان بعد قليل.

- من سارة؟

مابك حنين... الفتاة التي كلمتها على الشرفة رأيتها صباحًا مصادفة في الطريق عندما كنت اشتري الخبز ودعوتهما الى المنزل.

فقلت بغضب بعد أن جلست على السرير:

- ولكن أمي لماذا؟

أجابتني وهي تفتح باب خزانتي لتنتقي لي شيئًا أرتديه:

- لا أظنني سآخذ الإذن منك حينما أدعو أحدًا أليس كذلك!

فقلت بحنق بعد أن تمددت مجددًا على السرير:

- هم ضيوفك لن أخرج إذن.

تقدمت نحوي وقذفتني بالغطاء، ثم رمت الثوب فوقي، وقالت بتحدٍ:-معك عشر دقائق فقط لتتجهزي وإلا لن يحصل خيرًا يا فتاة،كلامي واضح؟

وخرجت مغلقة الباب بعنف.

- يا إلهي هل هذه أمي!!؟ حسنًا لأكن صريحة لست مستعدة لأن أتحمل نوبات غضبها الآن، لذلك قمت بتململ مجبرة ونظرت إلى تلك القطعة التي اختارتها لي، كانت ثوبًا مزركشا أبيض اللون لكني لم أعره أي اهتمام بل أخرجت ثوبا أسود طويل الأكمام مغلق الصدر وكأنني ذاهبة لتقديم العزاء، سمعت صوت جرس المنزل فعرفت أنهما قد وصلتا، سرحت شعري ببطئ وغطيت به نصف جبهتي كما هي العادة حتى فتحت الباب وقالت:

- أخرجي الآن ورحبي بالضيوف

ثم نظرت اليَّ من رأسي حتى أخمص قدمي وأردفت:

- أيتها الأرملة السوداء.

تجاهلت استهزاءها الذي يخفي الكثير من الحزن وراءه وتبعتها إلى غرفة الاستقبال وكانت هناك سارة تجلس كملكة بشعرها الأشقر المتماوج وبشرتها البيضاء الصافية وتزين شفاهها بلون وردي ناعم، يا الله كم احب اللون الوردي وكم أتمنى أن أضعه مجددًا لأتزين به، اعتصرتُ ثوبي بيدي وتقدمت بتوتر ناحيتهما لألقي السلام وجلست بعدها صامتة أستمع لثرثرتهن عن اوضاع البلاد والغلاء، فهاهو الحديث الشيق الذي بات جميع أفراد شعبنا يتكلم به مؤخرًا. و

بتلقائية صرتُ أقارن نفسي بسارة، جذابة جميلة وطموحة مليئة بالحيوية تسعى لتحقيق حُلمها بالمقارنة مع ميتة، نعم فأنا ميتة، مجرد جسد بلا روح، إستأذنت منهما ودخلت غرفتي وصرتُ أبكي بصمت، مسحت الدمعة التي سالت عندما طرق باب غرفتي وأتاني صوتها:

- حنين هل أدخل؟؟

استدرتُ ناحية الباب وفتحت لها كانت تحمل كوبين من الشاي، تبسمت لي وقالت:

- لقد بدئتا تتحدثان عن الطبخ وأجزم أنهما لن تصمتا قبل أن نضجر فقررت أن نتسلى قليلاً بغرفتك إن كنت لا تمانعين.
- تفضلي، قلتها ودخلت بارتباك وأنا أمرر يدي لأطمأن على أن شعري ما زال ساترًا مكان التشوه.

وضعت الكوبين على الطاولة وصارت تتلفت حولها وتتكلم بأريحية وكأنها تعرفني منذ وقت طويل!

تحبين اللون الأسود كثيرًا على ما يبدو

سألتني وأومأت لها بصمت، لم تسألني حتى عما أ خفيه خلف شعري فاطمأننت قليلاً؛ لأني أيقنت أنها ظنته مجرد تسريحة لا غير.

وبدأت أبادلها أطراف الحديث، كانت رائعة بكل شيء وكأن الله قد أرسل لي صديقة تخفف عني شبح الوحدة القاتلة، تناسيت الزمن وانشغلت أثرثر معها حتى سألتني:

- ماهي موهبتك؟

نظرت لها مفكرة قبل أن انطق:

- القراءة...أنا أحب القراءة.

فقالت:

- لا القراءة ليست هواية يجب أن تكون واجب في حياتنا أنا اقصدك مالذي تحبين فعله...العزف..الرسم..الغناء..الرقص؟؟

وحدقت بها بصمت فأنا حقًا لا أملك أي موهبة سوى البكاء، يبدو أنها لاحظت ارتباكي فقالت:

- أتعلمين كنت كذلك لا أملك موهبة حتى استمعت مرة الى معزوفة ناي عشقتها وقررت بعدها أن أتعلمه وهاأنذا أمامك الآن سأقدم أول عرض لي بعد فترة وجيزة.
- جميلة موهبتك قليلون من يمتلكون الإصرار لتنفيذ طموحاتهم.

بعد فترة صمت سألتني:

- أتحبين الموسيقى حنين؟
- أكيد.

فصفقت بيديها بفرح وهتفت:

- اسمعي إذن ما رأيك أن ترافقيني إلى معهد الموسيقى لتتعلمي العزف إنه قريب جدًا من هنا أذهب إليه مساء كل سبت وثلاثاء.
- شكرًا سارة ولكن لا أستطيع.

شعرت بإحباط فقالت:

– ولم لا إن رسوم التسجيل فيه بسيطة جدًا أنت فقط اختاري الآلة التي تحبينها وأبدأي وأنا سأساعدك.

أشحت بوجهي عنها بارتباك تقدمت أمي وأنقذتني في الوقت المناسب قائلة:

– سارة يا ابنتي أمك بانتظارك خارجًا ستغادر.

فنهضت قائلة:

– حسناً يا خالة.

وهمت سارة بالمغادرة توقفت بصدمة أنظر لها وهي تعرج عرجة طفيفة على قدمها اليسرى، لاحظت نظراتي فتنهدت قائلة بابتسامة واثقة:

– رصاصة طائشة تركت أثرًا على ما يبدو أنه سيلازمني طويلاً.

رفعت بصري مجددًا ناحيتها وأومأت بتفهم.

*****

عامرة

وها قد غفى القمر بين نجوم السماء، وسط العتمة التي تلتهم الطريق إلا من ضوء النيون الأصفر أسير عائداً إلى المنزل بعد أن خرجت من عيادة ذلك الأحمق كمال، لم يعد الأمر بالنسبة لي مجرد فضولٍ لأصل إلى حنين بقدر ما أصبح هوساً بحل قضية يلفها الغموض، خاصة بعد تصرف كمال معي الليلة،.أخرجتُ هاتفي النقال وبحثتُ عن اسم خالد، طبعاً كنت قد سجلت رقمه منذ أن أعطاني إياه ضياء كي لا أفقد الورقة، أريد ايجاد حُلمي الضائع فيها فلم يبق لي غيره ولا يهم تلك الحُجة التي سأختلقها للحديث معه، فالكلام سيخرج بتلقائية، المهم بالنسبة لي أن أراه لأراها من بعده فقط.، أن اشرح لها حالي منذ

رأيتها وبعد أن أنقذتها؛ لذلك ضغطت على زر الاتصال وانتظرت لحظة من الزمن ليجيب..

(((الرقم المطلوب خارج نطاق الخدمة حاليًا)))

وقفتُ فجأة استمع لتلك المفاجئة وكأن أحدهم قد صعقني بتيار كهربائي عالي التوتر، خارج الخدمة! اللعنة على حظي ولكن كان يجب أن أتوقع ذلك فلا شيء يكتمل معي حتى النهاية.

انهيتُ الاتصال حانقًا بعد أن تحطم كل أمل تعلقت به بلحظة وعدنا كما بدأنا إلى نقطة البداية من جديد، لا كمال أبدى تجاوباً معي وهذا الرقم يبدو أنه قد استبدله، فسنتين مدة طويلة وطبعا اتصلتُ بضياء فمن غيره سيتحمل نوبات جنوني الليلة، وما إن فتح الخط ليجيبني سألته بلهفة:

- أين أنت الآن.؟.
- أهلاً عامر أنا في المستشفى.
- متى تنتهي؟
- عندي مناوبة الليلة، لكن ما الأمر هل أنت بخير؟.
- أنا في طريقي إليك، أريدك بأمرٍ هام.
- بانتظارك.

أغلقتُ الخط ووقفتُ منتظراً سيارة أجرة لأنطلق إليه من فوري، وصلتُ وانتظرته في قسم الإسعاف وبعد أن تأخر عليَّ كعادته أخبرته بما جرى مع كمال فقال:

- مستحيل....إن كمال أبعد ما يكون عن استعمال هذا الأسلوب.
- إذن ما تفسيرك لما فعله معي؟؟.

- لا أعلم ولكن صدقاً كمال لا يستعمل هذه الطريقة الفظة أبداً إلا إذا...
- إلا إذا ماذا؟

وهنا صمت قبل أن يبتسم بمكر هامسًا:

- إلا إذا كان عاشقًا.
- ماهذا التخريف...يحبها ولا يعرف بالحادثة؟
- كان مسافراً قلت لك.
- وإن يكن! ألا يطمئن على أخبار حبيبته!

جدالنا بشأن كمال لم ينتهِ فكافة الإحتمالات كانت مفتوحة أمامنا لذلك طلبت منه أن يعرف السبب شخصياً بما أنه صديقه، وبقي لدي فقط أن أبحث عن خالد لأتواصل معه ومهمتي تلك يبدو أنها لن تكون سهلة أبداً.

وكما توقعتم لم تكن سهلة أيامي، قضيتُ أسبوعاً كاملاً اسأل كل من أعرفهم عن أسرة عبد الله الرشيد، أو عن المحامي خالد الرشيد وكمن يبحث عن أبرة في كومة قش وبالنسبة لضياء كذلك لم تكن مهمته بأفضل من مهمتي فكمال أبى أن يتكلم أو يبوح بأي شيء عن حنين وكأن سر الكون فيها قد ضُمر.

فبتلقائية كان يعرف أن ضياء صديقي و سيخبرني بكل تفصيل قد عرفه عنها ؛ لذلك قالها له وبدون خجل:

- دع علاقتي معك خارج إطار هذا الموضوع،.وبتلك الكلمات أيقنتُ أنه يحبها ومستعد بأن يحميها من الجميع ولكنه لن يحميها مني، ومضى الأسبوع وتلاه آخر وآخر، بقدر ماكنتُ موقن بقرارة نفسي أني سأقابلها

بيوم ما بقدر ما تسلل الخوف والملل إلى قلبي من البحث عن عائلتها وكأنها أصبحت ببعد آخر وعالمٍ ثان.

حتى جاء اليوم الذي قال لي ضياء فيه:

– قد تنفع أساليب المراهقين أحياناً.

لكني لم أفهم مقصده إلا بعد حين.

*****

الفصل السابع

وكأنها لعنة إغريقية منقوشة على جدران المعابد، ملاك يحتضنه ضوء القمر في عتمة ليلٍ بارد لكنه ذو وجه كظيم، صوتها مازال كما يعهده رقيقاً، بل أصبح أكثر نضجاً وأنوثة، لكنه نضجٌ ممزوج بارتجافة خوف واكتئاب، اضطرب قلبه من ارتجافها وها قد مضى على زيارته الأولى لها عدة أيام إنشغل فيها بإنهاء تفاصيل مكتبه الجديد، لكنه ما زال على اتصالٍ مع خالد للإطمئنان عليها.

كانت حُلمًا جميلاً يداعب نسائم أفكار شبابه ومراهقته وأصبحت كابوساً يقلق حاضره و مستقبله ومستقبل عائلةٍ كاملة، مع أنه كان راغباً وبشدة أن يراها ذلك اليوم، أن يرى آثار الحروق ليختبر نفسه أولاً كيف سيتقبل الأمر ولكنها كانت مختفية تحت جنح الظلام، حتى هي في قرارة نفسها كانت ترغب بتفحص تفاصيل وجه صديق طفولتها والتماس التغيير الذي حل به بعد هذه السنوات، لكنها اكتفت بالنظر إلى ذلك الكتاب بيدين ترتجفان لتتحاشاه، لتتحاشى نظرة ندمٍ منها وشفقة منه.

عامان خرجت فيهما عن احتساب الزمان ترتشف العلقم المر، وكأنها تتلذذ بتعذيب نفسها قبل الجميع، وكأنها تعاقب روحها على ذنوب اقترفتها فحكمت على نفسها بالشقاء المؤبد، كان كلام خالد عنها في مكتبه يقتله أكثر فأكثر كلما شرح له موقفاً أو عملاً من الذي تقوم به كلما ازداد تصميمًا على علاجها ولكنها وبهذه الظروف وبهذه الغرفة تحديداً لن تشفى، مادامت مصرة على الإنغلاق بهذا

الشكل، شكل غرفتها البارد والكئيب لوحده لن يساعدانها على الشفاء لذلك عرف ما عليه فعله، وما عليهم سوى التنفيد عل تفكيره يكون صائباً.

وها هو ذا كمال مساءاً يجلس على الأريكة ممدًا ساقيه على الطاولة البلورية أمام شاشة التلفاز بمنزله يتابع فيلمًا ويرتشف من كوب العصير أمامه، عندما تقدمت والدته وجلست جواره ليعتدل بجلسته.

- كيف حالك اليوم بُني؟
- الحمد لله، أجابها باختصار وأكمل مشاهدة فيلمه في حين كانت أمه تحاول الكلام مرارًا ثم تعدل عن رأيها، حتى لاحظ ذلك وقال وعيناه معلقتان على الشاشة: ما الأمر أمي؟ هل تريدين شيئاً.؟

ارتبكت قليلاً ثم أجابته:-لا...لا أبداً، ونهضت لتغادر ومشت خطوتين لكنها توقفت واستدارت ناحيته مرة أخرى، فقال لها مبتسماً :

- أمي أخبريني ما الذي يشغل بالك؟

حدقت به تصارع البوح لكنها بعد تردد قالت:

- في الحقيقة أريد أن أحادثك بأمر حنين.

وكأنه عند سماع هذا الاسم تسري كهرباء بجسده وتستنفر خلاياه بشكل ملحوظ، فنظر إلى أمه بعد أن تأهب شادًا ظهره وكأنه مستعد للإنقضاض على أي شخص قد يذكر حبيبته بسوء وقال سائلاً:

- مابها حنين أمي؟

تقدمت أم كمال وجلست أمامه مجدداً، ثم قالت بحنو بالغ:

- أرى أنك تشغل نفسك كثيراً بها منذ عرفت بشأن الحادثة.

- وإن يكن؟؟!!

- بُني...هذا موضوع حساس جدًا إن أظهرت لهفتك سيفهمك عمك بشكل خاطئ أو حنين، لربما هي قد تترجم اهتمامك بها على أنك مازلت...

فقاطعها مبتسما:

- تقصدين أحبها...نعم ما زلت أحبها وأكثر من الأول أمي.

أكمل هذه الكلمة عن أمه ؛ لتهب واقفة فوراً وهي تصرخ في وجهه:

- يستحيل أن أوافق على محبتك الحمقاء لتلك الفتاة، لم أنسَ إلى الآن ذلك الموقف الذي جرحتك فيه.

فضحك قائلاً بتململ:

- محبة حمقاء! حسناً بغض النظر عن مصطلحاتك اللطيفة لكن رجاءًا هذا الموضوع لن أسمح لأحدٍ أن يتدخل فيه.

فقالت له:

- هل رأيت وجهها بُني، هل رأيت ما حل بجسدها؟

فجاوبها ببساطة وهو ينهض من مكانه:

- لا ولستُ مضطراً لأن أراه لأعرف أني أحبها.

فابتسمت أمه بانتصار قائلة:

- إذاً لن نتكلم بالموضوع حتى تراها وأنا متأكدة أنك ستتراجع.

نظر إليها بشك ثم قال:

- هل أنت شامتة بها؟

تداركت نفسها فوراً وهي تستغفر الله:

- لا طبعاً، ماهذا الهراء الذي تتفوه فيه! أتظنني عديمة القلب لهذه الدرجة؟
- إنَّ طريقتك في الكلام عنها تقلقني جدًا.

ثم تقدم منها خطوتين وسألها:

- كان باستطاعتكم تقديم مساعدة مالية لعلاجها لماذا لم تفعلوا؟

تحاشت نظرات كمال وشغلت نفسها بمسح الطاولة ثم قالت:

- لم يطلبوا نقودًا من أحد.

.زفر بقوة قائلاً:

- لم يطلبوا! أوستنتظرون من عمي عبد الله أن يطلب منكم وأنتم تعرفون حالتهم المادية التعيسة.

فقالت له بغضب:

- وما دخلي أنا! إن أباك رحمه الله لم يسأل عنهم! لا تحملني مسؤولية ذنب لم أقترفه.
- أمي أنا لا أحملك مسؤولية أي شيء رجاءاً افهميني، تلك الفتاة كانت لتتعالج لو استطعنا مساعدتها بذلك الوقت، وماكانت لتتدهور حالتها الصحية والنفسية كما الآن، إنَّ حالتنا المادية جيدة جداً بالنسبة إليهم، أتعرفين أفكر في أن أقوم بعلاجها وعلى نفقتي الخاصة.

نفخت أمه بقوة فعلى ما يبدو هو مصر على التشبث بها رغم كل شيء، إنه عنيد منذ نعومة أظافره كان عنيداً فلن يتغير الآن بين عشية وضحاها تمتمت بكلمات

غير مفهومة تعبر عن انزعاجها ثم ابتعدت إلى المطبخ، في حين انشغل كمال بهذه الفكرة التي باغتته فجأة، ولم لا يساعدها أليس ابن عمها قبل كل شيء؟

رسم بعقله سيناريو جميل مفاده أن يعالجها ويتزوجها ؛ لتنتهي الحكاية وكأنه بأحد أبطال رواياتها الرومانسية وابتسم بسعادة متأملاً، لكنه عاد إلى الواقع مرة أخرى فهو يعرف عمه عبد الله جيدًا ومتأكد بأنه لن يقبل المساعدة المادية بأي شكل ومن أي أحد، لكنه سيحاول ولن يخسر شيئًا على الأقل لأجل حنين سيوافق الأب وسيتنازل قليلاً.

في صباح اليوم التالي أتجه إلى المستشفى التي يعمل بها ضياء وسأله عن حالة حنين بالتفصيل، بعد أن عرف بأنها تلقت العلاج في هذا المستشفى فأخرج الأخير الملف ليخبره بكل شيء.

- لكن المشكلة الآن أنَّ هذا النوع من العمليات التجميلية يحتاج لمبالغ ضخمة وعلى الأغلب لن تكتفي بعملية واحدة، قد يتطلب الأمر لعمليات عدة نظراً لمدى تدهور الحالة وصعوبتها والبلد الأنسب لهذا النوع من العمليات التجميلية والترميمة هي أمريكا

– قالها ضياء– ثم صمت قليلاً قبل أن يردف:

- ناهيك عن تكاليف الفيزا والسفر والإقامة التي لا بد وأن تطول كثيراً هذا وإن حصلت عليها من الأساس في هذه الظروف السياسية، لكن أنني لا أظنهم يمتلكون هذه المبالغ الخيالية

فقال له كمال:

– وما أدراك أنت بحالتهم المادية؟ كل ظني أنك تساعد صديقك في البحث عنها.

سؤالك هذا خير دليل على أنها لم تتلقى بعد العلاج، لست مغفلاً لهذه الدرجة.

– حسنًا لا يهم سأذهب الآن

– قالها كمال– وقبل أن يخرج اقترب منه هامسًا:

– إن أخبرت ذلك الإطفائي عن سؤالي إليك فسأقتلك ضياء صدقني.

ليضحك هذا الأخير وهو يجلس خلف مكتبه.

– سحقًا لكما أنتما الإثنان يا أخي مالي وهذه المصيبة التي ورطت نفسي فيها معكما، لا تقلق لن أخبره.

ثم أردف بسره

– (((لن أخبره....على الأقل الليلة)))

شكر كمال ضياء على تعاونه، ثم توجه من فوره لمكتبه ليضع خطة عمل وليدرس إمكانياته قبل أن يخبر عمه بالموضوع.

*****

الخالدة

عدتُ من العمل باكراً على غير العادة، كنتُ أشعر بإرهاق كبير خاصة أني قضيتُ ثلثي النهار في المحكمة وكل همي الآن أن أحتضن سريري الدافئ لأنام، أخرجت مفاتيحي من جيب بذلتي السوداء وهممت بفتحه، لكن أحدهم سبقني وفتح باب المنزل فجأة وخرج ملاك أشقر الشعر...

جمدت بمكاني كالأبله عند العتبة و تعلقت عيناي عليها، كانت والدتي تودعها من خلف الباب وترحب بي، ألقت الفتاة علي السلام واجتازتني مغادرة لأشتم رائحة عطرها التي اخترقت جهازي التنفسي كمسكر لذيذ وابتسمت كالمعتوه ألاحقها بعيني، ثم تساءلت بعد أن ولجت وأغلقت الباب من خلفي:

- من...من هذه أمي؟
- صديقة حنين ابنة الجيران.
- مهلا لحظة! حنين أصبح لديها صديقة؟

أفقتُ من شرودي بذلك الملاك الذي خرج لي من باب منزلي لأصدم باختي التي قررت أخيراً أن تخرج من انعزالها بهذا الشكل لا وبل مع هذا الملاك!

وتوجهت من فوري إلى غرفة حنين كما هي العادة مساءاً أطمئن عنها ثم سألتها بلهفة:

- وأنا في الخارج رأيت صديقتك.، لا تعرفين كم أسعدتني أمك بهذا الخبر.

ابتسمت لي مجيبة:

- إن سارة ثرثارة جدًا لكنها لم تسأل حتى عما به وجهي ولما أخفي نصفه خلف شعري بتلك المرات التي قابلتها بها لذلك ارتحت لها.
- جميل.
- ماهو الجميل أخي؟.

شردت مجددًا باسمها هذه المرة ولم أنتبه لكلمات أختي، ثم دخلتُ غرفتي لأستبدل ملابسي قبل العشاء، هذه أول مرة يدق قلبي بعنف هكذا وكأنها طبول

حرب، أرخيتُ ربطة عنقي، ثم ابتسمت بمرارة ورميتها على السرير، ماهذا الهراء الذي أفكر فيه الآن أينقصني أن اتعلق بفتاة بهذه الظروف التعيسة التي أمر بها! نفخت بقوة ثم استبدلتُ ملابسي وخرجتُ لتناول طعام العشاء لكني عرجتُ أولاً إلى المطبخ لأحادث والدتي بشأن حنين، سألتني بقلق بعد أن استمعت لما أخبرتها به: وإن لم توافق؟

– ستوافق أمي..استعملوا سلطتكم وستتقبل الأمر مرغمة.

هزت أمي رأسها بقلق ولكن على مايبدو أنه الحل الوحيد.

*****

حنين

ذات صباح استيقظتُ ولم يكن هنالك أحد في المنزل اتصلتُ بأمي لكن هاتفها كان مقفلاً مما زاد حيرتي، وانتظرتُ ساعات النهار علها ترحم قلقي وتجيب ولم أتقدم خطوة نحو الصالة إلا ورن هاتفي، تنهدتُ ارتياحًا عندما لمحت اسم المتصل وأجبتها بلهفة:

– أين أنت أمي؟ لقد قلقت جدًا.

– أنا بخير حبيبتي لكن خالتك تعبت فجأة فاضطررت السفر صباحًا عندما كنت نائمة لذا لم أستطع إخبارك.

– هل حالتها سيئة؟

سألت أمي لكنها لم تجب بل قالت لي آخر شيء قد اتوقعه منها في ظروف كهذه:

- إسمعي...تجهزي ووضبي أمتعتك وبعد قليل سيأتي ابن عمك كمال لاصطحابك

أمي!! اصطحابي إلى أين لم أفهم؟.

- إلى القرية طبعًا.
- لما؟؟
- لبضعة أيام.
- ولكن أمي لن أغادر المنزل.
- لا تجادليني حنين.

وهنا صرختُ بفزع:–قلت لك لن أغادر تعرفين أني لا أستطيع الخروج.

هنا اختفى صوت أمي لاسمع صوت جدي يقول لي بحدة:

- نحن لا نأخذ برأيك يا فتاة مفهوم بناتنا لا يبقين بالمنزل لوحدهن،هيا تجهزي فكمال سيصل بأية لحظة.

وقفت ممسكة سماعة الهاتف لكن جسدي ينتفض مرتجفًا.جدي! إنها المرة الأولى التي يحادثني فيها منذ أشهر وهاهو ذا يصرخ بوجهي ما الأمر! لماذا يصرون على خروجي وهم يعرفون حالتي اللعينة؟ وأمي خصيصاً تعرف مالذي جرى آخر مرة خطوت فيها خارجاً؟

أعلق جدي الخط من فوره معلناً انتهاء المحادثة فضربت الهاتف بقوة و توجهت نحو غرفتي بحنق وجلست على السرير دامعة العينين فكيف لهم أن يقرروا أمراً كهذا دون مشورتي.؟ وبعد برهة سمعت صوت انفتاح باب المنزل وبعدها طرق أبي باب غرفتي ودخل ناظراً إليَّ. –متى سيأتي؟

نظرت إليه بصدمة فليس من عادته أن يأتي باكراً؟؟ و ما أدراه أن كمال قادم! فصرخ بي بعد أن طال صمتي.

- حنيين سألتك متى سيأتي كمال؟
- أبي قالت أمي أنه....أنه في الطريق.
- جيد..هيا وضبي أمتعتك بسرعة.

وكاد أن يغادر لكني استوقفته بتردد قائلة:

- ولكن أبي!!.

استدار قائلاً:

- ما الأمر
- لا رغبة لي بترك المنزل.

فقال لي بامتعاض واضح:

- لن اسمح ببقائك لمفردك ساعات طويلة تعلمين أني مناوبتي في العمل ستبدأ الليلة.

ولكن خالد هنا.

- خالد مشغول جدًا هيا كفى ثرثرة ونفذي الأمر.

زفرت بقوة بينما أهز قدمي بعصبية:

- حاضر.

هز رأسه راضياً ثم غادر ليستبدل ثيابه بينما حاولت الاتصال بخالد مرارًا لكن هاتفه كان مقفلاً يبدو أنه الآن يرافع بالمحكمة.حتى رن هاتفي من جديد معلنا وصول رسالة كانت من أمي.

اجلبي كل شيء ستحتاجينه، فمكوثك بالقرية سيكون طويلاً.

– لاا هذا كثير جدًا!! هل يريدون التخلص مني؟

انتقيت الحقيبة الكبيرة هذا المرة وأفرغت فيها معظم محتويات خزانتي والتي تتشابه بسوادها القاتم كأرملة عجوز تخاف الحسد!! ولم أنسى أن أضع بعضاً من الكتب التي لم أقم بقرائتها بعد، ثم جلست متوترة على السرير أفكر بخروجي المفاجئ من المنزل حتى خطرت ببالي فكرة غريبة لكن وجب علي تنفيذها،ألم يجبروني على الخروج إذن لا دخل لهم كيف سأخرج.

أمسكت هاتفي النقال واتصلت بسارة على أمل أن تساعدني إذا طلبت منها.

بعد دقائق معدودات طرق باب المنزل و هاهوذا كمال قد جاء، فقد عرفته من صوته، فتح له أبي الباب ودعاه إلى الدخول فذهبتُ أنا هرباً إلى المطبخ لإعداد القهوة ولم أمنع نفسي من استراق النظر إليهما داعية الله ألا تتأخر علي سارة بينما سمعت ضحكات أبي التي افتقدتها منذ زمن طويل وهما يتحادثان.

كنت أغلي القهوة بشرود وأنا أتذكر أيام طفولتي مع كمال قبل أن يسافر، لقد تغير كثيرًا لكن طريقة جلوسه هازاً قدميه لم تتغير!!.

تبسمتُ رغمًا عني ولم أنتبه للقهوة عندما انسكبت على الغاز.

– اللعنة.

– فنجان قهوة لا تعرفين إعداده يا بنت.

قالها أبي بغضب بينما أغمضتُ عيناي بقوة وتوترتُ من دخوله المفاجئ، عضضتُ على شفتي حرجًا وبدأت بملئ الفناجين فتناولهم مني وقال بعدها:

– هيا تجهزي ستخرجان بعد قليل.

– حاضر.

أجبته بخفوت وأنا أغادر من أمامه إلى غرفتي أنتظر مكالمة سارة حتى رحمتني واتصلت أخيراً..

– هيا حنين أنا على الشرفة.

أغلقت الخط وأسدلت شعري كالعادة على وجهي وتوجهت إلى شرفتي لأراها تضحك وهي تمد لي الكيس من خلف سور شرفتها.

– لا بد وأنك مجنونة ماالذي تريدينه من هذه الأشياء؟!

– سأخبرك لاحقا بكل شيء شكرًا لك على مساعدتي سارة لن أنسى صنيعك هذا أبدًا، سأدفعك لك ثمنها لاحقًا، إتفقنا.

– لا عليك، إنها لأمي لكنها قديمة قليلاً.

لا بأس بذلك....

وهنا سمعتُ صوت أبي يطرق الباب صائحًا:

هيا حنين ألم تجهزي بعد؟!

نظرت إلي سارة وودعتها على عجل قائلة:

– سأكلمك لاحقاً أبي يناديني.

ثم خطوتُ نحو الداخل أجيبه:

– لحظة أبي دقائق وأخرج.

أمسكتُ الكيس وأخرجتُ محتوياته وأنا أبتسم ابتسامة صفراء ثم ارتديته.

أنتم اجبرتموني فلتتحملوا النتائج.

قلتها بصوت خافت وتوجهت نحو غرفة أمي أنظر إلى شكلي عبر المرآة،.وفعلاً أعرف أأضحك أم أبكي على هذا السواد التي أتسربل به.

أخذت نفسًا عميقاً جداً أهدئ من ضربات قلبي المتواترة قبل أن أخرج بثقة أمامهما.

أمسكتُ الحقيبة الكبيرة وجررتها نحو الباب، ثم توجهت إلى الصالة قائلة:

- أنا جاهزة.

لأرى الصدمة التي حُفرت على وجهيهما بعد أن التفتا إليَّ، فتقدم مني أبي بغضب وهو يصرخ:

- مالذي تحاولين فعله يا غبية!

رفعت وجهي بشموخ وقلت ببساطة:

- وما الغريب فيه؟
- إخلعي هذا النقاب حالاً وكفى غباءاً
- لم! ألم تقل لأمي منذ بضع أيام أنه حان الوقت لارتدائي الحجاب؟ ها قد نفذت مطلبك لكن على طريقتي وبفارق بسيط.
- حنين...إخلعيه ولا تتواقحي هكذا!!
- آسفة أبي أجبرتموني على الخروج وهذا هو شرطي الوحيد لأخرج لست مستعدة لأي نظرة شفقة من أحد.

احتقن وجهه و رفع يده وكاد يهوي بها على وجهي لإزاحة النقاب فوقف كمال بيننا لتهدئته:

- أنا سأتصرف عمي رجاءاً إهدأ دعها تخرج كما تشاء اليوم.

فالتفت إليَّ أبي قائلاً: –هيا أغربي عن وجهي الآن.

– حسنا وداعاً أبي.

قلتها واتجهت ناحية الباب وسبقت كمال إلى الأسفل لكن فعلاً كدت أسقط مراراً عن الدَرَج لأني لم أرَ جيداً.

لحق بي كمال فوراً وأسندني من ساعدي عندما كدتُ أهوي، فأفلتُ يده ورفعت العباءة قليلاً لأكمل مسيري فقد كانت كبيرة قليلاً.

وصلنا إلى السيارة ففتح لي الباب لأجلس ثم اتخذ مقعده بجانبي وسار في طريقه.

تبسمتُ من طريقته اللبقة تلك وأسندتُ رأسي على المقعد أحاول جاهدةً البقاء على طبيعتي أمامه هو أصلاً لن يرى توتري بسبب هذا النقاب الذي أتسربل به، لذلك ارتحتُ قليلاً، لكن الغريب أنه لم يحادثني أو يعلق بشأن هذا النقاب أبداً.

بعد دقائق صمت كنتُ أحادث فيها نفسي كالمخابيل.

تبسم لي قائلاً:

– كم يمر العمر بسرعة تركتك صغيرة والآن!!

ثم صمت فتنحنحتُ قليلاً أنظف حلقي واجبته بخفوت:

– نعم...يمر العمر بسرعة جنونية لكنك لم تتركني طفلة فلا تنسى أن فارق العمر لا يتجاوز السبع سنوات.

حسنًا يبدو أني تكلمت أكثر من اللازم والدليل أنه ابتسم لي مجيباً:

– ستبقين طفلتي المدللة، مهما كبرتِ.

اخفيتُ ارتباكي منه وعاودتُ الشرود إلى النافذة من جديد بصمت حتى وقف أمام مبنى ما وقال لي:

– هاقد وصلنا.

نظرتُ إليه بصدمة فنحن أصلاً لم نخرج من دمشق بعد.

– وصلنا إلى أين لم أفهم؟

– إلى منزلي أنسيتيه بهذه السرعة؟.

– نعم!

والآن تنبهتُ أنني أمام منزل عمي كنتُ شاردةً لدرجة إني لم أعرفه!

أطفأ محرك السيارة وكاد أن يترجل منها، لولا أني صرخت فيه بانفعال:

– قف كمال..لن أنزل معك طبعاً.

حدجني بنظرة مستفزة، ثم قال:

– ومن طلب منك أن تنزلي؟

شعرت حينها بخجل وحنق بالغ جداً في حين التف حول السيارة واقترب من نافذتي ليهمس لي:

– أمي هي التي ستنزل الآن! كانت تجهز بضع حاجيات لنأخذها معنا، ارتحتي الآن آنسة متسرعة... فعلا مازلتِ طفلة كما تركتك!!

وطبعا شعرتُ بأني قطعة سكر أذوب على الكرسي خجلاً من تفكيري هذا.

*****

عامرة

تراكضدت الأيام بسرعة خاصة أني الآن أدرب أفراد الفرقة الجديدة من شباب الطوارئ، بتُ مسؤولاً عن أكثر من ثلاثين متدربًا نظرًا لتلك الخبرة التي امتلكتها في هذا المجال، أعود ليلاً منهك القوة لأرتمي من فوري على السرير، حتى أمي قد بتُ مقصراً في حقها كثيرا هذه الأيام مجرد بضع كلمات أقولها فقط لكني طوال الأيام المنصرمة كنت أفكر في مقولة ضياء:

– أحيانًا علينا أن نتصرف ونفكر كالمراهقين.

طبعًا تلك الفكرة في وقتها كانت ساذجة جداً بالنسبة لي فلست أنا من يتبع هذه الأساليب الملتوية في الحصول على ما أريد، لكن الظروف قد حكمت ولم يتبق لي غير هذه الطريقة، الأحلام لم تعد ترحمني بل ازدادت ويبدو أن تفكيري الدائم بحنين وبحثي المتواصل عنها هو السبب.

صباح يوم و أثناء التدريب انتقيت أحد الشباب المتدربين لدي وقلت له أن يتبعني إلى مكتبي لأحادثه بهذا الموضوع وعندما انفردنا، جلس أمامي على الكرسي ل أخبره بما عليه فعله وها هو ذا قد تناول مني الورقة المحتوية على اسم وعنوان منزل كمال لينطلق في مهمته التي أوكلته به.

وطوال مراقبته لأسبوع كامل لم يحصل أي شيء يذكر ولم أتوصل لنتيجة ترضيني ؛ فقد انحصرت تحركات كمال بين عيادته ومستشفى الأمراض العقلية حتى جاءني ذات يوم ليخبرني أن كمال قد سلك الطريق السريع فيبدو أنه مسافر برفقة إحداهن وبهذا باءت تلك الخطة في الفشل من جديد وعدت أحاول البحث

بطريقة مختلفة من مكان مختلف ويزداد شعوري باليأس والإحباط من أن أجدها وأكتفي بتأمل تلك السلسة الذهبية

*****

الحنين

كان الطريق طويلاً، لأول مرة منذ سنتين أشعر بطعم الحرية بهذا الشكل وكأنني عصفور قد خرج للتو من قفصه ليستشعر الطبيعة من حوله، كان كمال بجانبي يقود بصمت بعد أن شغل أسطوانة الموسيقى وأنا بعالم آخر تماماً...لكم حرمتُ نفسي من كل شيء جميل وأعميتُ بصري عن كل ماحولي...أسندتُ رأسي على النافذة وصرتُ أحدق خارجاً ...

اجتزنا محافظة اللاذقية متجهين ناحية قريتي سلمى، وهي من أجمل القرى الساحلية السورية، وبعد مدة من الزمن لاحت تلك المنازل الريفية البسيطة المبعثرة في الأرجاء، أخذتُ نفسًا عميقا اشتممتُ فيه رائحة الطبيعة وتمعنت في مناظرها الخلابة التي تحتضن منازلهم الحجرية وكأنها روح واحدة.

وصلنا ناحية منزل العائلة الكبير أحكمتُ إسدال النقاب وترجلتُ من السيارة،كان الدار كبيراً جداً محاط بسياج حجري وبوابته حديدية خضراء اللون، اجتزناها لتلوح لنا أشجار الزيتون المحاطة بمقدمة المنزل والذي قام بزراعتها جدي منذ زمن بعيد ؛ لأن الزيتون من الأشجار المباركة كما يقول وبعدها تمتد أشجار الليمون والبرتقال، وقفت بمكاني لبُرهة أشعر برهبة وخوف، فلأول مرة ومنذ سنتين سأقابل أفراد العائلة، ولكن يبدو أنه لا أحد سيعرفني الآن،.كان كمال يمسك بحقيبتي و ينتظرني أن أتشجع وأدخل.

نظرتُ إليه أستمد منه قوة وكأنه من سيمدني بها كعادته مذ كان طفلاً ولم يخيب ظني بل اقترب مني أكثر وهمس لي: بالمناسبة الكل متشوق لرؤيتك وينتظرونك هنا إرسمي ابتسامة على وجهك وادخلي.

فاستدرت ناحيته قائلة:

حتى لو ابتسمت لن يروا ابتسامتي.

– ألم يحن الوقت لتخلعيه حنين؟ ها قد وصلنا.

فقلتُ بتحدٍ:

– طبعًا لن اخلعه "

مشى قليلاً أمامي ثم قال:

– كما تريدين لكنك ستثيرين شفقة أفراد العائلة أكثر بهذا الشكل

لم أجبه فاقترب أكثر مكملاً:

– لو كنت مكانك الآن لخلعته ودخلت بشكل طبيعي لأريهم مدى صلابتي.

– لا دخل لخوفي بما ارتديته...لقد اقتنعت به.

– متى اقتنعتي به؟ أذكر أني آخر مرة رأيتك فيها بلا حجاب.

– وحان الوقت الآن لأرتديه فقد كبرت بما فيه الكفاية.

تقدم مني باسماً :

– إن كنتِ تريدين ارتداء الحجاب فهذا سيسعدني ويسعد الجميع عزيزتي، لكنك الآن ترتدينه خوفًا من العباد لا من خالق العباد وهذا إثمٌ كبير.

– لا طبعاً أرتديته بقناعة..

فقاطعني بحدة:

– حنين...أنت تخطئين بحق نفسك كثيراً. فكري بمنطقية وكفي عن ألاعيب الصغار تلك.

جلستُ بمكاني فوق حجر بمقدمة المنزل أفكر بكلماته سحقاً له دائماً تكون أفكاره مقنعة منذ طفولتنا وأفكاره تلك تقنعني، أمسكتُ رأسي بكلتا يدي بضع دقائق وسط صمته حتى انحنى تجاهي ممسكًا الكف الأسود ليسحبه من يدي بينما يقول:

– حان الوقت لتواجهي مخاوفك عزيزتي ولا تنسي أن أفراد العائلة لا يمكن أن يؤذوكِ بأي شكل كان، كلنا معك هنا لدعمك.

ظهرت آثار الحرق على يدي، أخذ نفسًا عميقًا متلمسًا إياه برفق برؤوس أصابعه، استسلمت له فتابع:

– أثبتيانكِ قوية الآن ودعيني أراكِ

ثبت نظراته على وجهي وكاد أن يرفع النقاب عنه لولا أمسكت يديه أوقفتهما وهتفتُ.

– لا ابتعد أنا سأخلعه.

كان لوقع كلماته تأثير قوي عليَّ وكأنه سحر ما لكني لست مستعدة لأن أريه وجهي الآن، أدرتُ له ظهري وبدأتُ بخلع النقاب لكني فوراً أسدلت شعري كما هي العادة ووضعت النقاب وعباءتي السوداء داخل الحقيبة واستدرت بعدها ناحيته.

– أحسنتِ صنيعًا لن اضغط عليكِ أكثر، هيا الآن فالندخل الكل بانتظارك

سار فتبعته أمشي على الرصيف الحجري الذي يتوسط حديقة المنزل ويقسمها لنصفين، نظرتُ إلى خطواتي وعدتُ بها إلى عشر سنوات مضت، عندما كنت طفلة حافية القدمين تسير على الرصيف ثم تركض بحديقة المنزل.

حانت مني التفاتة على شجرة من بين الشجيرات سرتُ باتجاهها وتلمست أرجوحتي الحمراء التي مازالت معلقة عليها، ابتسمت بسعادة واستدرتُ ناحية الشجرة الخلفية وتلمستُ النقش الذي حفرته أناملي الصغيرة عليها.

– مازال موجودًا وكأنني حفرته البارحة

قلتها أهمس فابتسم كمال مجيبًا:

– اسمي كذلك في الأسفل بجانبه قلب كبير.

نظر إليه وتلمسه، ثم أردف قائلاً لي:

– يومها جدي قام بضربي بسببك.

– أنا!

– ألا تذكرين، عندما سرقت تفاحة من شجيرات جارنا زهير وأعطيتك إياها وما إن رآني ذلك العجوز حتى أخبر جدي لينهال علي ضربًا بعكازه.

ضحكتُ بخفوت من كلماته وطريقته بسرد القصة وأعادني مجددًا لسنوات طفولتي الجميلة.

– هيا الآن حنين...ما رأيك أن ندخل.

أومأتُ له برأسي وتبعته إلى الداخل:

كان المجلس كبير جداً به مصاطب حجرية على طول الغرفة يتموضع فوقها وسائد للجلوس و نافذة كبيرة تطل على الحديقة، لوحة جدارية ضخمة في

منتصف الحائط الأمامي بها أسماء الله الحسنى وسجادة طويلة زرقاء اللون تفترش الأرض و تتماشى مع الوسائد.

كان منزل جدي يجتمع فيه أفراد العائلة في كل يوم جمعة بعد الصلاة يمضون فيه اليوم بطوله.، وها أنذا أراهم مجدداً أمامي، سنتين وبضعة أشهر ليستا بالزمن الطويل لكني شعرت بأنها مدة طويلة جداً بسبب تواجدي في المنزل وعدم خروجي منه.

ألقى كمال السلام عند دخوله وكان الكل يجلس على المصاطب الحجرية فالتفتوا دفعة واحدة الينا، انكمشتُ على نفسي مذعورة من نظراتهم وكدتُ أختبئ وراء كمال لكني بالكاد سيطرتُ على نفسي، علت ملامح جدي ابتسامة واسعة وفتح ذراعية قائلاً:

– أهلا بنور قلبي تعالي إلي ياحنين.

ألقيتُ بدوري السلام على أعمامي بصوت أنا حتى لم أسمعه وهرعتُ ناحية جدي مقبلة يده، ثم أجلسني بجواره ووسط نظراتهم وهمهماتهم المرحبة بنا تنحنح جدي قائلاً:

– هاقد اكتملت فرحتي بوصول نور قلبي حنين.

ثم همس بأذني:

– أكان علي أن أصرخ بك على الهاتف لتأتي لزيارتي ألا تشفقين على عجوز برؤيتك؟

فقال كمال متذمراً:

وأنا يا جدي الشاب المغترب منذ سنوات طوال عنكم أنسيتني عندما رأيت مهجة قلبك لدرجة أنك لم ترحب بي؟

ضحك الجميع من كلماته فقال له جدي:

– اقترب يا بني طبعًا لم أنسى أمهر طبيب رفع رأس عائلتنا عالياً.

تقدم كمال ناحية جدي مقبلاً رأسه ويده وأجلسه بحابنه الآخر.

جدي رجل طويل عريض المنكبين عمره الآن قد تجاوز السبعين عاماً، لكنه مايزال محتفظًا بقوة كبيرة،.مايزال مصراً على ارتداء الشروال الأسود بما أنه تراثنا الذي لا يريد أن يتنازل عنه أبداً.

كان أعمامي الثلاثة حاضرون بالإضافة لأولادهم الذين تتراوح أعمارهم من بضعة سنوات إلى الثلاثين عاماً أوأكثر، شعرت حينها بأن الجميع ينظر إلى وجهي ويتمتم لنفسه عني، انكمشتُ أكثر مطرقة رأسي أرضاً أشعر بارتباك وخوف شديدين.

كان الصغار يلعبون خارجاً بمرح والنساء بالمطبخ يعدون طعام الغداء على مايبدو فروائح الطبخ كانت تقتحم المجلس بقوة، دخلت أمي المجلس لأزفر ارتياحاً ، القت السلام على الجميع ونادتْ لي فنظر لها جدي صائحًا:

– لا حنين ستبقى بجواري فأنا مشتاق إليها جداً.

ابتسمت له أمي ثم قالت:

– كما تشاء يا عمي لكن يجب عليها أن ترتاح بما أنها قد جاءت للتو من السفر.

زفر منها ثم قال لي:هيا إذًا اذهبي وارتاحي لكن بعد ساعة واحدة فقط أريدك هنا.

وقفت بارتباك وقلت له:

- حاضر جدي والآن استأذنك بالانصراف.

فررت هرباً من أمامهم و دلفت غرفةً من غرف الدار الكثيرة وراء أمي وبعد أن انفردتُ بها قلتُ بتذمر:

- ماكان عليك فعل هذا بي كيف تطلبين مني المجيء إلى هنا ومع كمال تحديداً كما أنك كذبت بشأن خالتي أليس كذلك، إن عمي متواجد هنا ولم اشعر بأنه منزعج!!

تقدمت ناحيتي ثم هتفت بي:

- نعم كذبت بشأن خالتك لكن ما العيب في أن تأتي؟ إن الكل مجتمع هنا على شرف حضورك إن لاحظتي ذلك وجدك العجوز قد احترق قلبه شوقاً إليك وصار يعد الساعات لمجيئك ألا ترفقين بحاله.
- ولكن...أمي أنا خائفة من نظراتهم تجاهي لم تري وجوههم عند رؤيتي الآن.. حتى أن كمال.

فقاطعتني فجأة

- اه منك حنين...إلى متى ستعتزلين الاختلاط بالبشر هكذا...حان الوقت لتري العالم من حولك كم تغير وأنت ماتزالين على وضعك هذا، ومابه كمال!!، إنه يحاول مساعدتك بأي شكل فلولا فكرته تلك لما كنت ستأتين أبداً.

شعرت بغضب وصرخت حينها:

– إذن كانت فكرة مجيئي إلى هنا بسبب ذلك الأحمق كمال.

كدتُ أن أجادلها أكثر لولا سمعنا طرقات على باب الغرفة ودخلت النسوة، كانت زوجات أعمامي وبناتهن ونساء أولادهن رحبن بي الواحدة تلو الأخرى...

*****

الفصل الثامن

عامر

كان ضياء يجلس على الأريكة أمامي يتصفح إحدى المواقع الالكترونية بينما شغلت أنا كعادتي بالاستماع لعبد الحليم والطيران فوق السحاب مع كلماته العذبة، سحبت نفساً عميقاً من نرجيلتي وأنا أراقب توهج الجمرات وكأنها عيون الشياطين ثم قلت له:

- نحن على أرض الواقع وبعيدًا عن كل تلك الانجازات العظيمة والفوائد الجمة لتطور الأجهزة الالكترونية من حولنا إلا أننا أصبحنا تدريجيًا مجرد عبيد لتلك الآلات التي سلبتنا إرادتنا وأوقاتنا ومحيطنا الإجتماعي.

هي كوحش يمتص الإنسان بداخلك ببطء؛ لتتحول إلى مجرد آلة تنتظم تحركاتها مع دقات الساعة كحالها، أصبحنا نعيش حياة كئيبة رتيبة بعيدة عن أي روح أو بهجة، اجتماعك بأقرانك بات أسهل خلف الشاشة!! حتى عند اجتماع أي عائلة وبأي مكان، تراهم منشغلين بهواتفهم المحمولة وكأن تلك الأجهزة البلهاء تضحك على انجراف البشر ورائها بشكل أعمى باتت تدمر عقول شبابنا وبناتنا بشكل مخيف.

قلتها وأقولها ألف مرة أصبحنا مجرد عبيد للتكنولوجيا التي تتطور بكل يوم ومعها تسلبنا إرادتنا لنعيش ضمن دائرة حياة افتراضية.

لا أرى عجبًا أن نستيقظ ذات يوم لنرى أن كل فرد فينا يعيش ضمن قوقعة شفافة خاصة فيه تحجبه عن العالم فيراه من خلال شاشة فقط دون أن يشارك بشيء عملي.

أغلق حاسوبه ثم أجابني:

- أنت من يتكلم عن الروتين والتكنولوجيا! وحياتك أبعد ما يكون عنهما.
- قد تكون محقًا بعض الشيء بالنسبة لطبيعة عملي التي أقضيها متنقلاً من مكان لأخر، لكن في أيامي العادية التي اقضيها خلف المكتب أو في منزلي خلف هذه الشاشة التي أغوص بها مبتعداً عمن حولي وعن أمي، صدقني أحياناً كثيرة اشعر بتأنيب الضمير تجاهها عندما تجلس بصمت أمامي تراقبني وأنا منشغل عنها بهذا الشكل.
- أنت تضخم الأمور كعادتك فمن يصر إلى الاستماع لعبد الحليم كل نهاية أسبوع لا يمكن أن يتكلم عن انغراسه في التطور والتكنولوجيا.

ضحك بسذاجة كعادته ظانًا نفسه ظريفاً، فحملتُ كتاباً كان موضوعا على طاولتي كنت أقرأه قبل أن يأتيني وقذفته في وجهه فأمسكه وقرأ العنوان ثم هتف بي:

- أرأيت...أنك دقة قديمة، أيوجد الآن من يقرأ شعرًا لبشار بن برد!!!؟

أنا أصلاً لم أعرفه إلا منك، ثكلتك أمك يا أبا لهب أعدتنا لأيام الجاهلية.

وسط ضحكاته الهازئة أخذت كتابي منه وضربته على دماغه قائلاً:

- ستبقى جاهلاً طوال حياتك أيوجد من لا يعرف ابن برد أيها المتخلف كما أنه عاصر بداية الدولة العباسية لا أيام الجاهلية يا أحمق!!

لكن بالمناسبة على الرغم من أنه أعمى البصر إلا أنه كثير الافتتان بالنساء كحالك تمامًا.

ضحك صائحًا بي:

- لا بد وأن أحبه بنا صفات مشتركة كثيرة على ما يبدو إلا العمى.

تبسمت بمكر مجيباً:

- كلاكما أعمى يا صديقي، هو أعمى البصر وانت أعمى البصيرة.

لنرى إلى أين سيؤدي بك ترك الثقافة و تعلقك الأحمق بشاشة الحاسوب، أقسم أنها ستودي بك إلى التهلكة لا محالة.

-أو ليس تصفح هذه الشاشة وما تعرضها على حد قولك قراءة أيضاً أيجب علي أن أمسك كتاباً أتثقف، كما أن هذه الشاشة التي لا تعجبك تقدم تسلية ما بعدها حدود؟

غمز لي بمكر فنهضت خارجًا من الصالة وقلت ساخراً:

- هذا الكلام أكذب به على غيري فعن أي ثقافة تتكلم وأنا أعرف جيدًا أنك تقضي الساعات تحادث الفتيات كمراهق أحمق؟؟
- أتعرف على ثقافات الشعوب يا بني بنهاية المطاف كلها تندرج تحت اسم الثقافة
- إن الجدال معك عقيم أيها القذر، سأطلب من ريم أن تحضر لنا العشاء فلا يغلق هذا الفم سوى حشوه بالطعام.

فنهض مبتسماً:

- ريم هنا اليوم ولم تخبرني لألقي عليها التحية؟؟

وقام مهندمًا ثيابه ولحق بي فقلت بلا مبالاة:

– نعم لقد أصرت أمي على أن تقيم هنا بعد أن وافت المنية والدتها الإسبوع الفائت فكما تعلم هي وحيدة بهذه المدينة.

اتسعت ابتسامته بشكل ملحوظ وكاد يخرج معي فتقدمت منه محذراً:

– إياك والتفكير بشيء تجاه هذه الفتاة أتفهم.

تصنع البراءة بنظراته، ثم أجابني:

– أنت تظلمني باتهامك هذا فما أدراك بالذي أفكر فيه! كما أني كنت أريد القاء السلام على الحاجة فقط؟

– ضيااء.. انت هنا منذ ساعة والآن لتذكرت الحاجة؟ ألاعيبك أبقها بعيدًا عن منزلي..

ثم سرتُ خارجًا تجاه غرفة والدتي لأراهما تتحادثان كما هي العادة، وما إن دخلت وطلبتُ من ريم تحضير العشاء حتى وقفت واحنت رأسها بخجل وهربت لتنفذ مطلبي، فعلاً أنا لا أفهم تصرفات هذه الفتاة البتة!!

عدتُ إليه بعد قليل وكان كما توقعته يمسك بهاتفه المحمول ويعبث به فضربت كفًا بكف على إدمانه هذا، كدتُ أن أتكلم لولا قفز إلى جانبي مباشرة ليصرخ:

– لقد قبلت طلب الصداقة، أخيرًا يا إله السموات!!

حدقتُ فيه باستغراب ليرفع هاتفه أمام ناظري ليريني هذه الفتاة ذات الشعر الأشقر، وكانت طبيبة! تبسمت بتهكم، فوالله لا تتعدى كونها راقصة بإحدى الملاهي الليلية على ماترتديه وتعرضه على صفحتها، كانت على حد قوله حلم حياته الأزلي!

وصدع رأسي يثرثر عن حبه لها في أيام كلية الطب في حين أن بدأ عقلي يعمل بسرعة جنونية وكأن إلهاماً سماوياً قد اخترق السقف فجأة ليرتطم بدماغي فهتفت به:

– يا إلهي لما لم أفكر بهذا من قبل!!

رفع بصره تجاهي متسائلاً:

– ماذا! تريد أن تراسلها أنت الآخر...إياك.

– كلا يا أحمق مالي بها؟ كمال..هل هو صديقك على الفيس بوك.

ليجيبني بلا مبالاة:

– نعم لما تسأل؟؟

انتشلت الهاتف من بين يديه وقد اعترتني فرحة عارمة وفتحت صفحة كمال وصرتُ أبحث بين أصدقائه آملاً أن يكون تفكيري صحيحًا حتى وقع بصري على هذا الاسم الذي رفرف له قلبي بطريقة جنونية وضحكت كالأبله أمامه (حنين الرشيد)

التصق بي ضياء كالعلكة بعد أن فهم ما أقوم به وقال بمكر:

– عبدًا للتكنولوجيا هاا!!

– اصمت أيها المزعج ودعني أكمل عملي.

ابعدته عني وصرتُ أتصفح صفحتها باحثًا أي معلومة قد تدلني على عنوانها الجديد لكن عبثًا..

فآخر منشور كان لها قبل سنتين تقريبًا...وبالضبط قبل اندلا ع الحريق.

لم استسلم بل غصتُ أكثر بين منشوراتها والتي كانت بعض منها صوراً لها.... لحنين حبة السكر، مع صديقات المدرسة، صورتها برحلة ما.

انزويت على الأريكة بعيداً عن أعين ضياء الحشري وحفظت الصور في الهاتف كمراهق أحمق ثم أرسلتهم لحسابي وحذفتهم من عنده، وتابعت بحثي عن أحدٍ آخر من عائلتها لأستدل منه حتى قرأت اسمه:.(خالد الرشيد) هذا هو... قلتها ضاحكًا واقتحمت صفحته ليتزين لي مكان عمله ومعلومات بسيطة عنه، ببساطة وجدته.. أيعقل!! وكدتُ أن أرقص فرحاً لولا طرقت ريم الباب ودخلت لتضع الطعام أمامنا وسط استحيائها الشديد ونظرات ضياء الوقحة ناحيتها، سيأتي يوم ما وسأدق عنق هذا الأحمق لا محالة!!ضربته على صدره حين استدارت لتذهب متوعداً إياه ثم نهضت قائلاً له:

- أخيراً وجدتها يا بني....إنسَ كل الهراء الذي قلته

عن التكنولوجيا قبل قليل، إنها أعظم اختراع عرفته البشرية!

- مجنون!
- فعلا سأصاب بالجنون لو لم أرها بأسرع وقت.

*****

أشرقت شمس صباح اليوم التالي فنهضت بكل نشاط على صوت فيروز الذي يملأ المكان، فتحت عيناي لكني لم أنهض بل فعلت آخر شيء قد قمت به الليلة الماضية قبل أن أغفو، تأملتُ صورتها، سرحتُ فيها وبتفاصيل هذا الوجه الأسمر البريء، لكن ماذا دهاني بحق السماء، لكن والحق يقال أن الجليد قد

ينصهر أمامها، فما بالكم بالعبد الفقير. ونسيتُ للحظة أنها مشوهة الآن، فركتُ جبيني بتوتر فالحلم الجميل لم يكتمل، نهضت مستغفرًا الله.

كانت ريم تنظف المنزل فمؤخرًا لم يقتصر عملها على العناية ب أمي بل أصبحت سيدة الدار كما يبدو، تعلق بصرها بي وهمست:

- صباح الخير، قهوتك جاهزة سيد عامر.
- شكرًا ريم.

توجهتُ إلى الصالة بشعر مبعثر وصرتُ ارتشف من فنجان قهوتي المر كما أحبه، ريم تنظر إلي بين فينة وأخرى وفكري معلق بحنين فقط، وبالحجة التي سأخترعها عند مقابلة أخيها خالد.

قاطع شرودي صوت أمي التي دخلت الصالة فنهضت لاستقبالها وساعدتها لتجلس على الأريكة، فدعت بدورها ريم لتجلس بجانبها فيبدو أن غزل أمي الصباحي بريم لن ينتهي قبل ساعة ؛ لذلك استأذنتها وهربتُ لأغير ملابسي فقد قررت أن أذهب من فوري لملاقاته والحجة ستظهر بمجرد حديثي معه، وفعلاً لم تمض ساعة واحدة حتى كنت بمكتب المحاماة الذي يعمل به خالد، سألت عنه أحد الموظفين واستدليت على مكتبه ودخلت:

- صباح الخير سيدي.
- أهلا بك تفضل بالدخول رجاءاً.

حسنا للوهلة الأولى يبدو أنه لبق فعلاً كابن عمه كمال.

فوجهه مريح جداً لن يكون تعرفي عليه صعباً البتة.

ابتسمتُ بوجهه واختلقتُ مبدئيًا حجة زواج ابنة عم خالي من رجل كبير في السن مات وتركها تتصارع مع أبنائه على الميراث وأنا قريبها الشهم الذي سيدافع عنها وسيساندها، كذبة لطيفة تصح لأن يجعلوها فيلمًا سينمائيا ولا ضير من زيادة معلوماتي فهي ثقافة على حد قول ضياء، أحيانا يكون لأفكاره فائدة.

المهم أني بعد أن نسجتُ خيوط روايتي التي ألقيتها له انحرفت عن الموضوع الأساسي و صرتُ أثرثر عن نفسي وحياتي كأنني أتعرف بصديق جديد وأبدى تجاوبًا معي.

والدليل أني بعد يومين فقط كنت أجلس معه مساءاً بمقهى كان معتاداً على ارتياده بدمشق القديمة.

وتعرفتُ أكثر إليه ليصبح ضمن دائرة الاصدقاء ولا عجب أن أدعوه إلى منزلي بعد بضعة أيام لتناول العشاء مع ضياء لتكتمل الخطة التي أرسمها بعقلي.

*****

الحنين

أتكئ على النافذة أراقب ظلمة السماء التي تلبدت بغيوم داكنة تنذر بعواصف هوجاء والأشجار خارجًا تتخبط أغصانها وكأنها تؤدي رقصة الموت مع أشباح الليل الغاضب، كنتُ بالغرفة ساهرةً بعد أن نامت أمي فقد جافاني النوم حينها، ظلام يتملكني من الداخل ويحيط بي ويحاصرني خارجاً، رغم معاملة الجميع الطيبة لي طوال اليوم إلا أني كنت خائفة من نظراتهم، أشعر أنهم يتهامسون عني طيلة الوقت فأجلس بتوتر بينهم محتضنة كفي مطرقة رأسي إلى الأرض كطالبة خجولة انتقلت لمدرسة حديثاً.

الأولاد يضحكون ويلعبون خارجاً والنساء يثرثرن بمواضيع لم أعد اهتم بها، والرجال لهم أحاديثهم وأنا صامتة أنظر حولي كأنني أشاهد التلفاز ليس إلا.

شعرت باختناق رهيب فهربتُ إلى غرفتي بحجة أني مرهقة من السفر واختبأت فيها حتى انتصاف الليل وها أنذا كعادتي وحيدة كما السابق. ؛ لا يشاركني السهاد سوى تراقص الأغصان خارجاً وعواء الذئاب.

أسدل الليل ستاره واختتم روايته لتبدأ حكاية فجر جديد لا يحمل لي أي حدث جديد، تثاءبتُ ونهضتُ بتثاقل فلا تزال آثار النوم القليل متشبثة بي تأبى مفارقتي، سرحتُ شعري و أسدلته على جبهتي ثم خرجت من غرفتي، كنت أشعر بجوع شديد فلم أتناول شيئا يذكر البارحة بسبب إحراجي من أقاربي، توجهت إلى المطبخ وارتشفتُ الماء حتى ارتويتُ، كانت حبيبات التفاح الأخضر الشهية تتموضع على طبق فوق المنضدة فتناولت منهم واحدة وقضمتها خارجةً من باب المطبخ حتى اصتدمت بكمال وكدت أقع أرضاً فأسندني براحة يده.

- إنتبهي "

شعرتُ بذعر شديد من ملامسته ونظرته إلي خوفًا من أن يكون قد لمح وجهي فاعتدلت فورًا وأمسكتُ شعري بيدين ترتجفان وسقطت التفاحة من يدي وتدحرجت على الأرض، تناولها من على الأرض ثم غسلها بالماء وقدمها لي مجددا قائلاً:

- صباح التفاح جميلتي.
- كان عليك أن تنتبه لخطواتك.

قلتها له وتناولت التفاحة منه وكدتُ أن أغادر فأمسكني من ساعدي وقال يهمس:

– أتعرفين أني الآن أسعد رجال الأرض.

رفعتُ نظري إليه وتأملتُ تقاسيم وجهه التي نضجت عن السابق، فعلا قد أصبح رجلاً! لم يعد كمال المراهق الطائش الذي عرفته بطفولتي، وبقيت صامتة فعاود الحديث:

– هل ابتلعت الذئاب لسانك البارحة ليلاص؟

– كفى سخافة كمال.

نهرته بحنق وكدتُ أختنق بتفاحتي فضحك عاليًا لكن مكالمة هاتفية وصلته فأخرج هاتفه ليجيب، انسللتُ تاركة إياه وحيداً وهربتُ مجدداً إلى الغرفة، أبدلت ملابسي وخرجت إلى فناء المنزل، ورأيت تلك القطة الشقراء تلهو بمرح بين الشجيرات الصغيرة، ابتسمتُ وأنا اتقدم منها وأناديها فركضت نحوي تموء و بدأت تحتك بي.

أجائعة يا صغيرة؟

أحضرت لها من المطبخ طبقًا ملأته بالحليب وراقبتها كيف تلعقه بنهم وأنا أمسح شعرها الناعم بلطف وعادت بي ذاكرتي لسنوات طفولتي حينما كنت ألاعب قطتي الصغيرة التي تركتها هنا، لربما هي ابنتها، أوحفيدتها و الله أعلم، كان اسمها ليلي، بيضاء بعيون عسلية تشبهها إلى حد ما ومر اليوم، وحيدة كنت وسطهم كما اعتدتُ، كان كمال يتقرب مني بين فترة وأخرى يحادثني لكني أتجاهله أحياناً وأجيب باختصار شديد أحيانًا كثيرة.

ومساءًا اضطر كمال إلى العودة للعاصمة لإنهاء بعض الأعمال، لا أنكر أني شعرت بفراغ بعد رحيله المفاجئ، لكني اعتدتُ على الفراغ والوحدة بفارق أن الطبيعة الخلابة من حولي قد أشعرتني براحة نفسية كبيرة، وتوالت الأيام وأنا هنا لا افقه سبباً لمكوثي خاصة بعد أن رجعت أمي إلى العاصمة، جاء ليل من الليالي لففتُ وشاحاً صوفياً يقيني برودة الجو وخرجت لأستنشق بعض الهواء النقي خارجاً فقد جافاني النوم كالعادة..

مشيتُ على رصيف الحجارة التي تخرج من بين شقوقها نباتات شقية خضراء من ثم عرجتُ باتجاه شجرتي وجلست على الأرجوحة الحمراء وأسندت رأسي على الحبل مغمضة عيناي.

شعرتُ بأني أنسلخ عن جسدي وأبتعد عن الحاضر..

ضفرتُ شعري كبنات أعمامي ورسمتُ عيناي بالكحل الأسود واعتصرتُ بضع حبات من توت العليق على شفتاي لأزيد من توردهما وجلست بينهن بسعادة عامرة.

ضحكتُ معهن ولهونا بالقرب من بركة الماء نتراشقها كأيام طفولتنا، ثم استلقيت على المرج الأخضر أضحك، البشرية كلها تحلم بالمستقبل وأنا حلمي أصبح فقط أن اعود بالسنين إلى الوراء...أتمنى أن أسافر إلى الماضي لأمحي لحظة كتبت لي ودمرت حاضري و مستقبلي.

ولكني عدتُ إلى الواقع مجددًا عندما رفعتُ بصري لألمح كمال، ورأيته يحدق بي بصمت من بعيد، لقد عاد أخيراً، شعرتُ باضطراب كعادتني عندما أراه

وأسدلت شعري بخوف من أن يكون قد لمح التشوه بوجهي لكنه قال ببساطة وهو يقترب مني:–لا تخافي لم أرى شيئاً.

تجاهتُ كلمته وسألته: –متى عدت؟

– الآن وصلت.

صمت قليلاً وصار يحدق بي ثم قال:

– كنتُ أعهدك قوية بالماضي.

نكستُ رأسي أرضاً وشبكتُ يداي ببعضهما فوق حجري قائلة له بخفوت:

– الزمن يغير كل شيء؟

تنهد وجلس على حجر كبير أمامي، ثم قال:

– يجب أن نتغير نحو الأفضل دائماً...أنت من قلتي لي ذات مرة...أننا يجب أن نتمسك بمبادئنا.

لكني هتفت فيه:المبادئ تتلاشى أمام الحقائق التي لا تترك لك خيارًا.

فقال صائحاً :

– ولا تفرض علينا أن نختبئ في ظلام الكهوف خوفاً من أشعة الشمس الدافئة.

نظرت اليه وسألته:

– لماذا عدت الآن بعد كل تلك السنوات؟

التقط من خلف الأرجوحة وصار يهزها بلطف قائلاً:

– لأنك قلت لي ذات مرة...عد لأجلي.

ابتسمتُ بمرارة وأجبته:

– كنا صغارًا حينها، قلتها لك لأنك هربت إلى العاصمة، تعرف أني الآن أقصد عوتك من أمريكا.، ألا تكبر أنت أبداً

– لأن قلبي مازال يلعب هنا معك.

قالها ضاحكاً، ثم دفع الأرجوحة لأطير أنا عالًيا فصرختُ فيه:

– يامجنون أوقفها.

لكنه صرخ من جديد وبصوتٍ عالٍ:

– حلقي يا فراشتي كأيام طفولة جميلة عشناها سوياً.

صار شعري الأسود يطير بعبثية وهو يدفع بالأرجوحة لأطير أعلى وأعلى حتى صار قبالتي فجأة وأمسك الأرجوحة بيديه، أوقفها وانحنى تجاهي، اضطرب تنفسي وتسارعتْ ضربات قلبي وصرتُ أرمش بعيني بتوتر أحاول إخفاء وجهي خلف شعري.

فقال ساخراً وهو يمسك يداي بقوة:

– الظلام يخيم على المكان لا تقلقي لن أراه.

فرفعتُ وجهي أهمس بألم:

– لكني أرى وجهك بوضوح.

حدَّق بي مطولاً وابتسم مجددًا بحنو بالغ:

– أنا أراكِ بقلبي حنين، أتفهمين ما أقول، ماتزالين بنظري أجمل نساء الأرض.

ضيقتُ عيناي أكثر فأكثر وأنا أحدق به:

– كيف لك أن تكون هكذا على الدوام؟.

- لم أفهم قصدك؟؟
- سعيداً...مرتاحاً ..هادئاً..متسامحاً..محباً...طفلاً
- معك فقط أكون ما أنا عليه.

وقفتُ فابتعد خطوتين إلى الوراء فتجاوزته أسير بين أشجار الزيتون.

- لا تكن سخيفاً كمال.

لحق بي حتى سار بجانبي، ثم سألني.

- قلتُ لك أنك لن تتزوجي أحدًا غيري لكنك أحببت ذلك الأحمق ابن الجيران اسمه (فؤاد) أليس كذلك؟

وقفتُ فجأة اعتصر قبضة يدي فاصطدم بي.

- هل نسيت ما الذي فعلته بي آخر مرة؟

استدار ليصير قبالتي ثم هتف بي؟

- لم أنسَ ولكن قلبي لم ينسك لحظة واحدة.

زفرتُ بقوة من عناده وصحتُ به:

- اتركني رجاءاً الآن، لا أنت ولا غيرك سيصلح لحياتي اللعينة، جلست على الأرض ودفنتُ وجهي بكلتا يدي محاولة كبح دموعي في حين جلس قبالتي قائلاً بهدوء:
- شش...لا تبكِ صغيرتي كل شيء سيكون على مايرام أنا أعدك بهذا.

جلس أمامي مباشرة على الأرض وشعرت بيديه الدافئتين تتخللان خصلات شعري ثم رفع وجهي قبالته باسماً.

لمحتُ تراقص عينيه العسليتان وسمعتُ ضربات قلبي التي صارت كقرع الطبول الإفريقية وأنا أترجاه. ابتعد عني.

– أريد رؤية وجهك، قالها بإصرار ودموعي بدأت تتدفق، هززت رأسي نفيًا وخوفًا لكنه لم يتراجع، بل سمح ليده أن تمتد إلى خصلات شعري ليزيحها عن وجهي ويهمس: لا تخافي.

ورآني.....انهرتُ بين يديه أريد أن أصرخ بأعلى صوت، تحطم ما تبقى لي كبرياء وعقل فلن أتحمل نظرة شفقة جديدة خاصة منه.

طالت نظراته، تحجر الدمع بمقلتيه، ثم سال على وجنتيه، تلمس إلتوائات الحرق بيديه اللتين شعرت ببرودتهما وارتجافهما فجأة وهمس بصوت مختنق:

– أعدك أنك ستعودين كما السابق، حنين الجميلة المرحة التي تحب الحياة.

دفعته بيدي وقلتُ بصوت أعياه الانهاك و تبعثرتْ حروفه: لا أريد شفقتك، ابتعد.

لكنه لم يتركني بل استند بجبهته فوق جبهتي وأردف:

– أقسم أني أحبكِ حنين، ما زلت أحبكِ كما السابق، لا تعرف الشفقة طريقاً إلى قلبي.

لن أضعف أكثر من هذا ولن يقنعني بحبه على الأقل بعد أن رأى التشوه نهضتُ من فوري وصرختُ به:

– كفى رجاءاً، انتهى العرض المسرحي.

وركضتُ إلى غرفتي وكأن آلاف السكاكين تخترق صدري.

*****

الفصل التاسع

هربت حنين من أمامه وكأن روحه التي هربت من جسده الذي شاخ فجأة، اعتصر قبضة يده ثم هدَّأ من أنفاسه المضطربة، أشعل سيجاره وصار ينفثه بعصبية وسط شجيرات الزيتون التي تحجب نور القمر.

لربما أنهى سيجاره الخامس ثم رماه على التراب ودهسه بقوة كما فعل بسابقيه،و دخل إلى المنزل، تقدم من باب غرفتها ورأى الضوء مازال مشتعلاً من تحت الباب، رفع يده لطرقه لكنه توقف عندما سمع صوت نحيب خافت، أنزلها بهدوء وخطى مبتعدًا ليدخل إلى غرفته، صغيرته وحبيبته منذ سنوات تعاني وهو لا يملك سوى أن يراقبها بعجز، أي آلام هذه؟

وسط دموع متحجرة بحدقتيه ابتسم عندما تذكر كيف كانا يلعبان هنا بسعادة منذ سنوات، حنين الصغيرة الآن ستركض تجاهه من الباب وستضربه بالوسائد ليبادلها ضربات أقوى، حنين التي لا يعرف الحزن طريقاً إلى قلبها البريء، سرق الزمان ضحكاتها ووأدها تحت وادٍ سحيقٍ من الألم، نفَّض ذكرياته الجميلة ثم أبدل ملابسه واستلقى على السرير لينام بعد رحلته الطويلة والشاقة.

*****

خالدة

كنت أستعد للذهاب إلى عملي حينما سمعت طرقاتٍ لطيفةٍ على الباب، فاتجهت ناحيته قائلاً:

- أمي أنا سأفتح.

وتمنيتُ حينها أني لم أفعل!!

فالعاصفة التي اجتاحني أول مرة ها قد هبتْ ريحها مجدداً وعصفتْ بقلبي وعثتْ به وخلفتْ دماراً آثاره أقوى من مخلفات الحرب في بلادي.

– صباح الخير سيدي هذه الفطائر الساخنة قد أعدتها والدتي تفضل.

قالتها سارة بابتسامتها العذبة المشرقة والتي أوقعتني منذ المرة الأولى عندما قابلتها أمام الباب.

تلاشتْ الحروف مع الإعصار كالمرة السابقة، ثم مددتُ يدي لاستلام الطبق.

– تفضلي بالدخول.

قلتها ببراءة وعفوية فحدقتْ بي بتفاجؤ.

– عفواً.

– أقصد أن أمي هنا...بالداخل ستسر لرؤيتك.

– لا شكراً سأتأخر عن الجامعة.

لكن هل أخطأت الآن بكلماتي!!! لم أفهم لما تغيرت ملامحها، هل ظنت بي السوء؟، كدتُ أن أتكلم مجدداً لولا ظهر أمي من خلف الباب تتساءل:–من أتى خالد؟

لترى سارة فأبعدتني عن الباب وهي تقول بكل ترحابٍ:

– تفضلي حبيبتي بالدخول.

– أه خالتي متى عدتي من القرية؟

– منذ بضعة أيام فقط، تفضلي..

نظرتُ إليها بمعنى لم أكن أكذب قبل قليل فأطرقتْ رأسها وقد اعتلته حمرة زادته فتنة ولم تزدني إلا ارتباكاً ودخلتْ لتجلس بغرفة المعيشة.

كانت تعرج على قدمها أثناء المسير مما أثار فضولي الكبير لمعرفة ما نوع الحادث الذي تعرض له هذا الملاك البشري، ليس من عاداتنا أن نجالس النساء لكن لا أعلم ما انتابني لدى رؤيتها مجددًا، تقدمتُ بتردد و جلستُ أمامها على الأريكة المقابلة، أما والدتي فكانت قد دخلت لتضع طبق الفطائر في المطبخ، كنت أرغب بشدة أن أتكلم لكن الأبجدية قد أصبحت في غياهب الظلمات لمجرد رؤيتي لهاتين العينين المرتبكتين أمامي.، تحاشت نظراتي المتفحصة لها وهي تعتصر حقيبة يدها لكني تنحنحتُ واستطعتُ أن أرتب جملة مفيدة:

- ماهي دراستك أنسة سارة.

قالت بصوت خفيض جداً بالكاد سمعته:

- أدرس الأدب العربي في سنتي الثالثة لكني أرتاد معهد الموسيقى القريب من هنا.
- إذن أنت سبب تلك الموسيقى العذبة التي تطربنا ليلاً؟

أحمرت وجنتاها خجلاً وأومأت لي بإيجاب.

دخلت والدتي لتقدم العصير وجلست أمامنا ثم قالت بجدية:

- ألم تتأخر على عملك خالد؟

شبح ابتسامة ارتسم على محياي قبل أن أجيبها:

- مازال هنالك متسع من الوقت لا تقلقي.

حدَّقت بي أمي نظرة غريبة جداً أجزم أنها تتوعدني لكني تجاهلتها على أية حال فاستسلمت وبادرت تحادثها، وصرتُ أستمع لتلك النوتات الموسيقية التي تنطقها هذه الفتاة أمامي.

قالت أمي:

- لن أؤخرك عن جامعتك يا ابنتي لكن أنت تعرفين وضع حنين وقبلت مساعدتي قبلاً أليس كذلك.

أومأت سارة وقالت مؤكدة: وأنا عند وعدي يا خالة مستعدة لأن أفعل أي شيء لحنين.

- جيد جدًا أريدك أن تقنعيها بارتياد المعهد أو القيام بأي نشاط للترويح عن نفسها، لقد أبعدتها كما قال كمال لكي تريح أعصابها قليلاً، فهو يريد أن تخرج من هذه الحالة التي تتملكها بأسرع وقت ممكن.
- لكن يا خالة لقد عرضتُ عليها سابقاً ومانعتْ بشدة.
- أعيدي عرضك مرة واثنتان حتى توافق ونحن سنقنعها بدورنا.
- حسناً سأرى ما علي فعله إن قبلت سأساعدها لكن بعد أن أقدم العرض، أه بالمناسبة سيقام يوم الخميس المقبل أتمنى حضوركم.

وهنا بادرتُ أقول بلهفة:

- أي عرض؟.

فقالت أمي بابتسامة واسعة:

- ستقدم عرضًا في المركز الثقافي.

نظرتُ إليها بإعجاب صادق قاائلاً:

- عظيم سأحضر بكل تأكيد.

نظرتا إلي فقلت متداركًا كلماتي:

- أقصد طبعاً، سأحاول اصطحاب حنين إلى العرض وبهذا ستتشجع إن عرضنا عليها تعلم الموسيقى.

أعجبتهما الفكرة فهزتا رأسيهما موافقتين ثم نظرت سارة الى ساعتها ونهضت.

- والآن استأذنكما علي الإنصراف فقد تأخرت.

نهضت بدوري قائلاً:

- وأنا كذلك أمي علي الذهاب إلى المكتب.
- بالتوفيق لكما،

قالتها أمي وقد ضيقت عيناها كثيرًا فغمزتُ لها ثم تناولتُ معطفي وخرجتُ خلف سارة وكأني ألاحق حلمًا لا أريده أن يضيع، وقفتْ أمام العمارة لتستأذن بالانصراف فهممتُ أسألها:

- من أي اتجاه طريقك آنستي؟
- من هناك.

أشارت بيدها نحو انعطافة الشارع يميناً فقلت بابتسامة واسعة

- إذن طريقك من طريقي.

شعرتُ بأنها ارتبكت قليلاً مني ثم ما لبثت أن رافقتني، أردتُ أن أنطق فلربما لا يتكرر معي هذا الصباح الجميل المشرق، فلا يرافق المرء الملائكة كل يوم أليس كذلك! وبعد أن نسيتُ حروف الأبجدية العربية وطريقة ترابطها نظرت إلى

واجهات المحال التجارية عليَّ ألتقط كلمة لفتح حوار ما معها بهذا الصباح، قرأت إحدى اللافتات تقول (دكان أبو جميل) فقلت باسمًا:

- صباح جميل هو اليوم.
- نعم.

حسنًا علي الآن أن أسألها سؤالاً تكون إجابته طويلة فقلت مجددًا:

- يقولون أن دراسة اللغة العربية صعبة جداً، هل هي كذلك حقًا؟

زمت شفتيها قليلاً، ثم ما لبثت أن أجابتني:

- نوعاً ما "

ابتسمت بزاوية فمي وأنا أتمتم جوابك مختصر كالعادة، لكنها لم تبالِ بكلماتي، وأخرجني من رحلتي الرائعة رسالة نصية قد وصلتني فأخرجت هاتفي لأقرأ:

(أين أنت خالد تأخرت كثيرًا،لقد وصل موكلك)

لتذهب أنت وموكلي والمحكمة كلها إلى الجحيم أهذا وقتك!!؟

قلتها بغيظ ثم التفت إليها قائلاً:

- هل لي برقمك.

نظرت نحوي بتعجب وتسائلت:

- لما؟

ماهذا السؤال الآن بما سأجيبك يا ملاكي..: لأجل...أن..

- نعم سيدي لأجل ماذا؟
- طبعًا من أجل حنين إن احتجتُ إليك لمساعدتي ولنتفق كيف سأقنعها بحضور العرض طبعًا إن لم تكن لديك مشكلة.

- لا...لا مشكلة.

سجلت لي رقم المنزل على هاتفي فنظرت إليه بصدمة قائلا:

- ولكن إنه
- سيدي إن احتجت إليَّ بأي شي لمساعدة حنين باستطاعتك مهاتفتي وطلبي لا مشكلة والآن أستأذنك قد وصلت الحافلة.

توقفت الحافلة بالموقف المخصص لها فاستأذنت مني واستقلتها في حين أني كنت أنظر لها كالأبله.

- عظيم...تريدين أن أتصل بك على الهاتف الأرضي لأغازلك؟ ماهذه الفتاة؟

ضحكت بقوة وأنا أقوم بحفظ الرقم باسم (ملاكي).

ثم عدت أدراجي واستقليت سيارة أجرى لأقوم بالذهاب إلى الشارع المعاكس وأكمل باتجاه المكتب فطبعًا طريقنا كان متعاكسًا منذ البداية.

*****

والصباح بالنسبة لكمال لم يكن جميلاً كصباح خالد، نهض بعد ساعات قليلة من نومه بتكاسل وأخذ حماماً ساخناً عله يتنشط، ثم خرج ليرى جده يحرث حديقة المنزل ويقلبها ليزرع شتلات صغيرة.

- صباح الخير جدي.
- قل ظهر الخير يا ولد الساعة قاربت على منتصف الظهيرة.
- لم أنم جيدًا البارحة فقد وصلت متأخراً دعني أساعدك.

ضحك العجوز ثم ضربه على يده قائلاً:

- أنتم جيل لا يقوى على تحريك أصابعه يا ولد من يمسك الأقلام لا يمسك المعول والمحراث أفهمت، لست معتاداً على هذا العمل إدخل وتناول فطورك تكون حنين وسمر قد جهزتاه لكن أجلب لي كأسًا من الشاي إلى هنا.
- لكن جدي!

رفع العجوز يده ضاحكاً ثم صرخ فيه:

- هيا ولد إلى الداخل عندما احتاجك سأناديك.
- حاضر أيها العجوز العنيد سأدخل.

دخل كمال ضاحكاً وتوجه إلى المطبخ حيث طعام الفطور كان جاهزاً على الطاولة صب كأس شاي لجده وأوصلها إليه وعاد لكنه لم يرى حنين، تقدم ناحية غرفتها وطرق الباب عدة مرات لكنها لا تستجيب!

- حنين أنت بالداخل؟

طرق الباب مجددًا لكنها لم تفتح مما أثار قلقله ففتح الباب بهدوء ودخل ؛كانت جالسة فوق السرير تضم ركبتيها وتأن بألم، ركض نحوها مسرعًا وسألها بعد أن أقلقه حالها:

- مابك صغيرتي؟ حنين هل حصل شيء.!

رفعت رأسها بهدوء ورأى عينيها المتورمتان من شدة البكاء، جلس أمامها على السرير و أعاد سؤاله.

- مالذي يبكيك؟.

نظرت إليه وقالت:

- أريد العودة إلى المنزل، أعدني أرجوك.
- ماالذي جرى؟

مسحت دموعها ثم أجابته بقهر:

- إنها...إنها سمر قالت أني مشوهة.

صاح يهتف بغضب:

- الغبية!

عاودت البكاء من جديد فنهض حانقاً وتوجه إلى طابق عمه علاء وصار يضرب الباب بقوة حتى فتح عمه.

- أهلاً أهلاً دكتور كمال...متى عدت.
- بخير أين سمر؟
- خيرًا لما تسأل؟.

ظهرت سمر من خلف الباب بجلبابها الواسع وحجابها الريفي المزركش وتقدمت ناحيته تسأل:.

- ما الأمر؟
- ما هذه الحماقة التي تفوهتي بها لحنين قبل قليل؟

قالها بغضب فردت عليه بلا مبالاة:

- أوليست الحقيقة؟! كما أنها مغرورة تحتاج إلى تأديب.

صرخ الأب فيها وقال:

- ما الذي قلتيه لها يا بنت؟

فأجاب كمال بحنق:

– قالت أنها مشوهة والله يعلم مالذي قالته أيضًا!

هدَّأ قليلاً من أنفاسه المتلاحقة ثم أعاد حديثه لعمه:

– عمي رجاءاً أنا أحاول علاجها وأنتشلها من مأساتها وأنتم بكلمة واحدة تدمرون كل ما أفعل، كلها بضعة أيام وسنعود لا تزعجونها مجدداً.

صرخ الأب بابنته مؤدبًا:

– سمر ألا تخجلين من نفسك!

فهتفت سمر بعصبية:

– كل ذلك الاهتمام لأجل تلك المشوهة المدللة التي لا تعرف حتى إعداد طبق من البيض المقلي؟؟!

– سمر كفي ببلاءك عنها وإلا ستندمين، قالها كمال مهدداً لكنها قالت لوالدها بمكر: اسأله ما كانا يفعلان البارحة ليلاً في الحديقة والكل نيام ؛ كبح كمال غيظه الذي بلغ لأشده والتفت لوالدها قائلاً وهو يمسح وجهه بيديه: هل لي أن أطلب مجدداً ألا يتعرض لها أحد ياعمي رجاءاً.

وكاد أن يغادر لولا استوقفه عمه سائلاً: –لن تتعرض لها مجدداً، لكن تعرف أننا لسنا في المدينة والناس بدأت تثرثر عنكما تعرف أليس كذلك؟

نفخ كمال بقوة ثم استأذن عمه مغادرًا عائدًا إلى حنين التي ما زالت تجلس على سريرها، تقدم منها مجدداً وكان جده هذه المرة معها وبيده حبة تفاح قطفها خصيصًا لمهجة قلبه حنين وجلس ليهدئها كذلك.

– تقول أنها آسفة وتقدم لك اعتذارها لم تكن تقصد ماقالته.

رفعت رأسها تجاهه وأومأت فسأل جده.

- من الذي جرى بينهما بني لم تخبرني بشيء صباحًا؟
- لا تقلق جدي مجرد سوء فهم وانتهى.

والآن أنا انتضور جوعا ألن تأكلي معي.

سألها كمال باسمًا فردت عليه:

- لا رغبة لدي الآن.

فصرخ جدها:

- هبا با بنت وكفى سخافة جميعنا نعرف سمر ذات اللسان السليط والذي سأقصه قريبًا، هيا اخرجي وإلا ضربتك بعكازي.

ضحك كمال وجده فابتسمت ماسحة دموعها وأومأت لهما لكن جدها قال:

- أولاً غيري ثوب الحداد ذاك وارتدي ما اشتراه كمال لك البارحة.
- ماذا؟؟

تذكر كمال الأشياء التي ابتاعها فذهب إلى غرفته ثم عاد قائلاً:

- لم أستطع تسليمها إياهم البارحة جدي فقد وصلت متأخراً.
- تفضلي حنين.
- ولكن جدي لما؟ تساءلت وهي ترى هذه القمصان الطويلة ذات الألوان الزاهية والتي من المستحيل أن تفكر بارتدائها.

فقال العجوز لها:

- يا ابنتي قلت لك مسبقاً لا تستطيعين التجول براحتك في المزرعة بهذا الشكل فألبستك ضيقة ولا تصلح للقرية فكما تعلمين الناس لا تغلق أفواهها.

فقالت:

– عندي عباءة سأرتديها.

هنا صاح معترضاً:

– أي عباءة! هيا البسي ما اشتراه كمال وكفي عن الجدال.

وخرجا من غرفتها فأفرغت محتويات الأكياس بغضب.كلها قمصان طويلة فضفاضة ألوانها زاهية.

– اللعنة...ألا يوجد قميص أسود أو بني على الأقل!

زفرت بقوة وارتدت قميصًا أزرق اللون يصل ركبتيها وبأسفله بنطال أسود ثم خرجت ليرفع كمال نظره اليها ويرفرف قلبه بسعادة فقد كانت فكرته هو، فالاحتشام هو أولى أولوياته.

تقدمت لتشارك كمال الطعام فجدها كان قد تناوله منذ الصباح الباكر رآها فابتسم وربت على كتفها وخرج للأرض يحرثها مجددًا، أما كمال فازدادت ابتسامته وتقدم نحوها وقام برفع قبعة القميص لتغطية شعرها وقال:

– هكذا أفضل.

*****

الفصل العاشر

عامرة

أظن أنه قد حان وقتي للحديث فقد طال غيابي عنكم أليس كذلك؟
الحياة الرتيبة التي تسير دون أي تغيير كل يوم والفكرة المجنونة التي استحوذت على تفكيري في الأيام المنصرمة كلها كانت تصب في خندق واحد..أريد رؤيتها مهما كلفني الأمر، باتت صورتها قبل أن أنام هي تهويدة غفوتي، وتأملها مجددًا حالما أستيقظ هي بداية كل يوم، حاولتُ جاهدًا ألا أفعلها لكن الكائن الضعيف بداخلي كان يغرقني أكثر ولا أظنني أعرف السباحة لأنقذ نفسي، الأمر الجيد كان بتقربي من خالد، فطورت علاقة الصداقة بيني وبينه وبت لا أتسكع إلا برفقته وأحياناً يرافقنا ضياء.
قال لي ذات يوم على الهاتف:

- أشعر بملل شديد فأنا وحيد في المنزل حالياً أمي وأختي في القرية وأبي مناوب في عمله.

كدتُ أصرخ وأقول أنا قادم إليك... لكن تجري الرياح بما لا تشتهي السفن، فنداء الواجب قد دق ناقوسه بهذه اللحظة فإضطررتُ إلى الإعتذار منه و إقفال الخط ومن بعدها الإنتقال إلى موقع الحريق وأنا العن بسري هذا الحظ العاثر الذي يحول دومًا دون تحقيق ما أرمي إليه
وبالكاد استطعنا العبور بسبب تزايد الاشتباكات بين قوات النظام والفصائل المعارضة في المناطق القريبة، وعندما وصلنا كان مصنعًا للغزل والنسيج بمنطقة

على أطراف دمشق صاحبه يجلس على الأرض يضرب كفًا بكف على خسارته الملايين وزوجة الحارس تلطم الخدود على فقدناها زوجها و الظلام يخيم على الأرجاء إلا من كتلة النار المتأججة التي نقوم بإخمادها والرياح التي تعصف بها فلا تزيدها إلا اشتعالاً وجنونًا، أصوات الرصاص البعيدة لم تهدأ لحظة واحدة، جو من التوتر والاستتفار بين العناصر بسبب ضخامة هذا المصنع وبالتالي ضخامة الحريق وصعوبة السيطرة على نيرانه. التي التهمت كل ما بداخله تقريبًا.

كنت أصرخ فيهم وأعطيهم التعليمات، أشاركهم مهمتهم حتى أخذ منا التعب مأخذه، ولم تخمد نيران المصنع حتى ساعات الفجر الأولى، كان الكل منهكاً لما بذلوه من جهدٍ في هذه الليلة المجنونة ولم أكن بأفضل منهم

عندما وصلت إلى المنزل كانت الساعة تشير إلى السادسة صباحاً.

- أريد أن أنام فقط يا إلهي....رجال يسهرون خارجًا في الملاهي الليلية لهذا الوقت وأنا أقضيها أراقص النيران! فعلاً كل يغني على ليلاه... استغفر الله ماهذه المقارنة الآن..

كنتُ احدث نفسي كالمخابيل والإرهاق قد تملكني كليًا، مررت بجانب الصالة فرأيت الضوء مشتعلاً، تنحنحتُ قليلاً خشية أن تكون ريم مستيقظة لأداء الصلاة لكن لم أتلقى جوابًا فدخلت، يبدو أنهم قد نسوه مشتعلاً أو تركوه لأجلي، لكنها كانت تجلس على الاريكة و.... مهلا إنها نائمة! تقدمت بهدوء منها وناديت:

- ريم...

كلمة واحدة قلتها همساً من بعيد فانتفضت من مكانها رتبت حجابها وصارت تحدق بي:

- أتيت سيدي...حمدًا لله على سلامتك.
- شكرًا، لماذا أنتِ نائمة هنا ادخلي غرفتك.

أطرقت رأسها أرضاً وهمست بصوت خافت:

- لقد قلقتُ عليك كما أن هاتفك مقفل.

ابتسمتُ لها مطمئنًا فاحمرت بشرتها البيضاء لتصبح بلون الطماطم!!

- كنت بمهمة عمل ونفذ الشحن.

أومأت لي بتفهم فقلت لها وأنا بالكاد أستطيع فتح عيناي:

- حسنًا سأذهب لأنام فأنا مرهق جداً وأنت أيضًا اخلدي إلى النوم فما زال الوقت باكرًا.

ثم دخلتُ غرفتي وارتميتُ على السرير بإنهاك.

عند الظهيرة اتصلتُ بخالد ودعوته لتناول طعام العشاء في منزلي بما أنه وحيد حاليًا، وكنوع من زيادة الود طلبتُ من أمي أن تتعرف عليه وتشاركنا المائدة فرحبت به ترحيبًا حاراً، جهزت ريم بمساعدة أمي أصنافًا شتى من المأكولات والمشروبات الشهية وجلسنا جميعا كعائلة واحدة نتبادل أطراف الحديث، وقضينا بعدها أمسية جميلة على أنغام أم كلثوم فهو يحب الاستماع إليها كما علمت منه.

كنتُ أشعر بأنني وغد، ضميري الأحمق كان يصرخ بي بين فينة وأخرى فكل شيء أقوم به مع خالد لأجل أن أصل إلى أخته!!! تفكير نذل إن لاحظتم ذلك لكني في نهاية المطاف لا أريد بهما سوءًا لا سمح الله.

أنضم إلينا ضياء مصادفةً حينما مر بي حوالي الساعة العاشرة مساءاً وبعد مضي ساعتين تقريباً انتهت أمسيتنا وعاد كل منهما إلى منزله.

ومرَّ بعدها أسبوعان لم أر فيهما خالد بسبب انشغاله بقضية تأخذ معظم وقته حتى دعاني بيوم إلى مقهى العم أحمد الذي يعتاد ارتياده، كنا جالسين ووسط ثرثرتنا علمتُ أن والدته قد عادت من القرية، شبح ابتسامة ارتسم على محياي ظنًا مني أن حنين قد عادت برفقتها وقلتُ له: –إذًا سنتذوق طعام الحاجة أخيراً ضحك مجيباً:

– ستتذوقه يا عزيزي لا تقلق.

وبتر كلمته عندما رن هاتفه فأجاب: –أهلاً كمال.

بمجرد نطقه للاسم استنفرت كل خلاياي العصبية وأصغيتُ باهتمام.

– متى عدت؟.....

إذن تعال أنا بمقهى العم أحمد أجلس مع صديقي.

– حسنًا بانتظارك،.....

أغلق الخط وقال لي:

– سيأتي الآن ابن عمي سأعرفك عليه.

شربتُ من كأس الشاي على عجل ثم هممتُ بالنهوض بسرعة:

– كان بودي أن أتعرف عليه لكن وصلتني رسالة مستعجلة من القسم.

– خيراً إن شاء الله؟

– لا علم لي يبدو أنه حريق بمنطقة ما عليَّ أن أوافيهم.

قلتها واعتزمتُ الهروب بسرعة فلا استطيع مواجهة ذلك الأحمق كمال حالياً وإلا سينسف ماخططتُ له كل تلك الأسابيع.

ودعني خالد وهممتُ بالخروج لكني كنتُ قد نسيتُ محفظتي على الطاولة عدتُ إليها مسرعاً وكان يتحدث على الهاتف فالتقطتُ أذناي اسم حنين.

أخذتُ المحفظة وابتعدتُ قليلاً من خلفه بحيث أسمعه ولا يراني وانحنيتُ أعقد ربطة حذائي.

- نعم أمي الأسبوع القادم لربما أسافر وأحضرها فكمال لديه عمل هنا لن يقدر على اصطحابها.

وقفت مبتسمًا أردد (الأسبوع القادم) يبدو أنها لم تعد مع والدتها..

- إذن لدي رحلة علي القيام بها.

في اليوم التالي مباشرة اتصل بي خالد ليدعوني لتناول العشاء، أملاني العنوان فحفظته بقلبي قبل عقلي، أخرجتُ السلسة من جيبي وهمستُ:

- اقترب لقائنا يا ملكة أحلامي.

كانت شقتهم متواضعة لكنها تبعث على الدفء والراحة، أباه على ما يبدو رجل عصبي المزاج حاد الطباع ككل رجال الشرطة وظهر ذلك جليًا من أسلوبه في الحديث أما والدته فامرأة طيبة وصلبة كالفولاذ فعلاً القت علي التحية وجالستنا قليلاً واختفت بعدها لتعد طعام العشاء...

وتلفتُ حولي في هذه الصالة ذات الأثاث البسيط لكن الأنيق...

لوحة للطبيعة كبيرة معلقة أمامي على الحائط وفي زاوية الصالة خزانة بلورية يتموضع عليها عدة تماثيل وصور فوتوغرافية...

كان أباه قد ألقى على مسامعنا ما ألقى من الشتائم على كل شيء وأي شيء من حوله في هذه الدنيا الفانية الغدارة ومن الحرب التي تنتشر نيرانها بكل أرجاء سورية، ثم غادر ليتابع نشرة الأخبار وخالد بدوره ذهب لا أعرف إلى أين ؛ فنهضتُ بهدوء واقتربتُ من الخزانة لأرى الصور..

كانو أربعة، واحدة للعم وزوجته وواحدة لامرأة محجبة مع زوجها وطفل صغير جدًا بينهما والثالثة لخالد أما الرابعة فتضم أفراد العائلة كلهم ما عدا واحدة فقط كان وجهها مطموسًا بالحبر الأسود!! أجفلت بمكاني عندما سمعت صوت أمه تقول:

- إنها عائلتي..

استدرتُ لأواجهها وقلتُ:

- ليحفظهم الله لك يا خالة.
- وضعتْ لي كوب العصير على الطاولة وهمتْ بالمغادرة فتلكأتُ قليلاً وسألتها: لكن خالد قال لي أن لديه شقيقتين.

نظرتْ إليَّ ولم تفهم ما أرمي الوصول عليه فأكملت:

- الصور...أقصد لا تحوي إلا على ابنة واحدة.

شعرتُ بقبضة يدها تعتصران الصينية وهي تتكلم بأسى:

- لا تحب أن تلتقط الصور يا بني.

ألجمتني كلماتها التي قالتها لإنهاء الحديث ودخل خالد بعدها معتذرًا عن تأخره، أدخل طاولة كبيرة فساعدته على فتحها ثم بدأ بترتيب الأطباق عليها، بصراحة نسيت كل شيء حالما شممت تلك الروائح الشهية ومناظر الأطعمة المتنوعةأمامي.وأول كلمة قلتها حينما تذوقتُ:

–سلمت يداك كم أنت طاهية ماهرة، كم أنت محظوظ ياخالد على أمك.

حدَّق بي أباه ثم قال بحدة:

– أتغازل زوجتي يا ولد لو لم تكن بعمر ابني لحطمت الطبق فوق دماغك.

قد أخرسني قوله هذا وحدقت به بذهول فأطلق ضحكة عالية، ثم قال..أمازحك حتى مزاحه ثقيل!! يا إلهي.

انتهى العشاء أخيرًا وجلستُ مع خالد بعدها نحتسي الشاي فأطلقتُ القنبلة التي كنتُ أحتفظ بها وأتمنى أن يكون تخميني صحيحًا.

– ربما أسافر في نهاية الأسبوع إلى اللاذقية ريم تود زيارة أقاربها.

رفع رأسه متفاجأ وقبل أن يتكلم كانت أمه قد دخلت سمعت مقولتي فهتفت:

– يامحاسن الصدف، خالد سيسافر أيضًا ليجلب أخته،هي في قرية سلمى وضعت طبق الحلويات أمامي وتبسمت.

أدعيتُ الغباء وأنا أسأل:

– حقًا!

أومأ لي ثم تابعت أمه:

– إذًا تترافقان فالطريق طويل إلى هناك لكن من هي ريم بُني خطيبتك؟

تبادل نظرات مع أمه فقلتُ بعدها فوراً:

- لا...لا خالتي إنها فتاة تعتني بأمي وترعى شئونها لكن أمي تحسبها كابنتها وتخاف عليها السفر وحيدة فالمسافة طويلة فأوصلها أنا أحياناً
- ليحفظكم الله على طيبة أخلاقكم.

أدعيتُ البراءة ولو كنتُ فتاة لأحمرت وجنتاي من شدة الخجل! لكنني رجل وبالتالي رفعتُ رأسي بشموخ واكملتُ:

- وبالمناسبة أنها فكرة جميلة جداً أن نترافق سنذهب بسيارة صديقي وبهذا نختصر ساعةً على الأقل.

ظهر الاعتراض على وجهه فقال:

- لا أظن أنها فكرة مناسبة فأنا لا أعلم متى سأذهب أو أعود لا أريد أن أعطلك عن أعمالك.
- لا بالعكس صديقي وأنا أيضاً لا مشكلة لدي في الذهاب أو العودة وستتسلى الفتاتان في الطريق.

صمتْ قليلاً مفكرًا ثم قال:

- إذاً على بركة الله.

فقلتُ أنا بسري الحمد لله سأعبر للوصول إليها.

*****

بعد أمسية جميلة قضيتها بمنزل العائلة عدتُ ليلاً إلى منزلي، استقبلتني ريم من الباب مرحبة: –أهلا سيدي ثوان ويكون العشاء جاهزًا.

كادت أن تتجه إلى المطبخ لإعداده لكني سارعتُ بالقول:

- لا شكراً تناولته خارجًا.

توقفتْ بمكانها تنظر إلي فأعقبتُ:

– آه إسمعي بنهاية الإسبوع سأصحبك إلى منزل خالك جاسم.

نظرتْ إليَّ لأكمل الحديث لكني تابعتُ السير متوجهًا إلى الصالة ألقي السلام على والدتي، ثم طبعتُ قبلة على راحة يدها كعادتي كل يوم فلحقتْ بي ريم تسأل:.

– لكن سيدي هل هناك من شيء لقد أقلقتني؟

خلعتُ معطفي ورميته بجانبي على الأريكة وقلتُ:

– لا أبداً لكني في الأشهر القليلة الماضية قد تقاعستُ عن اصطحابك، ألم تشتاقي إليهم؟

تهللت أساريرها وأجابت:

– نعم نعم....اشتقتُ إليهم بالتأكيد شكرًا للطفك سيدي.

– هيا إذن.. لكن أريد منك الآن فنجان قهوة.

– تحت أمرك.

وتوجهت إلى المطبخ بفرح مرسوم على وجهها وبالتالي شعرتُ بسعادة والدتي التي قالت:

– فكرتك رائعة بني فكم اشتاقتْ الفتاة لزيارة أقاربها كما تعلم هي وحيدة هنا.

وقبل أن تكمل تلك الفكرة التي باتت تراودها مؤخراً نهضت متوجهًا إلى غرفتي. طبعاً لم أستطع أن أهرب بعيدًا فقد لحقتْ بي قبل أن أغير ملابسي، أغلقت أمي الباب و جلست على سريري وقالت:

- بُني ألم يحن الوقت بعد؟!
- وقت ماذا؟

خلعتُ قميصي وارتديتُ كِنزة قطنية خفيفة فأردفتْ:

- أنت دائما تتهرب من مطلبي هذا.

تقدمتُ ناحيتها مقبلاً يدها ثم قلتُ:

- سيدتي الجميلة حالياً لا أفكر بهذا الموضوع، وحتى لو فكرتُ فلن تكون ريم هي المناسبة لي.

ظهر الضيق على ملامح والدتي وسألتْ:

- لماذا بُني؟ إنها فتاة طيبة وجميلة جداً و على خلق عالٍ لو أن الموت ما أختطف بأبويها لكانت أكملت دراستها وما احتاجت لتعمل هنا.

تخللت بأصابعي شعر رأسي ثم قلتُ:

- الموضوع ليس له علاقة بطبيعة عملها أمي ولا بمن تكون تعلمين أني لا أفكر بهذه الطريقة لكني صدقاً لا أرغب بالزواج حاليًا، لا تزرعي برأسها أوهامًا وأحلاماً قد لا تتحقق مازالت صغيرة.

فأجابتني:

- لا أحتاج لزرع أي فكرة فهي وكما يتضح لي معجبة بك، لا تكف عن امتداحك والحديث عن لطفك معها ومعاملتك لها.، أنت من تعطيها الأمل بُني لا أنا.

وقفتُ مجددًا وقلتُ بتعجب:

- –أنا؟!

ولكن...إن معاملتي لها طبيعية، لم..

فقاطعتْ كلامي موضحة:

- بُني...حتى لو لم تنتبه لنفسك، الأنثى تتعلق بكلمة أحياناً، تستشعر الحنان والعطف والأمان فتتعلق وهذا ما شعرتْ به ريم هنا في منزلنا ومعك تحديدًا، أنت العون والملجأ لها الفتاة متعلقة بك وهذا لا يخفى على أحد.

أهديتُ أمي ابتسامة باردة لكن خلفها تتصارع أفكار غريبة بصدري، ثم خرجتُ إلى المطبخ لارتشف كوب ماء فاستوقفني من خلف الباب حديث خافت صادر من ريم.

- نعم قال أنه سيصحبني عندكم نهاية الأسبوع تخيلي! كم هو.

دخلتُ قاصدًا فابتلعتْ باقي حروفها فضحكتُ بخفة عليها ثم همستُ:

- سأشرب الماء فقط أكملي مكالمتك.

فتحتُ الثلاجة أرتشف الماء وأصبح حديثها فجأة مجرد همهمات فهززتُ رأسي وتمتمتُ لنفسي:

- هذا ما كان ينقصني!! أن أعلق المسكينة بحلم لن يتحقق.

*****

ومرت الأيام الأربعة المقبلة بلهفة كبيرة مني على السفر وبلهفة أشد من ريم التي لاحظتُ فعلاً أنها تهتم بي اهتماماً زائداً، وليس طبعًا كاهتمام الخادمة بسيدها، كان ببساطة اهتمام نابع من قلبٍ محبٍ ولكن كل منا كان يفكر باتجاه مختلف عن الآخر مع الأسف.

وجاء اليوم المنشود، تجهزتْ ريم صباحاً ووافتني عند الباب:

– أنا جاهزة سيدي.

فقلتُ قبل ذهابنا دون أن أنظر حتى إليها:

– ضعي وشاحًا صوفيًا فالجو بارد هذا اليوم، ثم أردفتُ بعد استدرتُ ناحيتها ونظرتُ إليها:

– ما رأيك أن تمسحيه أكل مرة علي تذكيرك؟.

رمشتْ عدة مرات غير فاهمة لما أتحدث فأشرتُ من بعيد ناحية فمها وأردفتُ:

– احمر الشفاه، إنه فاقع.

شعرتُ بتوهج وجهها الأبيض ارتباكاً وخجلاً فتذكرت كلام أمي:

– أنت من علقتها بك باهتمامك الزائد

تنهدتُ بعمق فأنا فعلاً اعتبرها بمثابة أختي ومن واجبي حمايتها ليس إلا، فقلت بعدها:

– حسنًا لا ضير من وضع لون وردي ناعم.

ثم قلت لأمي لأغير الموضوع:

– لقد اتصلتُ بخالتي للمكوث عندك ريثما نعود مساءاً من السفر وهاهي ستأتيك بعد ساعة تقريباً. اعتني بنفسك..

– لا تقلق بُني اذهبا في رعاية الله وحفظه.

وكانت الساعة الثامنة تقريبًا عندما انطلقنا في هذه الرحلة نحو اللاذقية بعد أن مررتُ بخالد لاصطحابه معنا،.ولكم أن تستمعوا للضجيج الصادر حاليًا وطبعًا لم يكن ضجيج محرك السيارة، بل كان ضجيج قلبي الذي تواترت دقاته بعنف، بعد

رحلة عجيبة من اجتياز حواجز التفتيش التابعة للنظام استغرقت حوالي الست ساعات وصلنا ناحية منزل الحاج جاسم في محافظة اللاذقية وترجلت ريم، أعطيتها أكياس الحلويات لتقدمها لمنزل العائلة كهدية و القيت السلام على خالها ووعدته بأن أعود إليه ليلاً.، وانطلقت نحو طريق قرية سلمى، جنة خضراء بكل مافيها من شجر وعشب وتلال وجداول مناظر خلابة تسحر القلب وتبهجه وتدميه بآن معًا نظراً للدمار الذي حلَّ بها جراء تنازع قوات النظام والفصائل المعارضة عليها قبل سيطرة قوات الجيش بالكامل، الدمار قد شمل معظم المنازل والمزارع! تنهد خالد وهو يتأمل تلك الأبنية المهدمة وقال بحسرة: كانت مقصد السائحين صيفاً شتاءاً والآن حولتها الحرب إلى أطلال مدمرة وحواجز إسمنتية!.

عندما وصلنا ناحية المزرعة. ترجلنا من السيارة وكان هنالك عجوز يحرث حقله، هتف خالد: السلام عليك يا جدي.

رفع العجوز رأسه المتصبب عرقاً رغم برودة الجو وهتف بسعادة:- خالد!...وعليك السلام يا ولدي.

ثم التفت إليَّ مكملاً:

- أهلاً بك وبضيوفك تفضلا بالدخول.

بادلته السلام وتوجهت ناحية المنزل برفقة خالد ريثما ينفض العجوز يداه من الأتربة ودخلنا المجلس، كان ورغم بساطته جميلاً إنه التراث يا سادة، وما أدراكم ما التراث الأصيل!.

كل شيء من حولي كان رائعاً:

- الجو، روائح الأعشاب المختلفة في الخارج والزهور التي تتسلل خِلسة من خلف نوافذ المجلس،.وهذا العجوز عريض المنكبين مفتول العضلات فشعرت بمدى ضآلة حجمي أمامه!
- وكأنني أنا العجوز لا جدك.
- قلتها لخالد هامسًا فضحك مجاوبًا:
- الحياة هنا تعيد إليك الشباب كأكسير سحري...

دخل وصب لنا القهوة المرة فشربتها شاكرًا ثم قام بالجلوس متكئٍ على أحد المصاطب.فقال خالد: كيف هي حنين؟.

- بأفضل حال يا بُني.
- إذن سأذهب لرؤيتها إن سمحت لي وأعود فوراً.

واستأذن مني ليغادر إلى حنين..وليغادر قلبي معه إليها.

ساعات النهار مرت هنا وأنا برفقة خالد نجلس أو نتجول بحديقة منزل جده العجوز...أستوقفتني أرجوحة حمراء معلقة على إحدى الشجيرات فتقدمت منها بشكل تلقائي وتلمستها فقال باسماً:-تخيل أن هذه الأرجوحة عمرها فوق العشر سنوات، تقدمت من الشجرة أكثر فتبين لي نقوشًا محفورة على جذعها، انحنيت لأقرأ خطوط أطفال بالكاد استطعت قراءة الاسمين لكني ابتسمتُ مرغمًا (كمال وحنين)..لم أفهم الكلمة الأخيرة لأن جزءًا من لحاء الشجرة قد تم فصله بأداة حادة على ما يبدو..كانت السماء تتزين بألوان الغروب قبل أن تختبئ الشمس فقلتُ له:

- هلا نغادر الآن ياخالد؟

– حسنًا كما تشاء سأستدعي أختي إذن.

قالها ودخلنا إلى المجلس من جديد لكن جده العجوز دخل فوراً وهو يهتف:– والله لتبيتان الليلة في داري.

– لكن جدي.

– أعاد العجوز قسمه مجددًا فما كان منا إلا الرضوخ لدعوته الطيبة تلك، فاتصلتُ بخالتي مطالبًا إياها المبيت هذه الليلة عند أمي، ثم هاتفتُ ريم أخبرها أن تنام عند خالها.

مساء اجتمع أقاربه وصاروا يتبادلون حديثًا ؛ فاستأذنت بأدب لأستنشق الهواء العليل الذي أفتقده بشدة في المدينة.

خيَّم الليل وازدادت برودة الجو، كانت الأشجار تعبق بظلمة السماء السوداء، توغلتُ شيئاً فشيئًا في المزرعة حتى صرتُ قرب الأرجوحة أستدرت لأرى مدخل المنزل المضاء بمصباح أصفر اللون وجلست على صخرة كبيرة رافعاً رأسي أتأمل القمر المتوارِ معظمه خلف أغصان الشجر،.كنت غارقاً في التفكير حين سمعت صوت خطوات على بقايا أوراق الشجر الواقعة على الطريق، استدرتُ بشكل تلقائي ونهضتُ لأرى من هناك لكن صاحبها أو لنقل صاحبتها قد ركضت مبتعدة...

– أسف إن أخفتك فالظلام شديد هنا!!

صرختُ بصوتي فتوقفت الفتاة فجأة لكنها لم تستدر تجاهي

– لا عليك الخطأ خطأي.

هذا الصوت الناعم....أعرفه!!

سمعته من فتاة جميلة قالت للبائع ذات يوم:

– أريد ان أشتري السكر...

تذكرتها الآن، فهمست أُ دون إدراك:

– حنين!!!هل أنت حنين؟

صاحبة الصوت صمتت قليلاً ثم أجابتني وهي تستدير ببطئ، لكن الظلام لشديد فلم أتبين ملامحها المدثرة بعباءة الليل وستارة ردائها الطويل.

– نعم...من تكون أنت؟

كدُت أن انطق...أنا عامر....منقذك من براثن النيران ذلك اليوم..الشاب الذي حلم بطيفك مدة سنتين كاملتين.، الرجل الذي بحث عنك لأشهر طويلة...أو المجنون الذي صار يلاحق أي خيط ليتمسك به لرؤيتك.

لكني قلت ببساطة:

– أنا.... صديق خالد.

*****

حنين

مرَّ أسبوع آخر علي مكوثي هنا لكن كمال لم يكن برفقتي،.بل اضطر إلى الذهاب للعاصمة مجدداً، كنت برفقته لا أشعر بالضجر، أرتاح لكلماته واهتمامه

الشديد بي، لكني عدتُ وحيدة مجدداً لا يسليني سوى التنزه بحديقة المنزل واللعب بأرجوحتي الحمراء التي اعتدت ركوبها ليلاً، وقراءة الكتب التي أحضرتها معي، كنت أتحاشى ابنة عمي سمر قدر الإمكان بعد تلك المشاجرة التي نشبت بيننا والتي قادت كمال لتوبيخها بشدة.

لا علم لي لما تكرهني لهذه الدرجة فهي لا تتوانى عن إزعاجي بكلمة أو نظرة عندما ننفرد وحيدتين؟

لكن اليوم قد جاء أخي لأخذي معه، وكم كنت سعيدة برؤيته، ما إن طرق الباب ودخل حتى ركضتُ تجاهه واحتضنته بشدة..

- خالد متى أتيت!.لقد اشتقتُ إليك يا أخي.

قبلني من جبهتي وقال:

- وأنا حبيبتي...أشتقتُ إليك كثيراً، كيف حالك هنا.
- إنني بخير...مرتاحة جدًا.
- عظيم.

ثم أبعدني قليلاً وانفرجت شفتاه عن ضحكة

- حنين...أنت.....لا ترتدين الأسود!!

حملقتُ به بسعادة ثم هتفتُ:

- إكتشفتُ أن جميع الألوان جميلة كذلك.

مسح على شعري بلطف ثم جلس بجانبي على السرير، تحادثنا قليلاً واطمأن عن أحوالي ثم طلب مني أن ألملم أغراضي لأننا سنعود إلى العاصمة مساء هذا اليوم وذهب ليجلس مع صديقه الذي أوصله للمزرعة.

بعد أن علمتُ أن برفقته صديقه آثرتُ البقاء بعيدة عن المجلس قدر المستطاع، ساعدتُ زوجة عمي وابنتها سمر قليلاً في المطبخ، ثم عدتُ مجدداً إلى غرفتي ألملم حاجياتي

سأفتقد تلك الأسابيع القليلة التي عشتها حقًا بهذا المكان، أتيتُ بحقيبة واحدة والآن أحمل حقيبتين بسبب تلك الألبسة التي جلبها لي كمال.

لكم ارتحتُ بهذا المكان، تخيلوا أني قد تخلصت من تعلقي باللون الأسود فلم أعد أرتديه إلا نادرًا، وكله كان بفضل جدي الذي ما إن يقول كلمة حتى أنفذها دونما اعتراض، وبفضل كمال الذي أراحتني أحاديثه وتواجده بجانبي بشدة.

كانت بهجة الألوان والأزهار والطيور من حولي تنسيني حزني وكآبتي وجعلتني أكثر إقبالاً على الخروج، صحيح أني لا أتعدى حدود المزرعة لكني لم أعد أخاف من مجالسة أقاربي ومشاركتهم بعض الأحاديث، ببساطة كانت حياتي هنا بغض النظر عن معاملة سمر لي، جميلة ومريحة.، الطبيعة تعيد إليك الشعور بالطمأنينة والسكينة، الهواء النقي وسكون المكان من حولك بعيدًا عن الضوضاء كلها تريح الأعصاب وتساعد على الإسترخاء.

وعندما أنهيتُ لملمة أغراضي لمحتُ من باب المجلس المواري أعمامي يجلسون برفقة أخي والضيف، ويتحادثون لذلك اطمأننتُ وخرجتُ لأودع هذه الحديقة التي سأفتقدها بشدة، وتوغلتُ بين شجيرات الزيتون، بحثت عن تلك القطة الشقراء فرأيتها تلعب فوق التراب ناديتها ومسحت على شعرها الناعم بلطف لأقوم بتوديعها، ثم سرتُ تجاه أرجوحتي الحمراء حتى رأيتُ ظل أحدهم! لقد فزعتُ عندما نهض هذا الجسد الكبير أمامي فجأة تراجعتُ خطوتين إلى

الوراء وهربتُ راكضةً نحو المنزل حتى سمعت خطواته خلفي واستوقفني صوته العميق...–أنا أسف إن أفزعتك....لكن الظلام شديد.

هدأت من ضربات قلبي القوية ووقفتُ ألهث انفعالاً لكني لم أستدر ناحيته، أمسكتُ قبعة الثوب الكبيرة وأنزلتها أكثر الى جبهتي،همست: لا تعتذر....كان خطأي.

لكنه عرف اسمي ناداني حنين!.

بتلقائية إستدرت إليه، كُنا قد اقتربنا بما يكفي من المنزل ليلقي المصباح ضوءه عليه فأرى تفاصيل وجهه أما أنا فكنت غارقة في الظلام، رفعت بصري تجاهه بهدوء لأرى هذه المعالم...الجبهة العريضة.الذقن الخفيفة والشعر الكثيف..

ضيقت عيناي أكثر أحدق فيه...أنا أعرفه...متأكدة من هذا.

وجهه قد حرك بقلبي ألمًا غريباً وشعوراً لا أقدر على وصفه وكأنه....وكأنه يعيد إلي ذكرى تجمعنا سوية لكن لاقدرة لي على تذكرها حاليًا، شعرتُ بضربات قلبي تصرخ بعنف بسبب ذلك الغموض الذي يحيط به وطال الصمت بيننا وأنا أحدق فيه كالمخابيل، حتى سمعت ذلك الصوت الحاد من خلفي.

– حنين أنتِ هنا وخالد يبحث عنك منذ مدة!

استدرتُ لأواجه سمر التي وقفت على أعلى درجات المنزل تنظر إليَّ بلؤم واضح، ركضتُ تجاه المنزل فاستوقفتني وهمست بأذني بحنق بالغ:

– ماهذه الوقاحة! منذ بضعة ليالٍ رأيتك مع كمال تحتضنينه بمنتصف الليل بين الشجيرات والآن تحادثين هذا الشاب، أتريدين جلب العار لعائلتنا يا بنت؟

حدقتُ فيها بصدمة أعجزتْ لساني عن الرد لكن خالد قد خرج من باب المنزل بلحظتها:

– أه حنين أين كنتِ صغيرتي؟

تقدمتُ منه قائلة بصوت خانق:

– كنتُ في الحديقة أودع أرجوحتي.

وهنا خرج عامر وشعرتُ به خلفي فأطرقتُ رأسي أكثر نحو الأسفل.

– لن نغادر اليوم جدك أصر أن نبات الليلة هنا.

قالها خالد فأومأتُ له وتجاوزتهم إلى الداخل.

*****

الفصل الحادي عشر

عامر

لحظة واحدة.....دعوني ألتقط أنفاسي وأهدئ من ضربات قلبي التي تتراقص الآن بجنون وكأنها تقيم حفلة روك ببن شجيرات الليل.أنا الآن مع حنين!...أميرة أحلامي أصبحت واقعًا الآن! كنتُ أتشوق للمسها لأتأكد من أنها حقيقة لا طيف أو حلم كما المعتاد.، طال الصمت واضطربتُ أنفاسي واختلطت بالريح الباردة لتولد بخاراً أبيض يخالط بخار أنفاسها قبل أن يتلاشيا في صقيع الليل، كنت أرخي قبضة يدي وأشدها باستمرار لأزيل التوتر الذي علا قسمات وجهي وجسدي، هل هو الوقت المناسب لأحادثها بشأن السلسلة؟ لكن هل تذكرتني؟ هل عرفت من أكون؟

هل تعلم أني من انتشلتها من براثن النيران.، وهل تعرف أني شددتها إلى صدري ذلك اليوم فتشبثت بي بقوة قبل أن تخور قواها.، أفكار تتعاظم بعقلي كنيران ذلك المصنع الذي احترق والعرق يتصبب من جبهتي بغزارة وهي تحدق بي...

لم أستطع قراءة ملامحها فقد كان وجهها غارقًا بعتمة شديدة.

حتى أنقذني من تحديقها صوت فتاة حاد اللهجة خرجت من باب الدار، تنهدت ارتياحاً عندما أدارت ظهرها مجدداً ورحلت لكني بقيت قليلاً، أخرجتُ سيجاراً أشعلته وصرتُ أنفث دخانه بهدوء وروية، ثم لحقتُ بها إلى الداخل عندما جاء خالد لانضم إليه بعد أن تغادر.

وهاهو الليل قد جَنَّ، تناولنا طعام العشاء وسهرنا قليلاً أنا وخالد على طاولة أمام المنزل نحتسي الشاي الساخن ونلتحف بأردية تغطي ظهورنا فالبرد كان شديدا، نتبادل أحاديث على أنغام أم كلثوم التي ذهبت بفكري بعيدا جداً....جداً

أنت يا جنة حبي واشتياقي وجنوني...

أنت يا قبلة روحي وانطلاقي وشجوني...

أغدًا تشرق أضواءك في ليل عيوني...

آه من فرحة أحلامي وخوف ظنوني...

كم أناديك وفي لحني حنين ودعاء رجائي..

أنا كم عذبني طول الرجاء...

أنا لولا أنت لم أحفل بمن راح وجاء.

- أين صرت عامر؟

قالها خالد مبتسمًا فأجبته:

- هنا...صرت هنا أخيراً، طبعا خالد لم يفهم جملتي لكنكم فهمتم أليس كذلك؟ رنَّ هاتفي فأخرجته لأرى اسم ريم لكن أتتصل بي بهذا الوقت المتأخر؟ ابتعدتُ قليلاً عن الطاولة لأستطيع محادثتها بعيدًا عن الموسيقى.
- مرحبًا سيد عامر.
- أهلاً ريم خيراً إن شاء الله أقلقتني.
- أسفة لاتصالي بهذا الوقت لكن..

وصمتتْ فجأة فعدتُ أقول:

- هل تحتاجين إلى شيء؟
- لا...لا أبدًا لكن هذه أول ليلة لي أقضيها بعيدًا عن المنزل...أقصد.
- هل تشعرين بعدم الراحة عندهم؟
- لا بالعكس إنهم يعاملونني معاملة جيدة جداً.
- إذن ما يؤرقك؟

صمتت مرة أخرى وسمعت صوت أنفاسها قبل أن تتكلم من جديد.:

- كنت أريد الاطمئنان على أنك مرتاح بمنزل صديقك ليس إلا.
- نعم ريم أنا بخير ومرتاح جداً لا تقلقي هيَّا الآن اخلدي إلى النوم فغدًا سننطلق في الصباح الباكر، –تدثري جيدًا فالجو بارد.

قلتها ولاحت مني التفاتة إلى نافذة تقف خلفها فتاة!

ما إن أدركتْ أني رأيتها حتى هربتْ إلى الداخل وأغلقتْ النافذة، لم أسمع ما تكلمت به ريم إذ أغلقتُ الخط فورًا وأنا أحدق بهذه النافذة التي تفصلني عن حنين دون أدنى شكٍ...لماذا كانت تراقبني؟ عدتُ أخيراً إلى خالد وجلست قبالته فبادرني يسأل:

- هل تحبها؟

نظرتُ إليه بصدمة وكدتُ أضحك على كلماته نافيًا:

- أوه ريم!!!لا....لا...طبعًا لا.
- حسنًا حسنًا إهدأ صدقتك لا تعد كلامك مرتين؟

قالها ضاحكاً فعدتُ أحدثه مجدداً.

- لا فعلاً، إنها كأختي الصغيرة ليس إلا أشعر أني مسؤول عنها بعد وفاة والديها.
- حقًا! لكن تبدو هذه الفتاة متعلقة بك؟ ماقصتها احكي لي.

تنهدت وأنا أتذكر ما حل بتلك المسكينة منذ سنوات وقلتُ مجاوبًا:

- مات والدها عندما كانت طفلة صغيرة فاضطرتْ والدتها للعمل في المنازل كخادمة ولأجل الصدفة قد عملت عندنا ؛ لأن أمي كما تعلم مريضة لا قدرة لها على القيام بأعمال المنزل وكانت تحضر معها ريم..

كانت ماتزال طفلة صغيرة لكنها استطاعت أن تعيلها وتتابع دراستها حتى الثانوية لكن أمها ماتت بحادثة مرورية أودتها صريعة فوراً فأصرت أمي على انتقالها للعيش معنا.

هنا قال لي:

- مسكينة حقًا...لكن جاسم أليس خالها؟ أليس من المفترض أن يرعى شئونها.
- هناك خلاف بين أمها رحمها الله وزوجة جاسم فهي امرأة قوية سليطة اللسان وعنده من البنات مايكفيه فلن يتحمل عبئاً إضافيًا، و درءاً للمشاكل اختارت ريم البقاء في دمشق والعمل في منزلي، عرضت الفكرة على جاسم واقنعته فوافق لأنه يعرفنا منذ كانت شقيقته تعمل عندنا.

وبعد بضعة أحاديث أخرى قررنا أن ننام لأن رحلتنا في العودة ستكون صباح الغد لكن النوم طبعًا قد جافاني هذه الليلة، بربكم كيف أنام لأحلم بها وهي حقيقة

أمامي يفصلني عنها جدار فقط؟ جدار واحد بدد كل أحلامي إلى يقظة وواقع أعيشه.، بقيتُ بفراشي أتقلب ذات اليمين وذات الشمال وأحدق بعدها بالسقف...

أخرجت السلسلة من جيبي وتلمستها بهذه العتمة...(حنين) اسم محفور في السلسلة كما حفرته السنوات في قلبي لسبب غريب ولكن من كانت تريد شراء السكر أغرب...

*****

صباح لربما يكون عاديًا بالنسبة إليكم لكنه ليس كذلك أبداً بالنسبة لي، فكما أن كل يغني على ليلاه كل يتغنى بصباحه، بعد أن تناولنا طعام الفطور تجهزنا للانطلاق في رحلة العودة ولكم كنتُ أتمنى أن أبقى بجوارها مدة أطول فالكم الهائل من الكلمات التي في جُعبتي تجاهها لم أجد وقتا لأنطق منها حرفاً بعد، حان الوقت وخرجت حنين لتنضم إلينا بعد أن ودعت جدها، وخرجت ابتسامة عذبة من شفتي لاستقبال حُلمي الذي تحقق.

كانت مطرقة رأسها لأسفل كطالبة ثانوية خجلة تحتضن حقيبتها وشعرها الحريري الأسود يغطي الجهة اليمنى من وجهها بشكل كامل، ترتدي الأخضر فيشع ماتبقى من بشرتها النقية نوراً يملأ الدنيا سرورًا وبهجة، هي تمشي الهويني لحين وصلت نحونا رفعت وجهها وهمست لنا:-صباح الخير.

سمعتُ تلك الكلمة آلاف المرات مسبقًا لكنها الآن خرجت بنكهة لذيذة جدًا من قطعة سكر لذيذة.

استقلت حنين المقعد الخلفي وأنا متمسك بمقبض باب السيارة خوفًا من أن أطير بعيداً عنها بعد أن وجدتها، صعدتُ وخالد مقعدينا وانطلقتُ متوجها إلى اللاذقية حتى دار جاسم، صرتُ أراقب كل حركة تصدر منها من خلال المرآة، تستند برأسها على النافذة الزجاجية شاردة بعيدًا وكأنها بعالم آخر وأنا شارد بها بتفاصيل وجه مبهمة مخفية خلف شعر أسود وقبعة... كانت كالفتاة التي تظهر بأحلامي....قبل أن تبدأ بالصراخ والذوبان..لكن ما سبب تغطية وجهها بهذا الشكل!!هل تخفي آثار الحرق؟ هل عانت بسببه كمعاناتي بسببها؟.

والأهم من هذا...هل تذكرتني؟ إذا لم تكن كذلك لماذا تحدق بي بين الفينة والأخرى بعين جارحة كالنسر، ثم تشيح ببصرها فور أن تتلاقى عينانا عبر المرآة.بدأ خالد يثرثر وأنا أنصت لربما سمعتُ بعض كلماته لربما عرفتُ موضوع حديثه لكني لم أجاريه بشكل جيد.

– عامر! أتسمعني.

سألني بحدة فالتفتتُ إليه فقال:

– لقد أجتزت منزل الحاج جاسم ما بك؟

اوقفت السيارة فوراً وتلفت حولي ثم أجبته:

– أه يبدو أنني شردتُ قليلاً آسف.

ولففت المقود لأعود بسيارتي إلى الشارع الذي قطعته قبل قليل حتى وصلنا، اطلقت بوق السيارة فخرجت ريم ألقت السلام علينا واتخذت مقعدها بجانب حنين ونظرت إليها قائلة:

– آه يبدو أن لي رفيقة في السفر فعند المجيء شعرتُ بملل شديد.

لكن حنين نظرت نحوها ولاذت بالصمت،.وصارت ريم تثرثر كعادتها والأخرى صامتة وكأنها تستمع إلى مذياع فقط حتى قررت أن أنهي المسألة وأضع أغنية تسلينا في الطريق.

وصار الجو يعبق بهدوء مخيف منا نحن الأربعة وكأننا نصمت حدادًا على أرواح شهدائنا، حينما أسرعت بسيارتي وتجاوزنا حدود اللاذقية بمسافة طويلة تلبدت السماء بغيوم سوداء داكنة تنذر بقدوم أمطار وماهي إلا لحظات حتى دوى صوت رعد قوي عقبته شلالات غزيرة من الأمطار؛.رفعت بصري إلى السماء قائلاً:- سبحان الله منذ دقائق كان الجو رائعًا.

فقال خالد:

- أخشى أننا لن نستطيع إكمال المسير!!.

- لا تقلق أنا معتاد على القيادة بهذا الجو لقد قطعنا نصف المسافة تقريباً

قلتها وأنا أشغل ماسحات الزجاج وأكمل القيادة بعد أن أبطأت من السرعة قليلاً حتى توقفنا خلف صف طويل من السيارات.

- ولكن ما العمل الآن أننتظر هنا.

قلتها وهممتُ بالإنعطاف يميناً أركن السيارة كالباقين لننتظر لولا أن قالت ريم:

- بل عد قليلاً إلى الوراء وتابع القيادة إننا قريبون من الإستراحة التي اعتدت على النزول فيها عندما كنت آتي إلى القرية فنبقى هناك خير لنا من الإنتظار بالسيارة بهذا الجو البارد.

- فكرة سديدة.

قالها خالد مؤيدًا فما كان مني إلا أن ألقي نظرة على تلك الفتاة الصامتة خلفي وأعود أدراجي نحو تلك الإستراحة، وفعلاً بضع دقائق حتى وصلنا إلى هناك وترجلنا من السيارة لكن حنين بقيت بداخلها..

دخلت ريم بسرعة هربًا من المطر فانحنى خالد تجاه أخته مخاطباً إياها:

- ألن تنزلي حنين؟
- لا...لا رغبة لدي أريد أن أقرأ قليلاً هنا اذهبوا أنتم.
- ولكن حبيبتي كيف لي أن أتركك وحدك هنا الجو بارد
- لا عليك سأكون على ما يرام هيا اذهب لقد تبللت ملابسك.

قالتها معلنة انتهاء الحديث فما كان من خالد إلا أن تنهد و سار تجاهي لندخل سويًا.

جلسنا على طاولة قريبة من الواجهة البلورية للاستراحة فكان باستطاعتي رؤيتها بوضوح من مكاني، وبعدها ذهبتُ لإحضار أكواب من الشاي الساخن وعندما عدتُ لم أجد خالد.

- أين ذهب؟
- إلى الحمام.
- حسنا سآخذ الكوب إلى حنين قبل أن يبرد.

قلتها وكدتُ أمشي لولا استوقفتني ريم تسأل:

- ما مشكلتها

استدرتُ ناحيتها مجددًا

- لم أفهم سؤالك.

تلكأت ريم قليلاً قبل أن تقول: لا أعلم يبدو أنها تعاني من مشكلة ما فلا تفتأ تغطي وجهها بشعرها ولا تتكلم أبدًا رغم أني حاولت اختلاق الاحاديث.

– لا...لا مشكلة على ما اعتقد لا تقلقي بشأنها إنها خجولة فقط والآن سأذهب قبل أن يبرد الشاي.

وسرتُ مسرعًا الى الخارج قبل أن تستوقفني تلك الثرثارة مجددًا حتى وصلتُ ناحيتها وجلستُ مباشرة في مقعدي كي لا أبتل من مياه المطر.

– مرحبًا آنسة حنين، تفضلي إنه شاي ساخن سيشعرك بالدفء.

رفعت بصرها تجاهي ومدت يدها بتردد نحو الكأس وتناولته من يدي، تلامست رؤوس أصابعنا فكانت باردة كالثلج.

– الجو يزداد برودة سأشغل التدفئة.

قلتها وشغلت التدفئة ونظرت عبر المرآة مجددًا نحوها كانت ترفع الكوب نحو شفتيها ترتشف الشاي.

فهمستُ:

– مناسب مذاقها أم أجلب لك مزيدا من السكر.

تنحنحت قليلا وقالت بصوت خافت:

– مناسبة شكراً.

– العفو...حسنًا إذا سأذهب الآن عن إذنك.

لو كان باستطاعتي أن أوقف الزمان بهذه اللحظة فما ترددتُ لحظة واحدة، لكن الوقت يهرب بسرعة من يدي، ومن غير اللائق أن أتأخر هنا معها لاأريد إثارة شكوك خالد حالياً ؛ لذلك اضطررت آسفاً إلى الخروج من السيارة والعودة حيث

يجلسان، آه لو كنتُ أعرف سبب تعلقي الشديد بهذه الفتاة التي لم أقابلها سوى مرة في المتجر ومرة وسط النيران....ومرات ومرات بعالم الأحلام، لكن هل الأحلام تجعلنا نتعلق بأحد بهذا الشكل حتى دون أن نعرفه!؟

عدتُ إليهما وشاركتهما الجلوس مدة من الزمن وطلبنا طعاما نأكله لحين تأكدنا من أن عناصر حاجز التفتيش قد فتحوا الطريق من خلال عمال الإستراحة فعدنا للإنطلاق مجددًا في رحلة العودة.، أما حنين فلم تفتح كيس الطعام حتى، مازال مركونًا كما هو بجانبها على المقعد وهي نائمة تستدير إ لى جهتها اليمنى تستند على النافذة بحجمها الضئيل وتنكمش على نفسها كقطة صغيرة نائمة بأمان.

لم أستطع منع نفسي من النظر إليها طوال الطريق الذي تعمدت بأن أسيره ببطئ شديد بحجة ألا تنزلق السيارة لكن قلبي الآن هو من ينزلق إلى الخلف رويداً رويدًا ليصل إليها.

*****

حنين

شعور غريب اجتاح كياني مذ أن رأيته..

ارتحتُ إلى كلماته البسيطة التي سمعتها منه عندما قدم لي كأس الشاي، كان وسيماً خلوقاً لكن عيناه تحملان الكثير من الكلمات وكأنهما تصارعان للبوح بشيء ما لم يستطع مصارحتي به، الشيء الذي يحيرني أنه كان يراقبني عبر المرآة طوال الطريق لو لم أكن مشوهة الوجه لقلتُ ببساطة أنه قد أعجب بشكلي لكن الآن....من يمكنه أن يعجب بفتاة مشوهة الوجه والقلب! كنت أنظر

إليه عبر المرآة لأتذكر أين رأيته لكن عبثًا وعلى حد قول خالد أنه قد عرفه مؤخرًا أي أنَّ احتمالية كوني رأيته مع خالد ليس لها صحة من الأساس والفتاة الجميلة الثرثارة التي كانت بجانبي تتكلم معي دون أن أتجاوب حتى شعرت بالملل مني وصمتت، أعرف أن تصرفي كان فظًا معها لكن الأمر ليس بيدي، اعتزالي وحيدة في المنزل لمدة سنتين وبضعة أشهر أنساني الكلمات، أنساني المجاملات والحوارات وجعلني أخاف من أن أبوح بشيء لأي أحد.الوحيدة التي ارتحت لها هي سارة لن أستطيع التجاوب مع غيرها بهذه البساطة أبدًا.

عندما وصلتُ إلى المنزل رحبت بي أمي بحرارة وأبي لم يكن في المنزل بسبب مناوبته في العمل، أما كمال وسارة فكانا يجلسان في الصالة يرتشفان القهوة، ألقيتُ السلام فوقفا من فورهما وتقدما نحوي:.–حمدًا لله على السلامة حنين، لم أستطع أن أقلك أنا بسبب انشغالي.

– لا عليك.

عانقتني سارة بسعادة وقالت: عندما أخبرتني الخالة أنك ستعودين اليوم فرحتُ جدًا لقد اشتقتُ إليك حنين.

بادلتها العناق وأنا أقول:

– وانا أشتقت إليك عزيزتي شكرًا لقدومك.

تقدم خالد نحو كمال وصافحه وسرعان ما استاذنتهما للذهاب إلى غرفتي فصار الثلاثة يحدقون ببعضهم بطريقة لم أفهمها! لم أعط بالاً لنظراتهم واتجهتُ ناحية غرفتي فتحتُ الباب وشهقتُ بغضبٍ!:

– مالذي فعلتموه بي!صرخت بصوت عالٍ وأنا أحدق بغرفتي واستدرت ناحية أمي بغضبٍ وعاودتُ الصراخ مجددًا:من سمح لك بالعبث بأغراضي؟من أعطاك الإذن؟.

تقدمت مني سارة تقول:

– حنين! إن الخالة تعبت كثيرًا لجعلها على هذا الشكل كما أنها...جميلة أنظري.

كانت تحاول تهدئتي فدفعتها بقوة لترتطم بخالد الذي أسندها بيديه.

– لا تتدخلي أنتِ، أفهمتي ومن قال أني أريدها جميلة؟!! أعيدوها كما السابق حالاً .

كنتُ ألهث بانفعال وشعرتُ بدفئ الدمع الذي انساب من عيناي...سارة شعرت بصدمة من كلماتي وخرجت على الفور من غرفتي ينساب دمعها على وجنتيها، أما أنا فتجاهلتها وحدقتُ حولي وكأنني صرتُ بديار غريبة بمنفى بعيدة عن وطني الذي اعتدتُ على اسوداده، بضع أسابيع فقط أبعدوني فيها عن موطني الصغير ليستبدلوه...كنت ضحية لعبة بشعة جداً، تركني خالد ولحق بسارة أما أنا فخرجتُ ناحية الشرفة استنشق هواءاً نقيًا فتبعني كمال فوراً.

– لست أنقصك أنت الآخر هيَّا اغرب عن وجهي.

– مالأمر حنين!، لماذا كل هذا الانفعال الآن؟

نطقها بعتاب، فنظرتُ ناحيته أحارب دموعي من أن تثور مجددًا: –انظر حولك لقد استبدلوا غرفتي بالكامل لهذا الأمر أبعدتني أمي إذن أليس كذلك؟

لكنه أجابني بهدوء شديد يخالف انفعالي:

- ما أراه الآن هو غرفة جميلة تناسب فتاة بمثل عمرك، ألست من كنت تقولين لي دائما أنك تحبين اللون الوردي، وتتمنين أن تمتلئ غرفتك بالألعاب وبصور للقطط حتى لو صار عمرك مئة عام؟!!

مسحتُ دموعي وحدقتُ فيه قائلة بقهر:

- لكن....المرايا أنظر بنفسك مرآتان كبيرتان في غرفتي، أتريدون تذكيري بأني مشوهة في كل يوم وكل دقيقة أو كل لحظة؟ ألا يكفيكم عذابي؟!!

فاقترب أكثر وأمسك بيدي قائلاً:

- في كل تلك الأيام لم يكن بغرفتك مرآة، أنسيتي بلحظة أنك مشوهة!!

تلكأتُ قليلاً وأشحتُ ببصري عنه ولم اعرف بما أجاوبه فاكتفيتُ ببكاء مكتوم.، فأردف:

- لا يحتاج المرء لشيء ليتذكر حقيقة ما هو عليه، لو كان أمامك ألف مرآة فلا يجب أن يؤثر هذا على قوة إرادتك بالمواجهة، تقبلي نفسك لكي يتقبلك الجميع،.كل شيء قمنا به فقط لرسم البسمة على شفاهك والآن انظري لصديقتك الوحيدة.لقد ساعدتنا كثيراً في ترتيب غرفتك وكل هذا لأنها تحبك بصدق، أيستحق الأمر أن تصرخي بها وتدفعيها بهذا الشكل الجنوني؟

أطرقتُ رأسي إلى الأرض وقد شعرتُ بمدى سخافتي تجاه ما فعلوه لأجلي، فقال ممازحاً:

- هيا الآن يا مدللة قدمي اعتذاراتك للجميع وأولهم لي.

نظرتُ إليه بخجلٍ وقلتُ:

– ولماذا أنت ما الذي فعلته لأجلي لأقدم اعتذاري لك أيها المغرور؟

فأمسكني من يدي وجرني ورائه وأنا أصرخ به:

– إلى أين كماا‌ال؟

وأوقفني أمام مكتبة على زاوية الغرفة لم أنتبه إليها قبلاً بسبب صدمتي وقال:

– عوضًا من أن تضعيهم بصناديق تحت سريرك، تحضري قليلاً وأعطيهم حقهم

ابتسمتُ بسعادة وأنا أمرر يدي على تلك الكتب المتراصة بانتظام، فصار يقول بفخر:

– الزاوية الثقافية كانت من اختصاصي آنسة حنين، وضعتُ يدي على فمي بصدمة فقال: –ألا استحق بسمة منك على الأقل؟!

كدتُ أن أشكره بحق لولا أدارني ناحية الباب وقال يهمس بأذني:

– طريقة شكري سآخذها لاحقاً أما الآن فعليك الإعتذار من سارة وأمك فقد أخطأت بحقهما كثيرًا.

ودفعني بخفة لأتقدم إلى الأمام، خطوتُ ناحية الباب لكني توقفتُ أمام المرآة وتسمرت بمكاني وقد تحجرتْ دمعة في عيني كنتُ أحدق بنفسي لأرى معالم هذا الوجه القبيح. ؛ ارتعشت أناملي وأنا أتلمس النتوءات الحمراء واغلقت عيناي بقوة، هززت رأسي معترضة وقلتُ بصوتٍ خانقٍ: أرأيت ما أنا فيه...يستحيل أن أتجاهل شكلي.

شعرتُ بقبضته القوية تعتصر يدي لتنزلها للأسفل وبيده الأخرى يريح شعري خلف كتفي ويهمس:

- مازلت بنظري أجمل فتاة في الوجود، واجهي مخاوفك ولا تضعفي، لربما لن تنجحي من المرة الأولى وستشيحين بنظرك بعيداً عنها لكنك ستحققين نجاحاً في النهاية ؛ فالجمال الحقيقي ينبع من داخلك ؛.لذلك هذه المرآة لا أريد منك أن تكسريها بل قفي أمامها بكل قوة وتحد وقولي: (أنا لا أخافك)

سيتولد بقلبك إيمان عميق وستتقبلين واقعك، وقد حان الوقت فعلاً لتحاولي، و الآن هيا إمسحي دموعك ولنخرج إليهم.

نظرت إليه فأومأ مشجعًا، تنهدتُ ورسمتُ ابتسامة على شفاهي و خرجتُ إلى الصالة ناحية سارة وجلست بجانبها على الأريكة:

- أنا آسفة...حقًا لم أقصد ما فعلته لتوي سامحيني.

أمسكت سارة بيدي وابتسمت بإشراقة قائلة:

- لا عليك أنا الآسفة لأني أغضبتك بغير قصد.

*****

تعانقت الفتاتان وخالد وكمال ينظران إليهما بسعادة.؛ كان كل منهما يفكر بملاكٍ استحوذ على قلبه وتفكيره وأسره منذ الوهلة الأولى لكن الفرق بينهما أن ملاك كمال كان جزءاً من روحة وقلبه وعقله منذ سنوات طوال وليس وليد بضعة أسابيع فقط، أخذت سارة بيد حنين وركضت بها نحو الغرفة وهي تهتف بسعادة.:-هيا سأريك مالذي فعلناه يا ناكرة الجميل.

أما حنين فتقبلت غرفتها الجديدة بعد هذا الصراع وصارت تتجول فيها ولأول مرة تصرخ الأنثى والطفلة بداخلها لتضحك بفرح حقيقي،.كانت الغرفة تتراوح

بين اللون الأبيض والوردي بكل شيء فيها ابتداءًا من السجادة إلى السرير والملاءات والستائر ولوحات القطط والطبيعة المعلقة بكل ركن فيها عكس الاسوداد الذي كان يسيطر عليها سابقًا..

الألعاب تتناثر فيها كغرفة طفلة صغيرة فلا تزيدها إلا حيوية وجمالاً، أقراص مدمجة تحوي أفلاماً عدة يغلب عليها الطابع الكوميدي والرومانسي، مكتبة ضخمة ملأت زاوية، الغرفة صارت تمدد يديها الصغيرتين عليها وكأنها ترى كنزًا ثمينًا من كنوز مغارة علي بابا.

اقتربت منها سارة وقالت:

– يبدو أنه يحبك بصدق.

إستدارت إليها حنين قائلة:

– كان يحبني، أما الآن شعوره لا يتعدى الشفقة تجاه فتاة مشوهة.

أمسكتها سارة من كتفها مجيبة:

– الشفقة لا تكون بهذا الشكل يا حنين.

لكن حنين أردفت:

– أنت أيضًا لربما صداقتي معك مجرد شفقة منك بعد أن عرفتِ ما حلَّ بي.

مسحت دمعة خانتها ونزلت، فأدارت وجهها تخفيه عن سارة التي صاحت معترضة وقد استبد بها الغضب:

– دائمًا ما تطلقين الأحكام الخاطئة على من حولك، لست مضطرة لأشفق عليك، فإن كنتِ كما تقولين لن أضطر لمرافقتك وعندي حياتي الخاصة

المليئة بالمشاغل.أنا أحببتك حنين...لأنك تشبهينني بكل شيء بطباعك وأخلاقك وطيبتك.

فقالت حنين مستهزئة:

- نعم...أشبهك بكل شيء إلا بالجمال.
- وأنا بلحظة واحدة قد يتشوه جمالي لسبب ما فإن لم تكن روحي هي الجميلة سأخسر كل شيء.

ثم رفعت فستانها فجأة لتجحظ عينا حنين بصدمة، أكملت سارة: انظري إلى قدمي، إنها مبتورة وهذه الساق الاصطناعية صديقتي منذ ثلاثة أعوام تقريبًا، أصبت بشظايا تفجير قريب من جامعتي راح ضحيتها أكثر من عشرة قتلى وكنت المحظوظة بأني لا أزال على قيد الحياة، لم تصبني رصاصة طائشة كما قلت لك سابقًا، هل حبست نفسي في المنزل؟! هل انغلقت عن العالم لمجرد أني صرت مختلفة عن غيري؟! لا أنكر أني تألمت كثيراً أول بضعة أشهر، لكن الحياة ستستمر، مازلت أفكر، أسمع، أرى، اتكلم لم أجلس في منزلي لأتحسر على ما كنت عليه بل على العكس شغلتُ نفسي بتعلم الموسيقى وبالدراسة، أيقنتُ أن الحياة لا يجب أن تتوقف عند حد معين، نحن بشر والله سبحانه خلق الإنسان ليتأقلم مع ما حوله وبه من تغييرات..

صمتت حنين ورفعت وجهها تجاه سارة وكأن حياتها في السنتين الماضيتين كانت مجرد كذبة أتقنتها وصدقتها حتى انغمست فيها ؛ لتتحول إلى واقع تجبر نفسها على التعايش فيه

إنها بداية جديدة رغب كمال في أن تبدأها حنين بعيدًا عن الحزن،أقسم على مسح دموعها وها هوذا يفي بوعده، يريد تغيير كل شيء فيها من الداخل قبل الخارج، يريد أن يغير محيطها الذي تقوقعت فيه، يريدها أن تتقبل نفسها لتتقبل الآخرين وتواجههم دون خوف، يريدها قوية صلبة كشجرة شامخة تجابه الرياح.

في الصالة يجلس كمال مع خالد وأمه، انضمت إليهما الفتاتان وقدمت حنين اعتذاراً لأمها التي احتضنتها وقبلتها قائلة بلطف: صغيرتي أتمنى أن تكون قد اعجبتك فابن عمك وصديقتك ساعدانا كثيرًا.

- نعم إنها جميلة أشكركم جميعًا لكل شيء.

فقالت سارة مستأذنة منهم:

- عليَّ الإنصراف الآن فقد تأخرت.
- حسنًا يا ابنتي في رعاية الله بلغي تحياتي لوالدتك "

*****

الخالة

أما أنا وما إن نطقت كلمتها وقفت فورًا قائلاً:

- سأذهب لشراء السجائر فقد نفذت من عندي.

قال لي كمال بخبثٍ وقد فهم مبتغاي:

- تعال أعطيك وعندما أخرج سأشتري واحداً لي.

لكني لم أبه لكلماته بل حدجته بنظرة ذات معنى، وأسرعت الخُطى نحو ملاكي الذي التهمه الباب.

أغلقتُ باب المنزل من خلفي وناديتها؛ التفتت إليَّ فأكملتُ:

- شكرًا لكل شيء قد فعلته لأجل أختي.

اهدتني ابتسامة عذبة جعلت قلبي يتراقص، فقلت بسرعة قبل أن اتفوه بحماقة قد أندم عليها لاحقاً:

- غداً أي ساعة حفلتك.
- في السادسة مساءًا.
- سنكون هناك إذن، فأنا متشوق لرؤيتك وأنت تعزفين.
- أتشرف بحضورك سيد خالد والآن عن إذنك.

ودخلت منزلها ودخل قلبي ورائها مغلقًا الباب وعدتُ إلى الخلف ادخل الشقة دون أن أشتري شيئًا.

جلستُ على الأريكة أبتسلم كالأبله وأمامي كمال يحدق بي بصمت حتى قال أخيراً:

- إنها جميلة ذات خلق لا تضيعها يا ابن عمي.

وغمز لي بعينه فحدقت فيه وكأني قد أفقتُ من حلم جميل.

- عفوا!!!!.

قهقه كمال واقترب مني أكثر قائلاً بمكر:

- آه بالمناسبة علبة سجائرك كما هي على الطاولة لم ينقص منها شيء أتريد واحدة.

ضحكتُ وضربتُ كمال على كتفه وقلتُ مغتاظًا:

- أيها الأحمق كفى سخافة.

فنهص كمال ضاحكًا ثم قال:

- حسنا إذًا وجب علي الرحيل الآن لأتركك بأحلامك الحمقاء لكن أريد رؤية حنين قليلاً، هل أخبرتها بشأن الحفلة غدًا أم أخبرها أنا.
- لا أظنها ستعارض الذهاب لحفلة صديقتها.

-أتمنى ذلك، والآن هلا ناديتها لي أم أذهب أنا عندها

فأبعدته معترضاً:

- لا طبعًا لن تذهب عندها أيها الأحمق إبقَ مكانك.
- تغار على أختك مني يا مغفل!
- لأني أعرف وقاحتك يا ابن عمي.

وبعد أن غادر خالد حك كمال لحيته قليلاً ثم قال يكلم نفسه:

- هل يعتبر الحب وقاحة بقاموسكم، إذا كان كذلك فأنا وقح بكل معنى الكلمة

وتقدمت منه حنين، فقال بسرعة:

- غداً بعد أن تعودي من حفلة صديقتك سنجلس سويًا لأني أريدك بموضوع مهم

قالها وهمَّ بالانصراف لولا صرخت به.

- مهلاً....مهلاً لحظة، أي حفلة وأي موضوع كمال.

فاستدار ناحيتها قائلاً بتعجب:

- لا أظنك ستفوتين حفلة صديقتك في المركز الثقافي بعد كل شيء قامت به لأجلك أليس كذلك لن بكون هذا لائقًا أبداً؟

فتمتمت حنين:

– معك حق لكن...

قاطعها مجددًا:

– حسنًا إذن قضي الأمر تصبحان على خير سلامي لوالدك.

ابتسم خالد وربت على كتف أخته، فكمال حقًا يعرف كيف يتعامل مع حنين لربما أكثر منه هو شخصياً، رغم محبتنا الشديدة لأفراد عائلتنا إلا أننا في كثير من الأحيان لا نتصرف معهم بالطريقة المناسبة لمساعدتهم بل لربما نزيد الأمور سوءاً، هذا ما جرى مع عائلة حنين، وهذا ما اكتشفه خالد مؤخراً فالتغيير الذي أجراه كمال إلى الآن بحنين لم يستطيعوا تحقيقه بسنتين كاملتين.

*****

حنين

لربما كان كل شيء قد تغير من حولي، إلا أنني لم أشعر بعد بتغير ملحوظ بداخلي، كلماته يتردد صداها بين ثنايا عقلي وكأنه ملاك حارس يحميني من الوقوع في ظلمات الخوف وينتشلني من اليأس لأحلق بحرية بعيدًا عن الألم.

إنه كمال..صديق طفولتي...ابن عمي المتهور سريع الغضب والثوران عندما يتعلق الأمر بي.، أصبح رجلاً عاقلا متزنًا، طبيبًا ناجحا عاد من جديد ليقتحم حياتي مغيراً إياها جذرياً، ولكم احتجتُ لهذا التغيير،.كنت أحتاجه دون أن أدري، أحتاجه صديقا...أخًا..رفيقًا، أريده بأي صفة كانت إلا صفة حبيبي، فالحب لن يتمكن من زرعه بداخلي أبدًا حتى لو كنت أثق فيه، فأنا ببساطة أحترمه وأحبه كخالد تمامًا وحاليًا لا مكان للحب في قلب مشوه، ليلاً صرتُ

أتقلب في فراشي الذي امتلأ فجأة بالألعاب وكأنني طفلة صغيرة تنام في مهدها...

لكن من قال أني كبرت، عندما توقف الزمان بي كنت طفلة مراهقة، مازالت تحتفظ بألعابها لكنها فجأة رمتهم في العلية وكأنها تريد استخلاص البراءة والطفولة ودفنها عميقًا جدًا، حدقتُ بالسقف أبتسم بسعادة غريبة لم أشعرها منذ حين، فوصلتني رسالة نصية منه، ومن غيره كمال الذي لا يفوت لحظة لا يقتحم فيها خلوتي:

– (أراهن أن صغيرتي الآن تحتضن لعبتها وتحلق بعيدًا بأفكارها الجميلة)

أطلقت ضحكة خافتة و رميت اللعبة بين شقيقاتها وأرسلت له الرد:

– هل تتجسس علي يا ابن عمي، أيوجد كاميرا بغرفتي.

لم يرسل ردًا هذه المرة بل رنَّ هاتفي وأجبته:

– لستُ من هواة إرسال الرسائل كما تعرفين أحب سماع صوتك.

صمت قليلاً ثم أجبته:

– وها قد سمعته الآن لكنك لم تجبني هل هنالك كاميرا في غرفتي لا أستبعد عنك هذا الفعل المشين.

ضحك بقوة على كلماتي وقال:

– كنتُ أتمنى أن تصل بي الجرأة لفعلها صدقيني لكنك ستصبحين ملكي في نهاية المطاف فلا داع لهذه التصرفات الآن.

صدمتُ من جرأته بالحديث وألجم الصمت لساني فقال مجددً ا بصوت عميق وكأنه يفكر بكل كلمة ينطقها:

– حنين أعرف أن الوقت ليس مناسب أبدًا للحديث بهذا الموضوع لكن... صمت قليلاً، وتابع لو كنت قد وافقت على عرض الزواج في ذلك الوقت ولم تتصرفي بأنانية معي لربما كان كل شيء قد تغير الآن.

– ما الذي تهذي فيه الآن كمال أرجوك!.

– ما زلت حُلمي الذي أسعى لتحقيقه، لربما غيرت السنوات كل شيء بي وبك إلا مشاعري تجاهك، كانت تزداد مع الأيام، وستزداد بمرور الأيام، تعرفين أني أحبك، ولن أتنازل عنك بسهولة لأي سبب كان.

– سأغلق الخط عن إذنك.

أغلقتُ الهاتف فورًا وانزلقت على سريري مغطية وجهي باللحاف، كنت أرتجف لربما خوفًا من كلماته التي أشتاق لسماعها من أحد ما، لربما بردًا رغم دفء غرفتي...

لستُ متأكدة من السبب لكن ما اعرفه أني كنت أرتجف.

– يا إله السموات.. لم يتغير...كمال لم يتغير أبدًا.

لماذا الحزن الآن يا حنين؟ أليس هذا ما أريده؟!!! أن يحبني أحدهم بجنون.. أن يتعلق بي وأكون موقنة من حبه لا مخدوعة فيه، لماذا لا يصح أن يكون كمال هو ذلك الشخص الذي أحلم به؟؟ لماذا لا يدق قلبي عند رؤيته؟ لماذا لا أشعر بالسعادة عندما أراه ويغازلني؟؟ لماذا لا أبادله هذا الحب الكبير الذي يغدقني به؟؟.لربما سيكسر كمال جميع الأغلال لأتحرر من مخاوفي لكن وموقنة أنه لن يكسب قلبي على الأقل بهذا الحال الذي أنا فيه،.وآهٍ من قلب مكسور خائف على الدوام..

آهٍ وألف آهٍ من وجه مشوه قبيح.

وأنا تحت اللحاف أغرق بالظلمة تراءت لي صورة عامر تذكرت نظراته عبر مرآة السيارة...وصوته الدافئ رفعت اللحاف بقوة واعتدلتُ بجلستي مسحتُ وجهي بيدي مستغفرة الله سبحانه..ما الذي دعاني للتفكير بهذا الآخر الآن؟؟.

على الرغم من أن الأفكار تعاظمت بقلبي ومنعتني من النوم حتى وقت متأخر من الليل، إلا أني استيقظت صباحًا بنشاط على عكس باقي الأيام، سأنسى اليوم كل مخاوفي وسأجتازها في سبيل صديقتي سارة.

مَّر اليوم سريعًا جدًا وكان خالد متوترًا بطريقة غريبة بعد عودته من العمل باكرًا وكأنه عروس قبل ليلة زفافها.؛ قام بالاستحمام ثم خرج يغني طربًا وناداني إلى غرفته يطالبني بالإستعجال كي لا نتأخر، قلت له ساخرة:

– لا عليك أخي مجرد فستان سأرتديه لينتهي الأمر لن أتبرج كباقي الفتيات.

وخرجتُ أرتدي هذا الثوب الذي اشترته أمي يبدو أنهم قد خططوا لكل شيء مسبقا،كان الثوب وردي اللون ضيقًا على جسدي طويل الأكمام وبكافة الأحوال سأرتدي فوقه معطفا فالجو.بارد في الخارج...

صففتُ شعري كما هي العادة وصرتُ أنظر إلى زاوية المرآة بشوق لأرى كيف سيكون الفستان على جسدي، وتقدمتُ بهدوءٍ منها كهرة جائعة أمامها قطعة لحم لكنها خائفة....

خطوة وراء الأخرى حتى وقفتُ أمامها مباشرة القيتُ نظرة خاطفة على نفسي وأشحتُ النظر فورًا، إستندت بكفي على طاولة الزينة بتوتر أتنفس بعمق حتى

استجمعتُ شجاعتي أخيرًا رفعتُ راسي وخاطبتها كما علمني كمال لربما يبدو الأمر سخيفا لكني ساحاول.

– لن أخاف منك، لست خائفة أيتها المرآة الحمقاء.

قلتها وضحكت على ما أقوم به...فوالله قد جننت، كان الأمر كالصراع بالنسبة لي...وها أنا أصارع (صراع مع المرآة) يبدو اسم فيلم جميل أليس كذلك!

– مع من تتكلمين حنين؟

استدرتُ ناحية خالد بتوتر لكنه كان مشوش التفكير فلم يعط بالاً لما سأقوله وهذا ما أراحني قليلاً، كان يمسك بربطتي عنقه قائلاً:

أيهما مناسبة الحمراء أم الزرقاء؟

– آه بذلة جديدة؟ مبارك متى اشتريتها؟.

منذ أيام لكن لم تجاوبيني هيَّا الوقت يداهمنا.

ضحكتُ وأجبتُ:

– حسنا على رسلك أخي الزرقاء ستناسبه أكثر.

ولم أكمل جملتي إلا و كان قد اختفى من أمام ناظري.

ما به يا إله السموات أيعقل أنه...آوه يا إلهي أخي معجب بها!

بهذه اللحظة وصلتني رسالة من كمال يقول فيها:

(أي كان ما ترتدينه لا تخلعي المعطف وإلا قمت بخلع رأسك من مكانه) مابال هذا الآخر معي أقسم أنه لا يقل جنونًا عن أخي، القيتُ الهاتف وأكملتُ تهيئة نفسي.

دقائق معدودات حتى كنا قد تجهزنا وكانت رائحة عطر أخي تسبقه لكثرة ما أغدق نفسه بها، انطلقنا خارجين نحو المركز الثقافي، توقفنا لبرهة قام فيها خالد بشراء باقة من الورود الحمراء واستكملنا المسير من جديد.، كان المكان مزدحمًا فالتصقت بخالد بتلقائية لحين عبر الرواق منعطفين إلى الصالة الكبيرة و اتخذنا مقعدينا أمام خشبة المسرح.

خلعتُ المعطف فقد كان الجو حارًا بالداخل و عاودتُ الجلوس مجددًا بجانب أخي،كانت الأضواء خافتة مما أراحني قليلاً، بضع دقائق مرت وبدأ العرض، عازف وراء الآخر يطربون الحضور بأروع المعزوفات حتى حان دورها...

تصفيق حار قد خرج من القاعة عندما تقدمت من خلف الستارة ترتدي فستانًا أسود طويل، تمسك الناي بكل ثقة، سارت حتى توقفت بمنتصف المسرح بشموخ وتهيأت لتبدأ..

لا أنكر أني حسدتها بهذه اللحظة على الجمال الذي تتألق فيه، شعرها الأشقر الناعم كانت تصففه لينسدل على كتفيها فلم يزيدها إلا جمالا، تتزين بعقد براق..وجهها الأبيض كان يشع بنوره لتشع عينا أخي نحوها.كان لا يزيح بصره عنها وأظنه مجنونًا فعلاً لو لم يتعلق بفتاة مثل سارة...

******

خالد

وبدأت العزف...وبدأت بالسفر بعيدًا بعقلي...برحلة جميلة جدًا أخذتني سارة، ومعزوفة سارة، وجمال سارة المتألق هذه الليلة.، وحلَّق قلبي بعيدًا، ولم يهبط إلا حينما انتهت سارة فصفق الجمهور بقوة لها وانحنت احترامًا للجمهور حتى

وقفت مجددًا و اختفت خلف الستار،.بالنسبة إليَّ كان العرض قد انتهى، لن أستمع لشيء أجمل من معزوفتها، أنا موقن من ذلك ؛ لذلك نهضت وطلبت من حنين أن تلحق بي.

وخرجنا ناحية الصالة التي تضم العازفين وبحثتُ عن ملاكي الجميل حتى وجدته يضحك مع أحدهم ؛ شعرتُ حينها بحنق بالغ، بغضب وددتُ من خلاله لو أكسر ذلك الكمان فوق رأس صاحبه الأسمر لكن سارة رأتنا فلوحت لنا بفرح..

تقدمت حنين وعانقتها بقوة تهنئها على معزوفتها وحان دوري،للحظة شعرت بالغيرة من أختي لمعانقتها هذا الملاك البشري فكيف يصح لها ما لا يصح لي، لماذا الدنيا ظالمة لهذا الحد!!! واكتفيت باحتضان كفها الدافئة بين أصابع يدي المرتعشتين

-مبارك لك...كنتِ رائعة الليلة.

-شكرًا سيد خالد سعدت بقدومك.

وأطلتُ النظر وسرحتُ فيها وبجمالها وكأني أتأمل لوحة زيتية جميلة المعالم دون حتى أن افكر بإطلاق سراح كفها الرقيق من بين يدي ؛ لتشعر هي بالخجل مني فتتورد وجنتاها بلون أحمر لا يزيدها إلا فتنة وجمالاً.، قرصتني حنين بخفة من ساعدي لأستيقظ حتى تنبهتُ وحررتُ كفها من يدي أخيرًا وقدمتُ لها باقة الزهور.

لكن حنقي تجاه عازف الكمان لم ينطفئ بعد،.خاصةً بعد أن عرفتني عليه وكأنه يهمني في شيء!!:

- إنه(علي) صديقي في المعهد.

قالتها ببراءة لكني رمقته بنظرة تحد وقلت:

– سننتظرك خارجًا لتعودي معنا فقد تأخر الوقت.

فقال علي:

– لا عليك سيد خالد سنعيدها بسيارة الفرقة.

استدرتُ ناحيته مجددًا قائلاً:

– لا تتعب نفسك، سارة ستعود معنا، أليس كذلك آنسة سارة.

نظرتُ إليها بعمق، وكأن كلمة الموافقة تعني خلاصي من جحيم مستعر فأومأت الأخيرة موافقة بتردد بعد أن طمأنتها حنين...

–هيا سارة... سننتظرك خارجًا.

وخرجنا نحو صالة الإنتظار حيث كان كمال يجلس هناك يرتشف فنجانًا من القهوة، ويحدق بحنين بغضب بطريقة لم أفهمها، تقدمنا منه وقلت:

– خلتك لن تأتي؟

– أنهيتُ عملي باكرًا لذلك وافيتكما إلى هنا وجلست بعيدًا لذلك لم تلمحاني

قالها وما زالت عيناه معلقتان بحنين التي تمسك بمعطفها بيد وتتعلق بي بيدها الأخرى، لم أفهم سببًا لنظراته الحادة التي شعرت بأنها تخترق حنين اختراقًا فلو كانتا نارًا لأحرقتاها دون رحمة، هل تشاجرا دون علمي؟ولم ينقذها من نظراته سوى سارة التي تقدمت منا.

– يسعدني أن أقول لك أنك كنت مذهلة أيتها الجميلة.

قالها كمال بلباقة ومد يده لمصافحتها لولا يدي التي أمسكت يده قائلاً:

– أريد محادثتك قليلا كمال...عن إذنكما للحظة.

ودفعته أمامي بقسوة.، وقفنا على مسافة لا بأس بها فابتسم كمال لإثارة غيظي، ثم قال ببرود:

– على رسلك خالد مابك؟

لكم أكره طريقته المستفزة لإثارة غيرتي، لا تعبث معي بهذه الطريقة أ فهمت؟.

ابتسم كمال بمكرٍ، وقال لتلطيف الأجواء على ما يبدو:

– حسنا إذن سيد عاشق لن أكررها، هيَّا الآن ليس من الائق أن ندعمها تنتظران.

*****

عاد الشابان حيث كانت الفتاتان تجلسان بانتظارهما، ثم توجه الجميع خارجًا فخاطبهم كمال:

– سنمشي قليلاً لأني ركنتُ السيارة بآخر الشارع نظرًا لامتلاء محيط المركز الثقافي.

ودفع خالد بخفة ناحية سارة وهمس له:

– هيَّا لا تكن جبانًا يا ابن عمي.

ثم استوقف حنين مخاطبًا إياها:

– أريد أن أحادثك قليلاً..عن إذنك آنسة سارة.

اضطربت سارة قليلاً بمشيتها تستنجد بحنين التي ابتسمت لها مطمئنة فهز خالد رأسه معترضًا على أساليب كمال الملتوية للحصول على ما يريد لكن آخر ما يفكر فيه الآن كمال وأساليبه ؛ لذلك سرعان ما تناساه وانشغل بسارة التي تسير

بجانبه بصمت، أما خلفهما مباشرة كانت كتلة النار المتأججة تمسك كف حنين وتضغط عليها بقوة، يقول خافضًا صوته لكن بحدة:

– قلتُ لك ألا تخلعي المعطف اللعين وإلا خلعتُ رأسك لماذا لم تنفذي ما قلته، هَّيا توقفي وارتديه حالاً.

نظرت إليه حنين بغضب، وقالت:

– ما شأنك بي ألا تلاحظ أنك تتدخل فيما لا يعنيك كمال.، لا تلعب معي دور العاشق أ فهمت؟...

– وماالذي تعنيه بحديثك!

– بوجود أخي لا سلطة لك علي أهذا واضح؟.

أفلتت كفها من قبضته وأسرعت الخطى فلحق بها قائلاً برقة أكبر هذه المرة:

– آسف...أنا آسف صغيرتي، لكن الفستان يضيق على جسدك كثيرًا.

شعرت حنين بالحرج من كلماته فتوقفت لبرهة ترتدي معطفها ثم شدته أكثر إلى جسدها وقالت له: أنا حرة فيما أرتديه إن كان أخي لم يمانع، وأغلق هذا الموضوع رجاءًا قبل أن أفقد صوابي.

لنترك الآن حنين ولننتقل إلى خالد الذي كان الآن بخلاف أخته، تكاد قدماه لا تلامسان الأرض، تمنى للحظة أن يمسك بها ويختطفها بعيدًا لكنه بالكاد استطاع السيطرة على يديه، وأخيرًا قرر أن ينطق بعد أن طال صمته، حدق فيها وبصوت عميق قال:

– لو كانت الحجارة تنطق.، أو المقاعد والستائر لقالت لك كم كنت فاتنة اليوم سارة.

أجفلتْ قليلاً من كلماته توقفتْ للحظة تحاول استيعاب ما قاله وشعرتْ بتوهج يغزو بشرتها البيضاء؛ فاعتصرت باقة الزهور بين يديها في حين أكمل كلماته

– أتملكين القليل من الوقت إن دعوتك لتناول العشاء بهذه المناسبة الجميلة.

تلكأتْ قليلاً تستنجد بحنين التي وعلى ما يبدو كانت ما تزال غاضبة من كمال فقال خالد:

– ما رأيكم بتناول العشاء.

وحدق بكمال نظرة ذات معنى ففهم الأخير مراده، وقال:

– مع الأسف لا أستطيع الآن اعتذر منكما، تقدمت حنين بتلقائية نحو خالد فأمسكها كمال من ذراعها قائلاً:

– سأوصل حنين بطريقي لا تشغل بالك بالهناء والشفاء.

وتجاوزهما وهو يجر ورائه حنين التي لاذت بالصمت.

وسارة التي رأت نفسها مجبرة على مرافقة خالد.

ابتعدا مسافة لا بأس بها، فأفلتت حنين يدها من كمال وصرخت به:

– من تظن نفسك لتنتشلني من أخي بهذا الشكل.

ابتسم كمال من غضبها الطفولي وقال بمكرٍ:

– بلهاء أنتِ! ألم تفهمي نظرات خالد بأن نتركهما قليلاً ؛ إنه معجب بها يا صغيرة.

– لا تنعتني بالصغيرة مجددًا.

ثم صمتت قليلاً وتابعت:

– كنتُ واثقة من أنه معجب بها، والآن هيَّا،أعدني إلى المنزل

أمسك بكفها مجددًا قائلاً:

– أ مجنون أنا لأفعل ذلك؟!

الفصل الثاني عشر

خالد

تجولنا قليلاً ثم ارتدنا إحدى المطاعم وما زالت سارة محرجة مني على ما يبدو وبصراحة أكثر لا أعلم كيف واتتني الجرأة لدعوتها لكن المرء لا يقابل الفتاة المناسبة كل يوم ؛ لذلك قررتُ أن أضع النقاط على الحروف، أردت أن أريحها قليلاً وأخفف من ارتباكها فاختلقتُ حواراتي معها وتشعبتُ لحين انتهائنا من تناول طعام العشاء.

كانت جميلة، ذكية، وطموحة، وهذا ما كنت أريده بالضبط، أنهينا وجبتينا وكان تفكيري مشتتًا بكيفية مصارحتها بمشاعري التي صارعتها طويلاً، لكن عبثًا فالحب الحقيقي عندما يقتحم حياتك لا بد من الرضوخ إليه، بعيدًا عن حالتك المادية، بعيدًا عن مشاكلك التي قد تغرقك، لا بد وأن تستمع لنداء قلبك، تعلقت عيناي بها مجددًا، وكأنها مشعوذة تلقي بتعاويذها علي فلا أبرح أحيد ببصري حتى أعود مشدوهًا مرة أخرى لجمالها الأخاذ ؛ صرتُ أنقر على الطاولة بأصابع يديي ثم أوقفتهم.، تحركت يدي الأخرى تمسك بكأس ماء ارتشف منه رشفة ثم قلت أخيرًا:

- بطبيعتي لا أحب المراوغة ما أريده أطلبه ببساطة هذا ما اعتدته طوال حياتي، لذلك أتمنى أن تستمعي إليَّ حتى النهاية..

تفضل سيد خالد:

– وأتمنى ألا تنعتيني بالسيد....اسمي خالد.

أومأت لي بابتسامة خجولة مما شجعني على الإستمرار.

عاودتُ ارتشاف الماء من كأسي مجددًا، وكأن ما أود قوله لها سر من أسرار الدولة العليا.

– أظن أني...معجب بك.

أطرقتْ رأسها إلى الأسفل بتوتر ولم تجبني بشيء.

– لربما فاتت السنين وطالت دون أن أسمح لهذا الشعور بأن يتسلل إلى قلبي، لكنه معك...اقتحمني اقتحامًا.

طال صمتنا مجددًا دون أن تتفوه سارة بكلمة واحدة، فاقترحت:

– ما رأيك أن نمشي قليلاً.

وكأني قد خلصتها من عذاب نظراتي التي تذيبها خجلاً في كل مرة أنظر إليها فنهضت فورًا موافقة وتقدمنا خارجين من باب المطعم.، رغم برودة الجو إلا أني كنتُ أشعر بدفء جميل يغزو كياني وقلبي، أما هي فتمشي صامتة بتأنٍ وخجل

– لم أسمع رأيك سارة.

سألتها ونحن نمشي تحت ضوء القمر على رصيف مرصوف بحجارة سوداء بين صفين من أشجار السرو العملاقة المتشابكة من فوقنا بحب، بهذا الشارع الفرعي الذي قلت أعداد سيارته، فاكتفت سارة بابتسامة عذبة أزاحت عن كاهلي خوفًا كان يتملك فؤادي من رفضها.

– سارة..هناك شيء آخر.

قلتها بجدية فالتفتت إليَّ مصغية لما أود إخبارها به ؛ فأكملت بعد أن توقفنا لبرهة:

- أريد أن تكون علاقتي بك شرعية، لست مراهقًا لنتواعد بعيدًا عن أعين أهلك فلا أريد لأحدٍ أن يتكلم عنك بسوء.

لحظة مرت لأرى ابتسامتها تزداد ثم تتلاشى ليحل محلها الصدمة:

خالد...أتقصد...أن.

فقاطعتها مستطردًا:

- أريد أن نقيم حفلة خِطبة بسيطة مبدئيًا وهذه الفترة ستكون لنتعارف أكثر رغم أني موقن من إختياري لكن هذا من حقك بالنهاية، أنت تعرفين أهلي...وحنين صديقتك لكني أريدك أن تتعرفي إليَّ عن قرب ودون خوف من أحد

عبثتْ بأصابعها قليلاً بتلك الوريدات الحمراء، ثم همست:

- هل لي أن أفكر بكل شيء قد قلته لي وأعطيك الجواب لاحقًا.
- أنا تحت أمرك خذي الوقت الذي ترغبين فيه لكن، ألن تعطيني رقم هاتفك عوضًا عن رقم هاتفكم الأرضي فلن أغازلك على مسمع من أهلك.

ضحكتْ هي من كلماتي بقوة وبلحظة احتضنتُ كفها الدافئ بين أصابع يدي وهمستُ:

- أحبك آنستي.

*****

حنين

في السيارة كنت مع كمال بعد أن قرر اختطافي، وكم كنت أشتاق للخروج من معتزلي في المنزل، لكم اشتقتُ إلى شوارع الشام ليلاً، لأبواق السيارت، لكم اشتقتُ لرياح الليل الباردة التي تؤدي مع شعري رقصة التانغو فتحرره بحرية ليتراقص فوق كتفي، وعلى أنغام موسيقى كلاسيكية بهذا السكون انطلق بي كمال بسيارته بعيدًا على الطريق الرئيسي صار يقود مسرعًا، قلبي يختلج تارة ويهدأ تارة أخرى فأضحك مكسرة كل الحواجز التي صنعتها واحدًا تلو الآخر...

تحولت الموسيقى الكلاسيكية فجأة لموسيقى صاخبة مجنونة وزاد من سرعته حتى وصلنا قاسيون، الجبل العظيم الذي يحتضن دمشق كعاشق يحمي حبيبته، بالأسفل منحدر عميق جدًا وكأن ليس لنهايته حدود وبعدها في البعيد تتوزع أضواء منازل الشام وشوارعها لتزيد المنظر جمالاً، ركن سيارته بجانب الطريق وترجل منها وترجلتُ ورائه، استند بيديه على حافة الجسر الحجرية، تقدمتُ منه ونظرتُ إلى الأسفل فشعرتُ بخوف وقشعريرة انتابت جسدي وتراجعتُ خطوتين إلى الوراء كرد فعل تلقائي لكنه أمسك بي ومنعني عن الابتعاد.

– أغمضي عينيك صغيرتي.

قالها لي بثقة فطاوعته باستسلام، شعرتُ بيديه تحاوطان خصري وبلحظة واحدة صرتُ فوق الحافة الحجرية!!

فتحتُ عيناي على اتساعهما، كدتُ أصرخ لكن الرعب ألجم لساني ومنعني عن النطق صعد بجانبي، وقال:

– لا تخافي و أنا معك...

تشبثتُ بيديه أرجوه أن ننزل فلا حاجة لجنونه الآن:

– أرجوك.كمال... خائفة

فهتف بي بصوت عالٍ:

– أنا أريدك أن تخافي....إصرخي حنين...أخرجي كل الخوف الذي بداخلك وارميه نحو الأسفل...إرميه وتحرري من قيودك وأغلالك.

الرياح تضرب شعري بقوة وكأنها تلاكمني وضربات قلبي تقرع طبول الحرب التي سأشنها على نفسي ومخاوفي... أمسكني من كتفي بعدها وصار يهزني وهو يصرخ بي وصوته يدوي بهذا السكون الذي يحيط بنا:–اصرخي يا قبيحة.. حرري حنجرتك يا مشوهة

حدقتُ به بصدمة.... كلماته كانت كالسكين تمزقني شعرتُ بغضبٍ اجتاح كياني وإنطلقتْ الدموع من عيناي كسيلٍ جارف جرف معه آلامي وأحزاني ؛ شعرت أن التشوه بدأ بالتساقط عن وجهي شيئًا فشيئًا أمامه ليموت أسفل هذا الجبل، بلحظة تحررتُ من يديه، دفعته ورفعتُ يداي عاليًا وصرختُ،صرختُ بقوة وعنف صرخة زلزلتْ كياني، صرخة أخرجتْ كل بقايا الألم التي أستعمرتْ بداخلي لسنواتٍ وهو يمسك بخصري بعد أن هبط على الشارع تاركًا إياي أقف وحيدة على العارضة الحجرية فصار يقول مشجعًا:

– اصرخي صغيرتي....اصرخي عاليًا ولا تأبهي بأحد.

لربما طال صراخي واشتعلت نيرانه ولم أهمدها إلا حينما كفت حنجرتي عن إطلاق المزيد صرتُ ألهث بقوة حتى لم يتبقى لي صوت أصرخ به نظرتُ حولي إلى الأفق ؛ رفعتُ بصري إلى السماء أناجي الله سبحانه، صدري راح يعلو ويهبط، تقطعتْ أنفاسي وشعرتُ بتخدير في أطرافي لشدة البرد، واستدرتُ إليه أخيرًا... انزلقتُ بين يديه إلى الشارع ووضعتُ يدي على فمي مانعة صرخة أخرى من الخروج.

اكتفيتُ بالدموع، بحركة واحدة عقد شعري إلى الخلف ليظهر وجهي كاملاً.لم اعترض، لم أمنعه، لم أفعل أي شيء سوى الاستسلام له، استندتُ برأسي على كتفه وهمستُ بصوت متحشرج بالكاد سمعته أنا:

- شكرًا...لكل ماقدمته لي

أمسك وجهي بكلتا يديه وأبعده قليلاً قائلاً:

- الشكر الحقيقي سيكون عندما نسافر إلى أميركا في الشهر المقبل لإجراء العملية لك، لقد جهزتُ لكل شيء.
- نظرتُ بصدمة إليه...أخرسني حديثه...بعثرتني كلماته التي ألقاها على مسامعي.

كمال!

نطقتها بخوف...بصدمة...بفرح...بحزن... بألم بروح ميتة وهي على قيد الحياة، نطقتها بصوت مختنق يريد أن يعيش.كل مشاعري هذه اللحظة لم أعرف ماهيتها فقد كانت مشوشة مضطربة فقطع كل أفكاري مكملاً:

- كنت أنتظر أن تتجاوبي..أن تتخلصي من خوفك..

الخروج..مقابلة الناس.... النظر عبرالمرآة... ارتداء الألوان... تقبل الألعاب من جديد...إظهار وجهك دون خوف من أحد... الإعتذار عند الخطأ....كنتُ أريدك قوية...أريد حنين...حبيبتي الصغيرة المغرورة وهاقد عادت حنين لما كانت عليه.

احتضنته بقوة وتشبثتُ به، دفنتُ رأسي بصدره حتى خارتْ قواي...لم أعد استطيع تحمل المزيد من المفاجآت ركعتُ على الأرض فجلس بجانبي..همستُ له بإنهاك:

(كمال أنت ملاك)

*****

عامر

دائمًا ما تكون مفاجآت المستقبل مخيفة، سواء أكانت مبهجة أم مبكية، يبقى الغامض مرعبًا، ما يخبئه لك المستقبل سوف ترضخ له ؛ لأنه القدر وما من مهرب منه، قد تحاول تغيير الحاضر ومحو آثار الماضي، أما المستقبل فلا تملك إلا انتظاره ليأتي إليك، وهاأنذا أسير نحو مستقبل غامض أقتحم خلوته دون إدراك العواقب بعد انشغالي لمدة ثلاث أسابيع تقريبًا، سافرت فيهم خارج دمشق في معسكر تدريبي تلقيت اتصالاً من خالد يدعوني لحفل خطبته، و كانت الدعوة موجهة لجميع أفراد العائلة وعندما أقصد بالجميع أي أن أمي وريم ستكونان برفقتي حتمًا، وهل هنالك أعظم من ذلك الفرح الذي سيتوج برؤياها ومحادثتها؟؟ فكرت بهذا طيلة طريق عودتي...

آه نسيتُ أن أقول أني استطعتُ شراء سيارة أخيرًا، بعد إدخاري المبلغ المطلوب لذلك، صحيح أنها مستعملة لكن المهم في الموضوع أنها تسير، فلست من هواة التبختر والمباهاة في الأموال واعدتُ خالد في المقهى المعتاد صباحًا وكنت ارتدي ملابس الدفاع المدني فلم أجد وقتًا لتغيير ملابسي بسبب انشغالي، سلمني كارت الدعوة ولكم كان سعيدًا، وكأنه يحلق عاليا في السماء.

– هل الحب جميل يا صديقي؟

سألته بجدية فحدق بي هنيهة بصدمة، معه كل الحق فلم يتوقع أن يسأل شاب بعمري عن الحب ليس من المعقول أن لا أكون قد جربته وعشته لكنني ببساطة كذلك،لا أعرفه أبدًا ضحكتُ على سذاجتي وقلتُ له:

– انس...

ولكنه قال: بيومٍ ما ستجربه بنفسك حينها أنت ستخبريني إن كان جميلاً.

ولكم كنت أتمنى أن يكون هذا اليوم قريبًا مني ولم أتوقع أنه على بعد خطوات وشارع فقط من مقابلتي لخالد.

حينها أتاه اتصال ومن طريقة حديثه أدركت أنها مخطوبته وسيوافيها عند نقطة معينة، فاقترحت عليه أن أوصله خير له من أن يمشي...

ولو كنتُ مدرك لما أنا مقدم عليه، لهرولت هربًا دون تردد.

استقليتُ السيارة وصعد بجانبي وهنأني عليها ثم انطلقتُ نحو المنطقة المنشودة وكانت هنالك فتاتان: إحداهما ذات شعر أشقر ذهبي والأخرى تدير ظهرها نحو إحدى المحال التجارية لكن شعرها الغجري الطويل ينسدل على ظهرها وكأنني عرفت صاحبة هذا الشعر الذي لا ينسى بسهولة، تقدمت بالسيارة أكثر حتى قال

لي قف هنا، وتوقفتُ أمامهما وترجلتُ معه لإلقاء السلام،.بلحظة استدارت تلك الفتاة ذات الوجه المشوه المكشوف للملأ دون خوف، ورأيت التشوه، الحرق الذي يغطي منتصف الوجه، جزء من عنقها.يا إله السموات!!!، ارتعدت أوصالي، لا إراديًا جالت تلك الصور التي كنت أتأملها ليلا لهذه الفتاة، الفرق واضح، مخيف، مرعب، بل الفارق قاتل بين الملاك الذي أحلم به وبين الواقع.–حنين!!! نطقت الاسم بغير وعي مني فأجفلت تنظر إلي وكأن صدمتها لا تقل عن صدمتي لرؤيتها ها هنا، أمسكتْ صدغها تفركه بتوتر ضيقتْ عيناها أكثر على ملابسي، على ذقني التي استطالت قليلاً طيلة الأسابيع التي لم أحلقها بها، على بذلة الدفاع المدني التي لم استطع تغييرها نظرًا لضيق الوقت،.فجاة دوى صوت المدفعية من بعيد و رأيتها بلحظة تنزلق على الأرض بغير حراك، هل تخاف لمجرد صوت؟ ركض خالد نحوها يحملها بين ذراعيه بخوف على أخته الصغيرة والفتاة الأخرى تصرخ بفزع، فجلجل صوتي –ضعها في السيارة حالاً...مددها على المقعد الخلفي وجلست مخطوبته بجانبها وهو بجانبي، أما أنا فانطلقت بسرعة نحو المستشفى التي يعمل بها ضياء وصلنا المستشفى وتوجهنا مباشرة نحو قسم الاسعاف اتصلت بضياء فظهر مسرعًا يستقبلنا..

– حالة إغماء تصرف بسرعة.، وقف لحظة يقلب بصره بيننا نحن الثلاثة حتى شرع بإنعاش حنين بعد مدة من الزمن تم نقلها إلى غرفة وتبين أن حالتها صدمة عصبية حادة..

لم أفهم لماذا الآن؟!! ومالذي جرى لدى رؤيتها لي؟ أو للصوت أثر؟ لم أفهم، لم أستوعب مالذي جرى، حدق بي خالد يريد توضيحًا لا أعرف كيف أفسره

له.رفعتً يدي وهززت رأسي باستسلام لأني صدقًا لم افهم مالذي حصل.، بعد ساعة تقريبًا حينما كنا جالسين على المقعد أمام باب غرفتها تقدم أحدهم كالمجنون يركض..رآى خالد فصرخ به متمسكا بياقته:

- أين هي؟.
- اهدأ كمال إنها نائمة الآن،.

لكنه لم يهدأ بل اقتحم الغرفة التي خلفه اقتحامًا وجثا بقربها، صار يمسح على شعرها بلطف شديد،.يقبل يديها وكأنها طفلته الصغيرة، قبلها من جبهتها بحنو بالغ لكن! كيف يجرؤ؟ من أعطاه الحق بلمسها بهذه الطريقة، وسط نظرات أخيها التي تقبلت الموقف ببساطة هكذا! قلت بصوت مختنق:

- من هذا؟؟
- ابن عمي، وأكمل يقول (خطيبها).

اعتصرتُ قبضة يدي بقسوة لم أفهمها، شعرتُ أن جزءًا من روحي قد احترق بهذه اللحظة،.جلستُ على الكرسي منعقد اللسان، متزلزل الكيان فاقد البصر والبصيرة بآنٍ واحدٍ، خرج كمال مجددًا، كاد أن يخاطب خالد لكن بصره وقع عليَّ هذه المرة.، حدق بي بصدمة ثم بحنق واضح، تقدم مني ممسكًا بياقة البذلة وصار يصرخ ؛ فوقفتُ بمواجهته دون أن أتكلم..

- ما الذي تفعله هنا يا هذا؟.

لم اتمالك نفسي وشعرت كأنه الشيطان يتجسد بكمال دفعته عني بقوة وقلتُ بصوتٍ حادٍ:

- إياك أن تمسني كمال.

تساءل خالد وهو لا يفهم شيئا:

- أتعرفان بعضكما!

كاد يتقدم نحوي مرة أخرى وهو يكلم خالد:

- هذا القذر يحاول أن....

لكنه صمت عندما صاح ضياء به وهو يتقدم من آخر الرواق.

- كمال اصمت الآن.

لكن كمال هتف به مهددًا:

- لا تتدخل ضياء بهذه المسألة، أ فهمت؟؟.

لكن ضياء سحبه بقسوة من أمامي وهو يهتف:

- أبقيا مسائلكما الشخصية خارج حدود هذا المستشفى!!! وسط نظرات خالد الذاهلة ومعه كل الحق فيبدو أننا جميعًا نشترك بكذبة وضيعة هو الوحيد ضحيتها، غادر كمال مجبرًا مع ضياء لكن نظراته الحانقة لم تخف على أحد، فما كان مني إلا الخروج من أمام خالد ومخطوبته الذيْن لم يفهما شيئًا حتى الآن، وهربتُ قبل أن يسألني، ولم يكن لي سوى الذهاب إلى مقهى المستشفى أجلس فيه لأهدئ أعصابي التي انهارت اليوم ولأفكر بما سأفعل.

*****

الحنين

هل ما رأيته كان حقيقيًا أم أنه الماضي يقتحمني مجددًا، تذكرته الآن...وجهه.. جبهته العريضة، ذقنه الكثيف...بذلته. إنه هو...أنا متأكدة!!قذيفة أصابت

المنزل، كنت غارقة وسط النيران...صوته يناديني وأنا أستنجد به..محاطة بنيران حارقة تلتهم جسدي..خائفة من لونها، متألمة من حرارتها التي تلسعني دون رحمة.حتى أقبل ذلك الرجل...بخوذته الامعة...بذلته التي عكست لون النيران عرفتُ طريقي وركضتُ نحوه، حاوطني بذراعه لينقذني فتشبثتُ به، حملني بين ذراعيه فتعلقتُ به، بقوة آبية مفارقته وكأنه الخلاص...وكأنه ضوء السلام الذي انبثق فجأة ليبدد العتمة والخوف الذين غرقتُ بهما،.ذاكرتي مشوشة أفكاري تتلاطمها النيران، وأئن من الألم وهو يقف أمام باب الغرفة في المستشفى يكلم الطبيب ويسأله عن حالتي.

يقترب مني رويدًا رويدًا ينحني و ينظر إليَّ بألم فأبادله نظرة ضعف وعجز، .أرى دمعة مختنقة في عينيه يقول فيها: ليكن الله في عونك يا قطعة السكر،يتمتم ظنًا منه أني لا أسمع...أني مغيبة عن العالم لا أرى...لكني أراه وأسمعه...أشعر بيده تمسح على شعري قبل أن يغادر لتظلم الدنيا في عيناي من جديد،ولم أره بعدها....

*****

فتحتُ عيناي وكنتُ غارقة في العرق، صرتُ أرتجف من البرد...أو من الخوف لا أدري وتلفتُ حولي..نفس المشهد يتكرر معي لأضواء البيضاء القوية فوق عيناي، المحلول الوريدي يتصل بساعدي، أصوات منتظمة تنبثق من أجهزة بجانبي لم أستطع تمييزها وأنا وحيدة هنا وخائفة..هل احترقت مرة أخرى؟ لا يا إلهي لن أتحمل عذابًا آخر.

أطلقتُ صرخة خافتة خائفة أستنجد فيها بأي أحد فركض نحوي أحدهم من الباب،لحظات حتى أتضحت معالمه..

إنه خالد،.صرختُ باسمه وحاولت الاعتدال بجلستي وعانقته بحرارة وصرتُ أبكي. –شش لا تخافي صغيرتي...أنا معك..لاتخافي، واستكنتُ بين يديه لبعض الوقت، تقدمتْ مني سارة ابتسمتْ لي وجلستْ بجانبي هي الأخرى وطلبتْ من خالد الرحيل لتساعدني على ترتيب لباس المستشفى ليغطي جسدي بإحكام..وقف وأومأ لها بتفهم وخرج مغلقًا الباب، أما أنا أمسكتُ بيد سارة وقلت بصوت مرتجف:.

– إنه هو، لقد تذكرته الآن،

قالت لي بقلق:

– من هو حبيبتي هل آذاكي بيوم ما؟ أخبريني لأساعدك.

هززتُ رأسي نفيًا وأنا أبكي، صارت تطبطب علي وتواسيني لكني مسحت دموعي وخاطبتها:

– دثريني جيدًا ونادي على خالد بعد إذنك.

– لماذا؟؟ أتريدين شيئًا أجلبه لك.

هززتُ رأسي نفيًا وأعدتُ مطلبي:

– أريد خالد رجاءًا.

– حاضر.سأستدعيه لك.

واختفتْ وراء الباب لتعود مع خالد الذي قال بقلق:

– هل أصبحت أفضل حالاً عزيزتي.

أومأتُ له بإيجاب وأنا أمسح دموعي ثم قلت له:

- أريد رؤية صديقك إن كنت لا تمانع هل ما يزال موجودًا.

حدق بي بصدمة وكأنه لم يستوعب ما قلته لتوي:

- تريدين رؤية من تقصدين كمال أليس كذلك؟
- لا..لا...أريد رؤية صديقك..عامر أليس هذا هو اسمه.
- حنين هل فعل لك ذلك الرجل شيئًا قولي واقسم بالله لأحطمن عظامه.
- لا...لا أخي أقسم أنه لم يؤذني بشيء أبدًا على العكس، سأخبرك بكل شيء لكن رجاءًا بعد أن أقابله.

تنهد خالد وأومأ لي ثم اخرج هاتفه وأجرى اتصالاً مع عامر ليتوجه إلى غرفتي بهذه اللحظة كان كمال يدخل من الباب ويتقدم نحوي:

- حمدًا لله على سلامتك حبيبتي هل أنت بخير؟،

احتضن كفي بين يديه وقبلها فأومأت له مطمئنة،.لكنه لم يفلت يدي بل تابع:

- لقد قلقتُ عليك كثيرًا، ما الأمر مالذي جرى معك قولي ما الذي أرعبك بهذا الشكل!

لم استطع الحديث إلا و دخل عامر من الباب بوجه مكفهر وحدق بنا نحن الأربعة وما إن رآه كمال حتى انتفض بغضب.

- من تظن نفسك أيها الوقح لاقتحام غرفتها بهذا الشكل.!
- كمال....أنا من طلبتُ منه اهدأ.

قلتها بإصرار وسط ذهوله:

- حنين!أي حماقة هذه؟

- أريد مقابلته رجاءًا.
- لن أسمح له بمقابلتك أهذا واضح.
- كمال رجاءًا أريد أن أحادثه، ولوحدنا إخرج الآن فلا قدرة لي على الجدال.

كان يهز رأسه معترضًا لكن خالد طلب منه الخروج حتى استسلم أخيرًا وخرج الثلاثة.، عند مرور كمال بجانب عامر قام بضرب الباب بقوة بقبضة يده وهدده: معك خمس دقائق فقط أيها الحقير وبعدها أنا سأرميك خارجًا.

*****

منذ ثلاث أسابيع مضت:

ليلتها أعادني كمال إلى المنزل وكانت الساعة قد تجاوزت العاشرة والنصف ليلاً، ركن سيارته ونظر إليَّ، أمسك بكفي ثم قال بلطف:

- شهر واحد فقط وستكونين حنين أخرى...قوية...جميلة..و الأهم من هذا كله ستكونين زوجتي.

حدقت به بصدمة ؛ سحبتُ يدي منه بهدوء وهممتُ بالنزول لكنه نزل مباشرة بعدي وتقدم مني قائلاً بعتاب:

- ألا تريدين أن نتزوج حنين ألم يحن الوقت بعد لتشعري بي وبما اعانيه بسببك، أنتِ تعرفين ومنذ وقت طويل جدًا أنك لن تكوني إلا لي، لن أسمح لك من أن تضيعي مجددًا فلا تصعبي الأمور على كلينا؟

اطرقتُ رأسي على الأرض ولم أعرف بما أجيبه، هل أقول أني لا أريدك؟؟...أني لا أحبك على الرغم من أني أحتاجك بجانبي لمساعدتي، لمساندتي ولإجراء

العملية التي طالما حلمت بها ولا أحد قادر على مساعدتي فيها نظرًا لارتفاع المبلغ المطلوب!!

تفكير حقير أليس كذلك؟ أمسك كمال بيدي مجددًا ورفع رأسي بأنامله يتسائل:

- ما بك حنين أخبريني، أفصحي عما بداخلك، أريد أن أعرف شعورك ناحيتي رجاءًا لقد أرهقني التفكير بك وبماضينا وحاضرنا والخوف من مستقبلنا.

رن هاتف كمال فإذا به خالد لربما يتصل به للمرة الخامسة يتسائل أين نحن فزفر كمال بضيق وأجابه:

- لقد وصلنا الآن أيها اللحوح....إننا تحت العمارة.

أغلق الخط وقال باستهزاء:

- يظن أنني سأختطفك.

ابتسمت له، فزفر بهدوء و قرصني من وجنتي وهمس:

- حسنًا صغيرتي لا تفكري بأي شيء الآن سوى بالعملية، وهيا نصعد قبل أن يهبط الوحش إلينا.

وما إن طرقنا الباب وفتحه خالد حتى هتف بكمال:

- إستأمنتك على أختي لتوصلها فهربت بها إلى قاسيون أيها الوقح، ادخل الآن وحسابك لاحقًا سيكون عسيرًا.

ودخل كمال إلى الصالة وهربتُ أنا إلى غرفتي وارتميتُ على السرير من فوري...أفكر بكلماته شهر واحد فقط..سأعود جميلة لربما أكثر من السابق لكن الثمن سيكون غاليًا...حريتي،.نهضتُ واتجهتُ ناحية المكتبة واخترت كتابًا أقرأ

فيه جلستُ على السرير مجددًا وقلبتُ صفحاته بيدي لكن لم أفقه حرفًا، كنت أنا بين صفحاته.. بكل صفحة كنت أرى نفسي، حنين أخرى...جذابة... جميلة ترتدي ما تشاء وتخرج متى تشاء وتقابل من تشاء،.لكنها بصفحة من صفحات الكتاب كانت عروس ترتدي فستانا أبيض جميل جدًا، تتبرج بشكل جميل جدًا وبجانبها كمال! شهقت و أغلقت الكتاب بعنف ورميته على الأرض وصرخت..– لا..لا استطيع. بهذه اللحظة فتح الباب ودلف خالد إلى غرفتي يبدو أن كمال أخبره وأبي عن العملية وأقنعهما بطريقة ما أن نتزوج كي أستطيع السفر معه إلى أمريكا بصفة شرعية ؛ لأنني سأكون معه هناك بمفردي وأبي وافق ببساطة لربما سئم مني ومن وضعي الحالي ويريد أن يريح نفسه من العبء الملقى على كاهله ومعه كل الحق..قال خالد أخيرًا:

– فكري بالأمر مليًا عزيزتي...وخذي وقتك تعلمين أني كنت أجمع لك النقود لإجراء العملية لكنها للآن لم تصل لنصف المبلغ المطلوب هذا غيرالفيزا ومسائل السفر والمستشفى المناسب وما يترتب عليها من أمور،أما كمال فجاهز وعنده الإمكانية المادية لذلك ويحمل الجنسية الأمريكية وبذلك يكون ذهابك معه أسهل الكرة الآن بملعبك حنين ولا يتطلب منك الأمر سوى عقد القران، وإن لم ترغبي به بإمكانك انتظاري حتى استكمل لك مبلغ السفر وليعيننا الله على ذلك لكن المهم أن تتأكدي أني سأكون سعيدًا بخيارك مهما كان فالمهم عندي سعادتك حبيبتي.

هززت له برأسي وقلت:

- سافكر بالأمر.

وكم كان الأمر صعبًا مخيفًا بالنسبة لي، لكنني بالنهاية وافقت وخاصة بعد أن عرفت أن خالد قد طلب يد سارة للزواج ويحتاج للمبلغ، حان الوقت لكي أريحهم فعلاً وأزيح عن كاهلهم عبء معاناتي وكذا فعلت، وجاءت زوجة عمي التي لم ترغب بي حتى زوجة لابنها، جاءت لخطبتي بوجه مكفهر طيلة الوقت دليل على شجار طويل مع كمال، ودليلاً على رفضها لسببين.: الأول لما فعلته به سابقًا، والآخر لأني مشوهة قبيحة أستغله لإجراء العملية من وجهة نظرها ومن وجهة نظر الواقع أيضًا. خطبتي كانت في اليوم التالي مباشرة والحضور الوحيد كان عائلة سارة فقط بما أنها ستصبح عروس أخي لم أرغب في استقبال أحد ؛لأني لا اعتبر نفسي عروسًا فهل يوجد عروس لا تستطيع التبرج غيري؟.!! هل يوجد عروس ترتدي بخطبتها فستانًا يغطي الرقبة غيري؟ هل يوجد عروس تتزوج بطريقة استغلالية غيري؟ عقد النكاح مقابل عملية تجميلية، وها أنذا وافقت، وها هو كمال الآن يقبلني أمام الجميع دون خجل، ولما الخجل وقد أصبحت حلالاً له، لكن ظللت أتساءل: ألم يشعر بالقرف من تقبيله وجنتي المشوهة؟! حينها اغمضت عيني بقوة وشعرت بمدى صلابته وقوته،.فهل هو أعمى؟ أم الحب الذي سيطر عليه تجاهي منذ سنوات جعله أعمى البصر متغاضيًا عن قبح وجهي وجسدي؟ مساءًا خرجتُ معه للإحتفال بمفردنا،كان قد زين لي سطح منزلهم بطريقة جميلة جدًا وكأنني بحلم، تتراقص الشموع على الطاولة وفوقي القمر يبتسم باستهزاء والورود الحمراء تحيط بنا وتتبعثر أوراقها كذلك على الأرض،

وبرودة الجو تلفح جسدي وكمال يراقبني بصمت من بعيد وأنا أراقب كل شيء إلا هو.

شغَّل موسيقى هادئة وتقدم نحوي، مد يده وراقصني على أنغامها، لكن وجهه كان تعيسًا، لربما أكثر من تعاستي،.يراقصني وهو متفرس بملامح البؤس المرتسمة على وجهي، أو ربما قد شعر بالندم! وبعد صمت طال انسابت الكلمات بتلقائية من شفتيه:

- أعرف أنك لست لي، ولن تكوني بيوم لي، لست غبيًا لأتجاهل حزنك يوم فرحنا، لكني لا أستطيع الابتعاد عنك، على الأقل مبدئيًا لحين عودة حنين السابقة.

دمعتْ عيناه بصدق، فذرفتُ دمعتي معه، كان محقًا والذي يسحقني معرفته بأني لا أحبه ومع ذلك بقي متمسكًا بي، أردف:

- بعد العملية أنتِ من سيقرر الاستمرار بهذه الكذبة أم إنهائها أ تعرفين من الأناني بهذه اللحظة لا أعرف أهو أنا، أم أنت، أم هذه الدنيا التي وضعتنا بهذا الموقف الصعب؟؟؟

ثم استدار ناحية السور وتمسك به بعنف قائلاً:

- في أمريكا عند معرفتي خبر خطبتك أعتبرتك ميتة، قتلتك بمخيلتي مئات المرات طعنتك، ذبحتك، وحرقتك، كنت أتخيل نفسي أمسك النار وأجعلها تلتهمك بعنف ودون رحمة،. وكنت أضحك بانتصار حينها،.ومرات كنت أتمنى أن أعود لأقتل ذلك الوغد الذي تجرأ على سلبك مني ولكي أراك تركعين تحت قدمي للصفح عنه ولمسامحتك.

لكني رجعتُ وعرفتُ ما الذي جرى لك وبك، وكيف أخفوا عني هذا الأمر طيلة السنوات الماضية بهذه اللحظة اعتبرتُ نفسي مسؤولاً عما حصل وكأن الله قد سمع مناجاتي بأن يبعد فؤاد عنك بأية طريقة، لكني لم أستطع تخيل أن هذه الطريقة ستكون بهذه القسوة لصغيرتي الحبيبة جلستُ حينها على الأرض أستمع إليه وأذرف الدموع....كنتُ فيما مضى ذات كبرياء وغرور حطمته وكنتُ أعرف مقدار حبه لي ؛ دهستُ بقوة على قلبه وأكملتُ حياتي دون احتساب النتائج، وهاهو الله سبحانه فعلاً قد عاقبني على فعلتي تجاهه، أبعدني عن فؤاد بطريقة لم أكن لأتخيلها أبدًا، استدار كمال ناحيتي أخيرًا، تقدم مني وانحنى تجاهي بعد أن تمالك نفسه ومسح الدموع التي قررت أن تشاركني عذابي:

- بالمناسبة سأنتظر أن نسافر معًا ؛ لنرحل بعيدًا عن الجميع، سأشكلك على يدي من جديد حتى لو على حساب كبريائي مرة أخرى...المهم عندي سعادتك فقط.

رفعتُ وجهي تجاهه....كان القمر خلفه مباشرة...يحاوطه فأصبح كملاك بكل معنى الكلمة فقلتُ له مجددًا: (كمال أنت ملاك) فابتسم لي وانتشلني معه من على الأرضية وتابع مراقصتي تحت ضوء القمر من جديد، وقال:

- حاولي أن تبدأي صفحة جديدة...وأعطي نفسك فرصة لتعجبي بي على أقل تقدير...أتعلمين لما قلت أن تعجبي فقط ؛لأنها أولى مراحل الحب، أما أنا، فما بقلبي تجاهك هو قد تعدى الهيام و الغرام، تعدى النجوى وتجاوز الشوق و الهوى و الصبا، الوجد و الشغف، كلها تسميات قد

اجتزتها وعرفتها وعانيت آلامها بسببك، لكنها آلام جميلة ؛ لأن صاحبتها حنين

*****

الفصل الثالث عشر

ونعود للحاضر مرة أخرى....

لم يعط عامر بالاً لكمال الواقف خلف الباب كوحش ثائر بل أغلق الباب وتعلقت عيناه بي، كان يبدو حزينًا... مهمومًا...تعيسًا.شعرتُ به رغم أني لا أعرفه ولم أقابله سوى مرتبن فقط طبعًا عدا المرة التي قابلته فيها وقت الحريق.تقدم عامر بخطى بطيئة وكأنه يريد الهروب فقط.

– أنا أسفة لما قاله كمال لك.

قلتها بتردد ولا أعرف أصلاً تلك الجرأة التي انتابتني لاستدعائه الآن.

جلس على الكرسي مواجهًا لي وبعد صمت مطبق قال:

– لقد...تذكرتي الآن من أكون أليس كذلك؟!!.

هززتُ له رأسي بإيجاب ثم قلتُ:

– اللباس، الخوذة ثم صوت المدفعية، أثاروا بقلبي ذكريات الحادث.

وأشرتُ إلى لباسه فابتسم بزاوية فمه قائلاً:

– أشهد بمدى شجاعتك...لقد أقدمتِ على عمل لم أجرؤ أنا على القيام به.

سألته باهتمام:

– أي عمل؟

لكنه أشاح بوجهه عني قائلا:

– إنسي....لا يهم.

كان عامر الوحيد الذي شهد عذابي وخوفي في ذلك اليوم، شعر بما أعانيه، هو الوحيد الذي شاركني معاناتي، وخلصني منها ذلك اليوم، صرتُ أبكي مجددًا و أمسك بغطاء السرير بقوة بأصابعي أحاول محو تلك الذكرى.

– لا...آنستي لا تبكي أرجوك.

قالها لي بارتباك فأجبته:

– لا عليك أنا بخير..

قلتها وأنا أمسح دموعي بيدي ثم أطرقتُ رأسي إلى الأسفل أحدثه:

– كنتُ أود أن أشكرك فقط على...على إنقاذ حياتي..كانت تجربة بشعة جدًا..مخيفة...عشتها وخرجتُ منها بفضلك.

تردد كثيرًا قبل أن يمسك بكفي بين يديه لتهدئتي رفعتُ بصري إليه ببطء فطبطب على يدي ثم قال برزانة:

– إنه واجبي...عملي يقتضي مساعدة الناس، الفضل كله يعود لله سبحانه هو من كتب لك النجاة في ذلك اليوم.

كانت يده دافئة لكني شعرت بارتعاشة خفيفة....هل هي ارتعاشة يدي أم يده ترتعش أيضًا؟؟؟ لا أعلم.

– ليباركك الله ويحميك.

–قلتها – وعاودنا الصمت مجددًا وكأن لغة الأعين هي من تريد أن تتكلم فقط... بعد مدة أخرج شيئًا ما من جيبه وفتح يدي ووضعه بها حدقت فيه بعدم فهم وتساءلت:

– ما هذا؟

– انظري بنفسك .

رفعت الشيء أتأمله فإذا هي...سلسلتي الذهبية التي ظننتها ضاعت في المنزل الذي احترق.

– أنت.!!..لكن كيف؟ كل تلك المدة و مهلاً....!!

تداخلت كلماتي، تصارعت الحروف في حلقي فتابع يحكي هو عني لربما حكاية من حكايات ألف ليلة وليلة...لربما حكاية خرافية خيالية لا يمكن أن تتحقق في الواقع لكنها تحققت معي.

سقطت منك عندما كنت تتشبثين بي....

التصقت ببذلتي بسبب الحرارة الشديدة التي كانت تحيط بك.

ومن حينها....أبحث عنك لأعيدها لك.

لا أعلم لماذا لم أستطع نسيانك من حينها...لربما لأنك كنت دائمًا تزورين...

قطع كلماته انفراج الباب واقتحام كمال الغرفة هاتفا به: هيا الآن انتهت الزيارة

وقف كمال أمام الباب عاقدًا ذراعيه أمام صدره فتنهد عامر بنفاذ صبر ومسح وجهه بيديه مستغفرًا الله.

فقلت لكمال بصوت خافت...مصدوم...متلبك مما قاله عامر قبل ثوان –رجاءًا اخرج الآن لم ننتهي.

بقي كمال يحدق بي وكأنه لم يفهم ما قلته أو لم يرغب في فهم ما قلته،.ضرب على الباب مجددًا بقبضة يده وصاح بي:

– وأنا قلت أن الزيارة اللعينة انتهت وإلا أقسم بالله إن لم يخرج حالاً فلن يحصل خير أبدًا.

نظر إلي عامر وقال لتهدئة الموقف:

- آنسة حنين....يبدو أن الوقت ليس ملائم الآن للحديث، إن كتب لي الله رؤيتك مجددًا سأحكي لك كل شيء.
- هذا إن رأيتها ثانية، نطقها كمال بعدائية لكني تجاهلته وأومأت لعامر وقد شعرت بغضب شديد من كمال الذي وقف الآن كمارد أمام الباب، نهض عامر من مكانه بهدوء ورزانة وتوجه ناحية الباب وخرج دون أن يضيف كلمة أخرى.

أما كمال فسار خطوات تضرب الأرض ضربًا ورفع وجهي بيديه.

مالذي قاله لك ذلك الكاذب....مالذي كنت تريدينه من شخص مثله!.

لكني لم أجبه...لم أتكلم كلمة واحدة بل انزلقت على السرير، اعتصرت القلادة وخبأتها تحت الوسادة وغطيت وجهي بملائة السرير، سمعت صوت تنفس كمال كان قويًا كوحش كاسر، أخافني استشعار قربه، لأول مرة يصل فيها لذروة غضبه بهذا الشكل أهي الغيرة من عامر،أم هنالك شيء لا أعرفه بينهما؟؟؟.لكن من أين له أن يعرف عامر؟ مئات الأسئلة والاستفهامات تتقافز برأسي لكني انتظرت ساكنة دون حراك لأشعر بكمال يغادر مجددًا كما دخل.

إن كمال وعندما يتعلق الأمر بي يصبح مجنونًا، كل تلك السنوات لم تغيره فعلاً كما قال، مازال يخيفني كما السابق عندما يشعر بخطر يهدد علاقتنا التي اخترعها وصدقها هو، لكني الآن لست بكمال، بل بعامر ذلك الشاب الغامض، الهادئ.الرزين، سرحتُ أفكر بكلماته (بحثتُ عنك) هل يقول الحقيقة؟ هل

طوال تلك السنوات كان يبحث عني حقًا!؟ ولأجل قلادة أم أن الموضوع أكبر من هذا.

لم يشأ خالد بإفزاع أمي وأبي لذلك قد أعلمهما أني سأنام اليوم بمنزل خطيبي كمال وأمه لنرتب أمور السفر الذي سيكون بعد أقل من أسبوع.

لم يتقبل خالد أن يتركني بمفردي لكني أصررتُ على ذهابه ليرتاح وليوصل سارة بطريقه، أما كمال فقد قرر أن يبقى بجواري وما يقرره كمال لا بد من تنفيذه، ذهب أخي فبقيتُ وحدي مع كمال بغرفة المستشفى، كان يذرع الغرفة جيئةً وذهابًا بتوتر طوال ساعتين ربما بسبب ما فعلته لم يستطع تصديق أني قد أفعل هذا به وأطلب شابًا لأتكلم معه بسرية بعيدًا عن آذانه، آذان خطيبي....ولم أصدق أنا ما فعلت...لكن لكل شيء سبب،.وسببي لاستدعاء عامر كان قويًا بما يكفي.

أتشعرين بالجوع؟ سألني فهززتُ رأسي نفيًا.

- حسنًا إذا ساخرج للتدخين وأعود سريعًا.

قالها وخرج صافقًا الباب خلفه فزفرتُ زفرة قوية شعرتُ بها خرجت من أعماق قلبي.:

- آه منك يا كمال نهضت من الفراش لأسير قليلاً فقد تعبتُ من الإستلقاء،فتحتُ النافذة وجلستُ أحدق في محيط المستشفى المليئ بالأشجار ولفحت أنفاسي هواء الليل البارد ليرتعش جسدي.

طرقة خفيفة على الباب دخل على إثرها طبيب شاب واتسعت ابتسامته ما إن رآني:

- أراك قد تحسنت آنسة حنين.
- نعم أشعر بتحسن.
- سنرى بعد أن افحصك أتودين هنا أم على السرير؟.
- يفضل هنا إن لم تكن لديك مشكلة.
- لا أبدًا آنستي.

قام بفحصي لكنه فجأة توقف ونظر إلي ثم همس:

- أتمنى أن تجدي طريقة و تستمعي لعامر...فقد بحث عنك طويلاً جدًا لدافع قوي.

حدقتُ فيه بذهول وتلعثمتُ بكلماتي هل فضح الأمر ليصل لمن يعملون بالمستشفى كذلك؟!!! شعرتُ باحمرار في وجنتي لتخيلي هذا الأمر لكنه سرعان ما أكمل يمحي آثار التساؤلات:

- أنا صديقه المقرب وصديق كمال منذ وقت طويل جدًا عندما كان طالبًا جامعيًا....ولربما أصبح صديق خالد مؤخرًا نظرًا لرؤيتي المتكررة له.

حدقتُ فيه فأردف مبتسمًا:

- لا تستغربي...هنالك صدف في هذه الحياة لا تصدق لكننا مجبرون على التسليم فيها، عن إذنك.

وضع بيدي قصاصة ورق وغادر الغرفة مسرعًا، خرج تاركًا إياي في حيرة من أمري...ما الذي يجري وكأني بداخل كتاب سحري؟؟!!... ماهذه الدوامة التي غرقتُ فيها، فتحتُ الورقة لأرى رقما مدونا وتحتها اسم عامر يأخذ قسمًا كبيرًا جدًا وكأنه يريد إثبات مدى أهمية هذا الإسم بحياتي.؟ولما اقتحم حياتي هذا

العامر بعد أن أسلمت لنصيبي مع كمال وما الذي يريده مني؟ لماذا بحث عني وكيف وجدني؟!.أسئلة كان لا بد لي من معرفتها لكن كيف وكمال هنا...وأنا هنا محتجزة معه..يا إله السموات أنجدني..

ودخل كمال مجددًا ورآني أرتعش بجانب النافذة فقد سرحتُ بفكري لدرجة نسيتُ أني ارتعش بردًا، هرع نحوي ممسكًا بيدي معاتبًا.

ما الذي تحاولين فعله! أينقص أن تصابي بالزكام.

- قادني إلى السرير وقام بتغطيتي ثم أغلق النافذة ووضع كيسًا على الطاولة بحانبي.

- جلبت لك بعض الشطائر أعرف أنك لا تطيقين أكل المستشفيات.

دمعت عيناي وأنا أتابعه بنظري...

كيف يخرج الشطائر من الكيس ويصر على إطعامي بيديه..كطفلة مدللة، نظراته المليئة بالشوق واللهفة كأن التي أمامه ملكة جمال لا فتاة مشوهة، اشحت بوجهي بعيدًا رافضة تناول الشطيرة من يديه لكنه كان مصرًا على إطعامي، فتحت فمي وقضمت قضمة صغيرة لكنها توقفت في بلعومي تأبى النزول أطلقت العنان لدموعي بقوة فترك الكيس وهرع ناحيتي...

ما بك حنين أيؤلمك شيء؟

من بين شهقاتي قلت له.:

- يؤلمني اهتمامك الغبي بي وحبك لي رغم ما أفعله بك...اتركني يا كمال وأذهب..لا أريد رؤيتك اليوم أرجوك.

شعرتُ بمدى قسوة كلماتي تجاهه، على الرغم من كل ما فعله ويفعله لأجلي إلا أنني أنانية لا أهتم سوى بمشاعري...وبعامر الذي استحوذ على تفكيري منذ أن أوصلنا بسيارته ذلك اليوم ألن تكون خيانة أن أفكر برجل آخر وخطيبي بجانبي.، تجاهل كمال ما قلته وطلب مني أن أنام لأرتاح ونفذتُ مطلبه فاستلقيتُ مجددًا على السرير مغطية وجهي ؛.حتى نمت بسرعة رهيبة.، لربما مرت ساعات الليل بسرعة بالنسبة لي لكنني عندما استيقظت كان كمال يغفو على الكرسي وقد بدا على وجهه الإنهاك يبدو أنه قد سهر مطولاً.

شعره كان مبعثرًا يغطي جبهته، نزلتُ من على السرير بهدوء كي لا أوقظه وتقدمتُ منه..جلستُ على حافة السرير مواجهة له وتأملتُ تقاسيم وجهه، أيعقل أني سأصبح زوجة لكمال؟ انه وسيم لا أنكر.

وجهه مريح..عاطفته نحوي ومساعدته قد مزقتْ قلبي، أيجعلنا الحب أغبياء لهذه الدرجة! سأسافر بعد أقل من أسبوع...وما زلتُ انتظر اليوم الذي سأحلق فيه فوق الغيوم لأذهب إلى أمريكا...

لأحقق أمنيتي بإجراء العملية..ولأعود حنين أخرى..

جميلة...لا حروق فوق وجهها...جسدها قد تخلص من نتوءاته البشعة.وسط شرودي بهذا الحلم الجميل فتح عيناه فالتقت عينانا...

- استيقظت أخيرًا كمال

-قلتها بإشراقة وأهديته ابتسامة-...فتمطى قليلاً ثم دعك رقبته بيديه..يبدو أن عضلاته قد أصابها التشنج من نومه السيء،

- أكنت تراقبينني؟!!.

قالها بمزاح فضحكتُ وقلتُ:

- آسفة لجعلك تنام بهذه الطريقة.
- لا عليك حبيبتي المهم عندي راحتك.
- سأغير ملابسي إذا فأنا أشعر بتحسن كبير ولا داع لأن أبقى هنا.
- كما تشائين...لكن سأنادي على الطبيب لنتأكد.

*****

﴿عامر﴾

ساطفئ النار التي بقلبي...والتي بات لهيبها يحرقني منذ أن سقطت أمامي في الشارع...منذ أن عرفتني..ونادتني وأفصحت عيناها عن أكثر من مجرد شكر...عينان بلون السنابل الخضراء يحويان دفئًا وجمالا وآلاف الكلمات بنظري لم تكن تلك الفتاة مشوهة...فالتشوه ينبع من داخل أعماقنا وأرواحنا...لا من أجسادنا التي لا علاقة لنا في تشكيلها بل هي من صنع الخالق...وفي رعاية الخالق جل جلاله وهو وحده من يقرر مصيرها، هي لا تحب كمال أنا موقن من هذا... فنظراتها إليه لا تحويان اللهفة...لا تلتمعان عند رؤيته، وأنا أكيد أن زواجها منه لن يكون سوى لسبب ما ووجب علي معرفته لكن لا أدري كيف؟.في مساء اليوم التالي ذهبت إلى مقهى العم أحمد الذي اعتاد خالد على ارتياده لأحادثه بشأن ما حدث..وكما توقعت كان جالسًا هناك ؛.تقدمتُ منه بخطى بطيئة سحبتُ كرسيًا وجلستُ أمامه:

- –كنت متوقعًا أن أراك هنا،

رفع بصره تجاهي واكفهر وجهه وسألني:

- ما الذي تريده؟.
- أن نتحدث قليلاً بما جرى في الأمس فأكيد أن التساؤلات تملأ رأسك الآن.
- من الجيد أنك عرفت، وها أنذا أستمع إليك.

ارتشفتُ من كأس الماء أمامي وقلتُ:

- أنا هو الإطفائي الذي أخرج أختك من المنزل ليلة الحريق.
- أعلم هذه الناحية فقد أخبرتني حنين اليوم بها....هذا عملك وواجبك...لكن بالنهاية شكرًا.

فشعرتُ بغضب من طريقة كلامه وهتفتُ بحدة:

- لستُ أقولها لتشكرني خالد كما أني لم أكمل حديثي بعد فلا تقاطعني رجاءًا

زفر خالد ضيقًا وأدار وجهه ناحية الطريق

- إذن قل لي كل شيء لا أعرفه عنك:.
- ما الذي تريد أن تعرفه بالتحديد؟
- أولاً كمال...ما علاقتك به؟ لماذا يكرهك بهذا الشكل وما علاقته بضياء أيضًا؟ تعرفون بعضكم وتخفون عني شيئًا ما وأنا الغبي الوحيد بينكم، والأهم من هذا حنين هل كنتَ تتذكرها أم أنك عرضتَ توصليي في ذلك اليوم إلى القرية لغاية في نفسك؟ أم أن صداقتنا كلها كانت لغاية وسخة في نفسك؟.

زفرتُ بقوة وصرتُ أطرق بأصابعي على الطاولة بتوتر حتى ضربتُ كفي عليها وأجبته:

- أترتاح إن أخبرتك بالحقيقة وستتفهم.
- لربما.....نعم، لا أدري.
- حسنًا إذن.... كان هنالك أمانة وجب علي توصيلها لصاحبتها وكمال حال دون وصولي إليها بسبب غيرته الحمقاء على أختك.
- ما الذي أفهمه منك إذن وأي أمانة!!
- سلسلتها الذهبية سقطت يوم الحادث.

والآن لتذكرت إرجاعها، ولمَ أساسًا كنتَ ترغب في إعادتها؟ هل أنت أمين لهذه الدرجة؟

نطقها بتهكم لكني قاطعته:

- بحثتُ عنكم طويلاً.
- ولمَ لمْ تسلمني إياها إذن، لمَ اخترعتَ كذبة وضيعة لتعارفنا.
- خالد...هنالك أمور في هذه الحياة تدفعنا لارتكاب الحماقات أحيانًا وهاأنذا أعترف، صداقتي بك في بادئ الأمر كانت كلها لأجل أن أصل إلى حنين لكن بسبب....

وما إن قلت هذه الكلمة حتى انتفض خالد كأسد جريح قلب الطاولة وما عليها رأسًا على عقب ؛ لتتناثر قطع الزجاج واندفع نحوي بقوة أطاحتنا أرضًا وبدأ بلكمي بقوة وهو يصيح دون أن أحرك ساكنا، تركته يفرغ طاقته بي فما فعلته به ما كنت أنا حتى سأقبل به.

تجمهر الرجال وخلصوني من بين يديه وهم يكبلونه وما زال يهديني سيلاً من الشتائم وقفتُ و مسحتُ آثار الدماء التي سالت من أنفي وفمي، ثم قلت له وأنا ألهث:

– إن أراحك هذا فلا بأس لكن تذكر أني لم أفعل هذا لغاية سيئة في نفسي..

وتركته خارجًا من المقهى استقليت سيارتي أقودها كالمجانين في شوارع المدينة من شارع لشارع دون هدف معين، وهاتفي اللعين يرن ويرن منذ أكثر من نصف ساعة دون أن أجيب حتى طفح بي الكيل و ضغطتُ الفرامل فجأة لتتوقف أخرجته من جيب بنطالي لأرى اسم ريم:

– مالذي تريدينه الآن أنت الأخرى.

– عامر.... رجاءًا أمك تعبة جدًا...تعال.

وكأن الدنيا كلها دارت بي هذه اللحظة ضربتُ المقود بيدي وانطلقتُ من جديد لكن هذه المرة على المستشفى بعد أن تلقيت اتصالا آخر من ريم تعلمني أنها طلبت سيارة الإسعاف فحالتها حرجة جدًا.

ركضتُ بأروقة المستشفى لأصل إلى العناية المركزة، كانت ريم واقفة تبكي بجانب الحائط، هرعتُ ناحيتها أصرخ:

– مابها أمي؟ أجيبي

كلماتها اختلطت ببكاء فلم أستطع أن أفهم منها كلمة واحدة، تركتها متوجهًا لمكتب الطبيب أسأله عن حالتها.

– يؤسفني أن أقول لك إنها تعاني من إحتشاء في عضلة القلب، سنرى ما علينا فعله والله الشافي

استندتُ بيدي على حافة المقعد أعتصره، ثم جررتُ قدماي جرًا نحو ريم واستندتُ على الحائط أمامها، كانت تنظر إليَّ لتستمد قوتها لكن أي قوة سأمتلكها الآن بعد كل شيء قد حصل معي الليلة، رفعت بصري إليها وقلتُ:

– أصلحي حجابك.

لكنها لم تفهم....لم تسمع.. فصوتي أنا ما كنت لأسمعه فكيف هي؟ زفرتُ بقوة وتقدمتُ نحوها...مددتُ يدي لأخبئ تحت وشاحها تلك الخصلات الكستنائية التي تناثرت وهتفتُ بحدة:

– اذهبي إلى الحمام وأصلحي حجابك ؛ هزت رأسها وركضت من أمامي فورًا أما أنا فجلستُ أمام الغرفة انتظر....

ومرت الأيام على نحو مخيف عادت بها أمي إلى المنزل لكن حالتها كانت تزداد سوءًا يوما بعد يوم، ولم يكن بجانبي سوى ضياء يواسيني ويطمئن عليها بين يوم وآخر،.وريم التي تسهر أمامها ليلاً نهارًا كابنتها تصلي، تدعو الله بشفائها، تتلو ابقرآن على مسامعها لترتاح وليرتاح قلبي معها، نسيت كل ما يتعلق بحنين...وخالد ولم أعد أهتم بالأحلام، فالكوابيس باتت تطاردني في صحوتي قبل ليلي، انتظر بيوم أن أستيقظ على صراخ ريم بأن المنية قد وافت أمي، فقد كانت حالتها سيئة جدًا.ولم أنتظر طويلاً لهذا...

فبعد ثلاثة أشهر ولربما أربعة فأنا صدقًا لم أعد أحتسب الأيام من حولي وبمنتصف الليل صرخت ريم بقوة، كنتُ نائمًا حينها ففزعتُ ونهضتُ واقفًا لأتجه نحو غرفة أمي التي تهزها ريم وتصرخ.

– أمي لا تموتي.....لا تموتي.

صارت ريم تصرخ وتناديها بأمي وكأنها تعيد شريط وفاة أمها من جديد، تقدمتُ ناحيتها ببطئ لا أريد أن أصدق، نظرت لعينيها الشاخصة إلى السماء، تلمست معصمها البارد الخالي من النبض ثم رفعت الغطاء لأغطي وجهها –إنا لله وإنا إليه راجعون– همستُ أرددها، ريم تتشبث بها....تصرخ وكأنها هي ابنتها لا أنا.

حاولتُ إبعادها لتتركها ترقد بسلام لكن ريم انهارت على الأرض فانهرتُ بجانبها،هي تبكي متمسكة بي وأنا أستند بذقني على رأسها أنظر لذلك الغطاء الأبيض الذي يغطي جثة باردة حلت محل أمي الدافئة الحنون.

*****

الحنين

بعد خروجي من المستشفى ذلك اليوم توجهنا إلى المنزل مباشرة وقال لي كمال حينها:

– إن كنت تشعرين بتحسن فجهزي أغراضك فسفرنا سيكون صباح الغد.

كان يقولها بجدية بالغة وكأنه يريد أن يختطفني ويهرب بعيدًا ؛ كي لا أملك الوقت لأقابل عامر مجددًا وكأنه يخاف من شيء ما، لكن كمال لا يخاف من أحد فأنا أعرفه جيدًا.بهذه اللحظة كنت لا أفكر بعامر أو بكمال أو بأي أحد

كان،.كنت أفكر بالعملية وبما سيؤول عليه شكلي بعدها ؛ لذلك بدأت بتجهيز أمتعتي سعيدة هانئة، كنتُ أرغب في حمل جميع الكتب معي لكنه أراحني من كل هذا العناء واشترى لي جهازًا لوحيًا يحتوي مكتبة ضخمة فيها شتى أنواع الكتب وسلمني إياه مساءًا قائلاً:

– هكذا أصبحت كتب العالم كله ملك يديك الجميلتين.

حتى هذا التفصيل البسيط لم ينسه كمال! حل صباح اليوم التالي ودعتُ فيه الجميع...أمي..أبي..سارة..خالد، وانطلقت مع كمال في رحلتي فوق السحاب لأحقق حلمي المنتظر، مرت ساعات اليوم ببطء في الطائرة وأنا أغفو تارة على المقعد بجانبه وأصحو تارة أخرى، نتحادث قليلاً يغازلني كثيرًا وأغفو من جديد حتى وصلنا،.ومنذ خطت قدمي أرض المطار...باتت حياتي تتحسن، استقلينا سيارة أجرى وتوجه نحو إحدى الأحياء،.ترجلنا من السيارة أمام مبنى طويل جدًا لنصعد إلى شقته في الطابق الخامس عشر..

كانت شقته ذات طابع كلاسيكي أنيق، يغلب على أثاثها اللون الرمادي والأبيض تتكون من غرفتين إحداهما للنوم، وأخرى استعملها كمكتب لدراسته وعمله، وصالة واسعة والإطلالة من شرفته كانت جميلة جدًا خاصة في الليل حيث تنار المدينة بأضواء ملونة تمتد من البعيد.

طلب لنا البيتزا عبر الهاتف وجلسنا نتناول طعام العشاء بهدوء وعندما أنهيت طعامي أخبرته أني متعبة وأحتاج إلى أن أنام.

– ستستعملين غرفة نومي وسأنام في الصالة.

قالها وتوجه إلى غرفته مباشرة، وقام بفتح إحدى الخزائن وأخذ اللحاف والوسادة لينام على الأريكة خارجًا، لكم أراحني تصرفه هذا لكن الطمأنينة لم تغزُ قلبي حتى أقفلت على نفسي في المفتاح ؛ لأنام بعدها قريرة العين، وحل صباح وتلاه آخر وآخر، كنا نخرج فيها من الشقة متوجهين إلى المستشفى لنتفق مع الطبيب بشأن إجراء العملية،. كنتُ أجلس وأستمع إليه وهو يحادثه بطلاقة وطبعًا دون أن أفقه حرفًا واحدًا، فلو كانا يخططان لقتلي لم أكن لأفهم ذلك!

وتوالت الأيام وتوالت التحاليل اللازمة قبل إجراء سلسلة العمليات التي سيقوم بها فليست عملية واحدة كما كنت أظن فيبدو أن التغيير سيكون جذريا في شكلي، ولكم أتمنى أن يحصل هذا سريعًا.

و حان الوقت أخيرًا، تمددت على السرير الأبيض بغرفة العمليات، أمسكت بيد كمال أهمس:

– لا تتركني وحيدة.

فهمس لي:

– سأكون بجانبك دائمًا وأبدًا صغيرتي.

شعرت بالمحقن المخدر يخترق أوردتي لأغمض عيناي بعدها مستسلمة لرحلة جديدة ستكون فيها حنين جديدة.

الطريق الذي اجتزته كان طويلاً، شائكا، تعثرتُ بحجارته السوداء المدببة التي أدمت قدماي كما أدمت قلبي، حرقت حرارته خطواتي كما أحرقت روحي،

تخيل أن تكون راقدًا على فراش الموت....تتنفس النهاية، بجانبك جهاز تخطيط القلب الذي يطلق ذلك الصوت الرتيب وهو الوحيد الذي يعلن أنك ما زلت على قيد الحياة....لكنك ميت سريريًا...تتنفس فقط...نبض قلبك منتظم...لكنك بعالم آخر...هائم بعالم أحلامك أو كوابيسك...تصرخ....تستنجد بهم وتتمنى أن يسمعوك لكنهم يحزنون...يتلوعون لفكرة فقدك...لكن بالنهاية لا أحد يشعر بما تعانيه...تنتظر إما أن يصفر الجهاز معلنًا عن موتك....أو تفتح عينيك على الدنيا لتبدأ قصة جديدة وهاأنذا عدتُ إلى الحياة، مت لثلاث سنوات كاملة، كنت هائمة فيها بكابوس مزعج، مخيف وهاأنذا قد صحوتُ، عملية وراء أخرى وأنا في غرفتي في المستشفى، يمنع أن أنظر في المرآة، يمنع أن أخرج خارج أسوار المستشفى، يمنع أن أتعرض إلى أشعة الشمس بسبب تلك المستحضرات الطبية المرممة التي أضعها على بشرتي كل يوم وكأنني إحدى مصاصي الدماء الذين ستفتك بهم أشعة الشمس ما إن تلامس بشرتهم،.أتألم بسبب العمليات المتكررة أشعر بأن وجهي وبعض أجزاء جسدي تشتعل نارًا من شدة الألم.

لكني صابرة، لا يواسيني بوحدتي سوى كمال، وقراءة القرآن والدعوة إلى الله سبحانه،.سجن آخر عشته في المستشفى ولكني كنت أعرف نهايته جيدًا وها أنذا وصلتُ لنقطة النهاية.آخر عملية أجريتها كانت منذ ثلاثة أيام وما إن اطلع الطبيب على النتائج نظر بفخر إليَّ، وكأنه قد صنع تمثالاً لفينوس بيديه لا أنسى أبدًا نظرة كمال التي تتبدل بين يوم وآخر لتتوسع حدقتاه ويبتسم تارة، يضحك تارة أخرى وأنا أتلوى من الفضول، أريد أن أعرف ما الذي يجري بالضبط هل أصبحتُ جميلة كما السابق؟!!!هل عدتُ لما أنا عليه لم أعرف، لكني اليوم

مساءًا سأعرف لأني ببساطة قد خرجت من المستشفى،.أصر كمال على وضع عصبة على عيناي تخيلوا!!!...

من غرفتي في المستشفى حتى المنزل مايقارب الساعة من الزمن وأنا مغمضة الأعين لا أرى سوى اسودادًا، فلا يريدني ان ألمح وجهي أبدًا فلربما انعكست صورتي على مرآة السيارة أو غيرها فرأيت ما أنا عليه.، ولكني جاريته بهذه اللعبة...

وها أنذا أستقل المصعد متمسكة بذراعه أسير بجانبه خطوة وراء خطوة، وقلبي ترتفع نبضاته نبضة وراء نبضة، سمعتُ تكة المفتاح صوت إشعاله لأنوار الصالة ضربات حذائه على الأرضية واقتيادي لغرفة ما، ثم رفع العصبة عن عيناي، أحسستُ بالضوء وكأنه الشمس قد سطعت بمنتصف الليل فأغمضتُ عيناي بقوة قبل أن أعاود فتحهما من جديد نظرت إلى السرير أمامي لأرى فستانا أحمر اللون، استدرت بشكل تلقائي لخلفي لكن المرآة لم يكن لها وجود..

قال باسمًا:

- ارتديه ثم اتبعيني إلى الصالة...أنا أنتظر.

وخرج مغلقًا الباب ورائه، تقدمتُ ناحية الفستان وتأملته، يبدو قصيرًا حد الركبة، عاري الكتفين، توهج وجهي خجلاً...فهذه أول مرة سأرتدي القصير لهذه الدرجة، لكنه بالنهاية زوجي شرعًا.

ارتديتُ الفستان لكني وضعت شاله على كتفي وذلك الحذاء الأحمر ذو الكعب العالي ارتديته وضربات قلبي لم تتوقف عن إرعابي من صوتها..وقفتُ خلف الباب أخذتُ نفسًا عميقًا وأدرتُ المقبض وخرجتُ خطوة وراء خطوة أجتاز

الرواق المؤدي إلى غرفة الجلوس وكان كمال جالسًا على الأريكة وقعت عيناه علي فوقف من فوره...

وكأن عيناه تدمعان ؛ تقدمت منه بقدمين ترتجفان وهمست:-كمال....أنت تبكي!!!

هز رأسه نافيًا وعيناه حمراوان لكنه يبتسم، وتقدم ناحيتي ببطء أمسك العصبة ووضعها على عيناي

- سنكمل اللعبة حتى النهاية جميلتي.

واقتادني مجددًا على ما يبدو إلى غرفة مكتبه أدارني ليخطو بي خطوتين إلى الأمام ثم همس بأذني:

- توقفي هنا.

أزاح شعري قليلاً وفك العصبة لتسقط على الأرض ومعها يسقط قلبي من مكانه..كانت المرآة أمامي....وبداخلها لم أكن موجودة!!!.

بغير إرادة مني رفعت يدي ألتمس وجهي أو هذا الوجه الجديد، وكأنني أريد أن أتأكد أن هذه التي تنعكس صورتها هي أنا لا أحد آخر، وجنتاي متوردتان، شفاه ممتلئة، جبهة رقيقة، ووجه ناعم الملمس لا يحتوي أية نتوءات أو آثار للحرق سوى لون طفيف جدًا بالكاد يرى، عيناي ذات اللون الأخضر محيطهما خال من التجعدات القبيحة حاجباي سليمان تماما بل أنهما أصبحا أجمل عما كانا عليه!!!.

وكمال من خلفي يراقبتي عبر المرآة، وعيناه تفضحان سعادته التي لربما تضاهي سعادتي بل أكثر، قام بإزاحة الشال ليقع على الأرض ولأتأمل عنقي كتفي،

ساعدي، كلها سليمة ضحكتُ بصدمة، ثم بكيتُ وضحكتُ وبعدها بكيتُ، ما الذي فعلته بي كمال! قلتها بارتباك..بخوف ممزوج بسعادة وكان خلفي ممسك بكتفي يهمس:

- هاقد عادت حبيبتي الصغيرة، أعدتك من جديد، أعدتُ روحي لموطنها الحقيقي وأعدت نبضاتي لداخل قلبي، وعدتك بأن أنتشلك من الألم لتصبحي قوية كما السابق وأكثر، جميلة كما السابق وأكثر، وهاأنذا قد وفيتُ بوعدي.

انهرتُ على الأرض وما زلتُ أنظر إلى المرآة أحاول أن أحفظ شكلي الجديد..أحاول أن أستوعب أن هذا انعكاس صورتي أنا...

صاحبة الوجه الجميل هي أنا ولا أحد سواها.

- أخيرًا حققتُ حُلمي،

همست بها بسعادة لكنه قال:

- لكني لم أحقق حُلمي بعد.

رفعتُ بصري إليه عبر المرآة وأنا أرى إنعاكس صورته اليوم رأيته جذابًا...فاتنًا لأبعد الحدود، رأيته ملاكًا، كنت أتمنى فعلاً أن احتضنه بقوة وقفتُ بهدوء واستدرتُ ناحيته، حدقتُ فيه، همستُ له:

- إذًا تمسك به...لعله يتحقق بيوم ما.
- هل....هنالك أمل في أن....

قال كلامًا متقطعًا، وكأن رياح الخريف بعثرت أوراقه لتتساقط، لكني لم أجبه اكتفيتُ بابتسامة ثم ارتميتُ على صدره أجهش ببكاء مرير، جلسنا على الأرض

فلم تعد قدماي تحملانني وصار يمسح على شعري بحنو بالغ، قبل جبهتي هامسًا: سأنتظرك حتى نهاية الزمان لتقرري، ابتعدتُ عنه و استدرتُ ناحية المرآة من جديد وضعت بها مجددًا حتى قطع الصمت قائلاً:

– ما رأيك بهذه المناسبة أن نتناول طعام العشاء خارجًا فأنا جائع جدًا؟

أومأتُ له وخرجتُ من فوري لأستبدل ملابسي ارتديتُ هذه المرة قميصًا أخضر اللون طويل الأكمام وبنطالاً أسود، وأسدلتُ شعري على كتفي وخرجتُ متوجهة إلى غرفة مكتبه لأرى وجهي مجددًا عبر المرآة بلباسي الجديد، وسمعته خلفي يضحك:

– يبدو أني سأضطر إلى طلب الطعام لنأكله أمام المرآة.

– كفاك كمال...آه لو تعرف شعوري الآن.

– أعرفه حبيبتي كنت أمازحك فقط، هيَّا الآن نخرج فأنا أتضور جوعًا

ونزلنا إلى الشارع، كاد أن يستقل سيارة لكني ترجيته أن نسير فانصاع لمطلبي وبلحظة واحدة اطلقت ساقي للريح.

أريد أن أركض بين الناس وأصرخ بسعادة لهم:

– ها قد ولدتُ من جديد أنظروا إلى شكلي أريد أن أطير مع الحمام، أن أحلق عاليًا فوق السحاب وفوق النجوم حتى ألامس القمر، وأعانقه أريد أن أغفو على سطحه،

لحق بي مسرعًا يناديني وأنا أضحك كالمجانين مبتعدة عنه، ركضتُ لوقت طويل جدًا ؛ ووقفت بعدها أسندتُ يداي على ركبتي وصرتُ ألهث تعبًا وانفعالًا، وقال من ورائي:

- مجنونة!!!

لأول مرة تكون الشوارع جميلة، لأول مرة أرفع وجهي بكل شموخ دون أن أرتعب من نظرات الناس التي تنم هذه المرة عن الإعجاب لا عن الشفقة، لأول مرة أشعر أني على قيد الحياة..

ومرت أيام أخرى بصورة بطيئة، لكنها جميلة كنت مفعمة بالحياة والنشاط، لم أعد أدخن كما السابق، بل صرتُ أستيقظ صباحًا لأشغل أغنية لفيروز أتأمله يغط في نوم عميق على الأريكة ثم أذهب وأعد الإفطار لكلينا، أرفع شعري بحيث يظهر وجهي كاملاً ولا أنفك أتوجه لغرفتي لأنظر عبر المرآة ولأكتحل أو لأغير لون أحمر الشفاه،.ابتسم بسعادة غامرة وأنا أتلمس وجهي ونعومته وأشكر الله سبحانه على هديته العظيمة لي،.لكني بإحدى الليالي وحينما كنتُ ساهرة أتابع فيلمًا مع كمال ظهر فيه رجل إطفاء.لربما كمال لم ينتبه على شرودي، أما أنا فحلقتُ بعيدًا جدًا ؛ لحظات عدتُ فيها إلى الوطن، يراني عامر فتتسع ابتسامته ويقول حمدًا لله على سلامتك ؛ فأمسك بيده ونسير ويخبرني بقية قصته.

كنتُ هائمة بعالم من الأحلام حينما رأيت كمال فجأة قبالتي وبيده كوب من القهوة الساخن، رفعت حاجباي وابتسمت لأزيل الارتباك فقال لي:

- فيم تفكرين؟

رفعتُ رأسي حينها وأجبته:

- بطريقة استقبال أهلي حينما يروننني

وصرنا نخرج كل يوم، أريد أن أرى معالم المدينة قبل أن نعود من جديد إلى سوريا.، أن ألتقط الصور وأعيد النظر إليها عندما أعود، وقبل أن نسافر قررت أن أشتري بعض الهدايا لأهلي.

كان السوق مكتظ بالمارة، اشتريتُ ربطة عنق جميلة لخالد وفستان أنيق لسارة، وشاح صوفي لأمي وساعة يد لأبي،.أما كمال فاشتريتُ له علبة موسيقى فيها ملاك صغير يدور وقلت له هذا أنت بالنسبة لي، وأتذكر أنه ضحك كثيرًا حينها.وطبعًا هو من دفع تكاليف كل شيء حتى سعر هديته على الرغم من أني أملك النقود لكنه لم يسمح لي بأي شكل كان أن أدفع.، ومن بين المتاجر توقفتُ أحدق بإحداها، كانت واجهته كبيرة جدًا ومليئة بمستحضرات التجميل...والنساء يتبضعن بداخله.حدقت بكل شيء على واجهته فقال لي:

– أترغبين بالدخول؟

استدرت ناحيته ولم أعلق بشيء، على الرغم من أني كنت أتشوق لتجربة ما حُرمت منه.استشعر رغبتي في الدخول فوضع بقبضتي مبلغًا من المال ودفعني لأدخل:

– إشتري ما تشائين وسأكون في هذا المقهى بانتظارك.

نظرتُ إليه ثم إلى المال وابتسمتُ بسعادة وركضتُ إلى الداخل...

صرتُ كالفراشة التي تطير من زهرة إلى أخرى، أنتقل من رف لآخر أنتقي ما يعجبني من أقلام للكحل والشفاه وظل للأعين وغيرها وغيرها من الأدوات حتى امتلأت السلة وركضت ناحية المحاسبة لأدفع وأنقدته كل ما أعطاه كمال لكن الرجل صار يتكلم ولم أفهم ما المشكلة قلت له انتظر،سأعود وبالكاد استطعت

نطقها وذهبت أبحث بعيني عن كمال حتى وجدته على الجانب الآخر من الشارع يجلس على كرسي المقهى فناديته....

هرع نحوي وأخبرته أن يدخل فأنا لم أفهم كلام الرجل.

ودخل كمال وبدأ بالحديث معه وما إن وقعت عيناه على الكيس الممتلئ حتى ابتسم وأخرج من محفظته المزيد من النقود وأنقدهم له.

أحسست بالخجل والغباء من تصرفي تعلقت بيد كمال وقلت له انتظر سأعيد بعضهم لكنه أبى، وأمسك الكيس وناولني أياه لنخرج من المتجر..،كنت خجلة جدًا سأذوب مثل السكر من خجلي.

- أنا آسفة كمال، لم أستطع السيطرة على نفسي وأنا أشتري فكل شيء جميل بالداخل.

قهقه كمال عاليا وسط الشارع وقال:

- لا عليك صغيرتي المهم أن تكوني راضية.

*****

عامر

أضحت الكآبة هي خليلتي وبات الحزن رفيق سهدي، أيام تشابهت مع سابقتها وخاصة بعد موت والدتي، في ثاني أيام العزاء كنتُ جالسًا بين الرجال أستقبل المعزين وأودعهم، تشابهت كل الوجوه بنظري فلم أعد أميز بين هذا وذاك....رجال يدخلون ويخرجون وأنا هائم بعالم آخر حتى وقف أمامي أحدهم.

-البقاء لله يا عامر.

رفعت رأسي ببطئ لأتبين معالم هذا الرجل أنا أعرفه، موقن من هذا، لكن عقلي بات بطيء الاستيعاب مؤخرًا.

نهضتُ فمد يده وصافحني وكان بجانبه يقف ضياء وقال موجهًا كلامه لي: –ما إن قلت لخالد جاءك مسرعًا.

وايقنتُ الآن انه خالد أمامي

– عظم الله أجركم..

رددتُ بشفاه بالكاد تحركت بصوت متحشرج:

– شكر الله سعيكم.

وجلستُ مجددًا استمع لتلاوة القارئ من الكتاب الحكيم.

جلس خالد بجانبي أحسست به ينظر تجاهي بين الفينة والأخرى لكني لم أكن مستعدًا لقول أو تبرير أي شيء مجددًا له أو لسواه.

ومرت ساعات العزاء حتى انتهت وما زال خالد وضياء يجلسان بجانبي، كنتُ أشعر بإنهاكٍ شديدٍ لعدم نومي طيلة الليلة الماضية والتي قبلها، لم أشعر بأن الرجال من حولي قد غادرو جميعًا بقيت جالسًا على الكرسي حتى تقدم مني ضياء وربت على كتفي.

– هيا عامر حان وقت الرحيل.

رفعتُ نظري إليه ثم نظرتُ حولي فإذا بالصالة خالية إلا من هذين الإثنين، نهضتُ معهما وتوجهنا ناحية المنزل وكان فارغًا فقد أرسلتُ ريم لتنام في منزل خالتي فمن غير اللائق أن تبقى وحيدة معي هنا.

وقرر الشابان أن يبقيا الليلة بجانبي وكذا فعلا في الليلة التي تلتها حتى انتهت مراسم العزاء،.بعد أسبوع تقريبًا ذهبت لزيارة خالتي للإطمئنان على ما تبقى من رائحة أمي (ريم) الأمانة التي بتُ أشعر فجأة بأنها ملقاة على عاتقي ولا يجوز أن أفرط بها لأي أحد.

في الصالة كانت جالسة ترتدي الأسود، تقدمتُ ناحيتها وجلست على الأريكة ولم يكن حزنها أقل من حزني، –كيف حالك ريم.

رفعتْ رأسها تجاهي وتمتمتْ بخفوت.–الحمد لله.

ومرت الجلسة بصمتٍ مطبقٍ إلا من صوت تلاوة القرآن التي هدأت نفسي قليلاً.

قالت خالتي:

– بما أنك عازب الآن اقترح أن تبقى ريم عندي تخدمني لكنها تأتيك صباحًا لتنظف منزلك وتطبخ لك ثم تعود لي من جديد.

رأيت نظرات حزينة هائمة من ريم وقبل أن أخرج وحينما كانت خالتي في المطبخ تقدمت مني ريم وقالت:

– خذني معك رجاءًا.

التفتُ إليها بعتاب وقلتُ رافضًا:

– لا يجوز أن نبقى وحيدين في المنزل تعرفين هذا.

لكنها قالت بإصرار:

– رجاءًا...لا أحتمل المكوث هنا...أعدك أن التزم غرفتي..أن لا أخرج أبدا طيلة تواجدك...لا أطيق البقاء معهم وخدمتهم هنا أريد الذهاب لمنزلكم...منزل أمي، أرجوك عامر.

شعرتُ باختناق يعتمر صدري تجاه هذه اليتيمة لا أنا قادر على تركها بمكان لا تحبه ولا قادر على إرجاعها لمنزل قريبها جاسم فزوجته ستحيل حياتها جحيمًا ربت على كتفها مواسيًا...

– هل يزعجونك ريم؟

اطرقت رأسها أرضًا ولم تجب، فرفعت ذقنها بيدي وكررتُ السؤال فقالت بتردد:

–معكم لم أشعر بيوم أني مجرد خادمة كنتم أهلي، خير عون وسند لي.

زفرت بقوة من احتمالية أن تكون خالتي قد أساءت معاملتها بأي شكل فقلت لها:

– ابقي الليلة هنا لأرى ما علي فعله في الغد.

وعدتُ مجددًا إلى منزلي البارد الموحش وحيدًا...

أسمع ضحكات أمي...ثرثرة ريم معها، أستذكر تنهيدة نومي حينما أضع رأسي على حجرها لأرتاح من قسوة الحياة، والآن من سيريحني من قسوتها، من سيخبرني بأن الله سيبقى دائمًا وأبدًا معي، من سيذكرني بأداء صلاتي كلما سهوت عنها، من سيتحملني حين أغضب ويحنو علي بصدق دون كلل حين أمرض، بعد مقاومة طيلة أيام أربع. سالت أول دمعة، وفتحت الطريق أمام سيل جارف من الدموع، حينها لم أكن عامر...الرجل ذي الأربع والثلاثين عاما، بل صرتُ طفلاً صغيرًا ينتحب بقهر على حاله. استلقيتُ على الأريكة بإنهاك بعد أن هدأت ثورتي وقبل أن أغلق عيناي أتاني اتصال من خالد وجاءني بعد ساعة يحمل طعامًا بيده.

– متأكد من أنك جائع مثلي فلم أتناول طعامًا منذ الصباح.

قالها ووضع الكيس على الطاولة ونهض ليجلب كؤوسا للعصير فقلت ل:

- توقف خالد.

استدار ناحيتي فأردفت:

- هنالك أشياء بيننا لم تسوى بعد.

ابتسم لي قائلاً وأكمل مسيره ناحية المطبخ.بالنسبة لي قد سويت كل الأمور ضياء أخبرني بكل شيء لا تقلق.

لحقتُ به أستفهم:

- ما الذي أخبرك به ضياء.

- كل شيء كنتُ أود معرفته، هيا الآن نأكل قبل أن يبرد الطعام.

جيد على الأقل ضياء قدم معروفًا وأراحني من حمل آخر كان على عاتقي، وجلسنا مطولاً، لكم ارتحت لوجود خالد بجانبي الذي أثبت لي فعلاً شهامته وأخلاقه الطيبة.

حدثته بشأن ريم وقلقي عليها فقال فورًا:

- إجلبها تمكث عندنا ضيفة عزيزة ريثما ترى ما عليك فعله بشأنها.

- لا أريد أن أسبب لكم الإحراج.

- بالعكس تمامًا صديقي لا إحراج في الموضوع ستبقى مع أمي تتسليان ساعات النهار بما أني وأبي في العمل.

كدتُ أن أساله عن حنين لكن الصمت ألجم لساني فبالكاد عادت علاقتي طيبة مع خالد وسأترك كل شيء للأيام فلربما يكتب الله لي أن أراها من يدري.

*****

الحنين

اعتصر قبضة كمال بتوتر من خلف باب منزلي..

كنا قد رجعنا البارحة ليلاً لكني قررتُ أن أنام في منزله قبل أن أعود إلى منزلي.كان معترضًا لفكرة عودتي لأهلي وبما أني زوجته شرعًا فالمكان المناسب هو شقته، حاول بشتى الطرق إقناعي لكني اعترضتُ بشدة قائلة:

– أريد العودة لأهلي كأي عروس تشعر بفرحة وهي تجهز نفسها للقيام بحفلة زفاف كبيرة، هذا حُلم أي فتاة يا كمال لا تحرمني منه رجاءًا

كنتُ قد استسلمت لواقعي معه لكنه واقع سيكون بشروطي أنا، أنا التي ستقرر متى ستتزوج لأن حُلم الفستان الأبيض لن أتنارل عنه أبدًا، وقد وافق على مطلبي أخيرًا بعد إلحالي الشديد.

وها أنذا أطرق الباب متوقعة أن تكون أمي ورائه فأرتمي مباشرة تحت أقدامها مقبلة إياها لكن من فتح لي شخص آخر.

نظرت لي الواقفة خلف الباب قائلة:

– أهلاً آنستي من تريدين؟

نظرتُ لهذه الفتاة وعادت ذاكرتي لأكثر من ستة أشهر مضت، إنها ريم الفتاة التي كانت بسيارة عامر عندما أوصلنا من القرية لكن ما الذي تفعله في منزلي!!.ومن وراء الباب سمعتُ صوت أمي تتساءل:

– من هنالك ريم؟.

ووصلت ناحيتي ورأتني وكمال أمام الباب.

صعقت أمي، شهقت بقوة ثم رفعت يدها ببطء وتلمست وجهي بيديها الدافئتين فقلت باكية:

– أمي....أصبحتُ جميلة إنظري.

وانحنيتُ أقبل يدها بعنف لترفع وجهي بكلتا يديها وتقبلني بشوق وتحتضنني بقوة وهي ترحب بي بحرارة ولم يكن استقبال خالد وأبي لي بأقل من حرارة استقبال أمي لي ؛ فقد حملني خالد بين ذراعيه وصار يدور بي بقوة وسط ضحكاتي العالية كحين كنا صغارًا، وعدت إلى أحضان عائلتي مجددًا فتاة مليئة بالطاقة والحيوية، فتاة تعشق الحياة والألوان، فتاة تحب الحرية وتحب نفسها كذلك!

عدتُ إليهم وتقرر بهذه المناسبة قيام حفلة الزواج لخالد وسارة فقد كان مستعجلاً على ما يبدو! لكن هذه المرة سأكون نجمة الحفلة بكل تأكيد، سأرتدي ما أشتهيه دون أن يتدخل كمال بي وسأتبرج بالطريقة التي أحبها ولن أستمع لاعتراضه أبدًا.عرفتُ ما حل بوالدة عامر وتأسفتُ لأجلها كثيرًا رغم عدم معرفتي بها إلا أني أعرف ابنها صاحب الصوت العميق والنظرة الجميلة، توثقت علاقتي بريم بما أنها باتت تستخدم غرفتي في غيابي فتشاركناها حينما عدت وكانت ريم فتاة طيبة ذات خلق وصرنا نثرثر ساعات الليل بطوله،.تحكي لي عن عامر بعينين تتراقصان تحدثني عن طيبته وأخلاقه وشهامته، وأنا أشعر بشيء غريب يشدني نحو هذا الرجل الذي ما يزال القدر مصرًا على إقحامه بحياتي.

وبيوم ما كنت اقرأ بكتاب على السرير فسقطت منه قصاصة ورقة بيضاء صغيرة فتحتها فإذا بها تحوي رقما ما وتحتها اسم يحتل مساحة كبيرة من الورقة (عامر

) وتذكرت في المستشفى كيف سلمني ذلك الطبيب الورقة وعندما عدت للمنزل خبأتها ضمن وريقات هذا الكتاب وسافرت حتى دون أن أكمل قراءته،حدقت بالورقة طويلاً جدًا حركتها بين أصابعي وأغلقتها مراراً وفتحتها حتى حفظت الأرقام فيها كنت محتارة جدًا، مترددة جدًا، لكن بنفس الوقت لدي فضول قاتل لأعرف ما كان يود إخباري به ذلك اليوم...

تصرف غبي خاصة أنا مخطوبة كمال أو زوجته،لكن من قال أني أريد الخيانة، كنت أريد معرفة مايود إخباري به فقط، لذلك أخذت نفسًا عميقًا جدًا وضغطت أزرار أرقام هاتفه بتوتر...

وجاءني صوته العميق مجددًا يقول:

- ألو...

*****

عامرة

كنتُ بعملي حينما أتاني اتصال من رقم غريب رددتُ وكان صوتًا أنثويًا ناعمًا جدًا...رقيقًا جدًا...صوتًا كحبة السكر ومتأكد من أنكم عرفتم صاحبته.

- ألو...

قالتها ليتوقف الزمان بي برهة.

- مرحبا أنا حنين.
- حنين...! نطقتها وكأني أريد تصديق أنها تكلمني، الآن...كيف حصلت على رقم هاتفي هل سرقته من هاتف خالد وكيف تذكرتني بعد مدة طويلة

كهذه، بعد أن فقدت الأمل أو حاولت تناسي هذه الفتاة ظهرت مجددًا في حياتي!

قاطعت تساؤلاتي بيني وبين نفسي وقالت:

- كنت أتساءل....إن كان باستطاعتك مقابلتي الآن في الحديقة القريبة من منزلي.

لا أعلم بهذه اللحظة كيف ركضت خارجًا من المكتب وأنا أردد:

- طبعًا طبعًا أنا قادم فورًا.

وكيف لي ألا ألبي هذا النداء؟!، كيف لي ألا أنصاع لمطلبها الرقيق ولصوتها الدافئ!

*****

حنين

كانت سارة تسير بجانبي وهي تثرثر بقلق:

- إن علم خالد ما تفعلينه لسوف يحطم عظامك.
- لا تقلقي إن لم تخبريه أنت فلن يعرف، هيَّا الآن فعامر سيصل بسرعة لأنه قادم بسيارته.
- آه منك يا حنين ما الذي تورطين نفسك فيه وتورطيني معك؟.

فتوقفتُ وقلتُ لها بحدة: -بعد كل شيء أخبرتك به تقولين هذا الكلام إن كنت خائفة هيَّا عودي إلى المنزل.

- حنين ماذا دهاكي؟! لن أتركك وحدك طبعًا.
- إذًا اصمتي وأسرعي هيَّا.

وصمتت سارة وهي تسرع الخطى للحاق بي لكنها توقفت مجددًا وهتفت بي: – وكمال!!!

– ما به كمال؟ قلت لك أني لا أنوي سوى على معرفة ما كان يود إخباري به في المستشفى، كفي عن الثرثرة فقد وصلنا.

ووصلنا أخيرًا إلى الحديقة وجلستُ أنتظر عامر بفارغ الصبر وبعد بضع دقائق فقط وصل، ترجل من سيارته وتقدم نحوي.

كنتُ غارقة في الظلام خلف عامود الإنارة وما إن وصل ناحيتي حتى تقدمت خطوتين لينار وجهي كاملاً وأنطق اسمه..

– كيف حالك سيد....عامر.

وتعلقت عيناه بي، شعرت به يدقق النظر وكان قلبي الآن يضحك كالأطفال لهذه النظرات التي يدحجني بها والتي طالما تخيلتها كيف ستكون.، قال بارتباك واضح:

– أنتِ... هي....حنين!!!؟

ضحكت بخفوت وأومأت بإيجاب فقال بنفس التوتر:

– لقد.... لقد تغيرتي كثيرًا..

فقلت له بتلقائية وسذاجة وبعيون دامعة:

– نعم...أصبحت جميلة أخيرًا.

أجابني بارتباك وتلعثم دون أن يشيح بوجهه عني:

– كقطة سكر.

انفرجت شفتاي بتردد قبل أن أقول مجددًا:

– كنتُ خارج البلاد وأجريتُ عملية تجميلية وترميمية لوجهي وجسدي

– حمدًا لله على سلامتك..

صافحني بيده الدافئة وغصتُ مجددًا في عينيه، أي سحر يملكان وأي غباء أمتلكه أنا؟! وبصراحة الآن لأدركت غباء ما فعلتُ وغباء ما ورطتُ نفسي فيه وغباء ما سأفعله فلن أستطيع تجاهل هذا الرجل أبدًا! بعد أن جلسنا على المقعد الخشبي قال:

– اتصالك المفاجئ أفرحني بطريقة غريبة لكن مالذي دفعك لرؤيتي مجددًا؟

فجأة ألجم الصمت لساني وشعرت بتعرق شديد في يدي رمشت بعيني أكثر من مرة و قلت بتلعثم:

– بصراحة..لقد أحببت أن أفهم منك ما كنت تود إخباري به في المستشفى في ذلك الوقت فلم أستطع نسيان كلماتك من حينها.

نظر حوله قليلاً وكأنه يريد أن يستلهم من الظلمة كلامًا يقوله لي ثم نفخ بقوة وهو يحك شعر رأسه...

– لا أعلم إن كان ما أود إخبارك به ذا قيمة الآن.

فاندفعتُ أقول بغباء مجددًا:

– إنه يعني لي الكثير وإلا ما رأيتني هنا الآن.

حدق بي مجددًا بحيرة وحدقت بي سارة الجالسة من خلفه على المقعد المقابل تهز رأسها بعتاب للغباء الذي أظهره ناحيته في كل كلمة أنطقها، لكنه رأى

الإصرار بعيني فأغمض عينيه قليلاً وفتحهما وكأنه يعيد ذكرى ما في قلبه لكن الوجوم أكتسى ملامحه فجأة وقال:

– أظن أن كل شيء كنت سأخبرك به لا داع له بعد الآن..

فقلت بصوت مهزوز:

– لكني...صدقًا أود أن أعرف.

نهض من على المقعد وسار خطوتين إلى الأمام رفع رأسه إلى السماء ثم عاود النظر إلي مجددًا...

إسمعيني حنين، إنسي من أكون وتجاهلي ما كنت أريد أن أخبرك إياه، لا أريد أن أشغل بالك بمواضيع قد لا تفيد بشيء سوى بتشويش أفكارك وأفكاري.

– لم أفهم ما قصدك؟

– آنستي...أنت الآن على ذمة رجل آخر ليس بإمكانك أن تواعدي أحدهم لتستفهمي ببساطة عما يريد أن يقوله لك، لربما كنت كاذبًا، وغدًا عديم الشرف ما الذي ستفعلينه حينها!!.

فقلت بصوت مهزوز:

– ولكنك....لست وغدًا أنا...أثق بكلماتك.

قلتها بارتباك لكنه قال بحدة: وما أدراك بنوايايا!! ما زلت صغيرة ولا تدركين أخطاء أفعالك هذه، عودي الآن لمنزلك ولا تندفعي وراء عاطفتك مجددًا، كلامي واضح.

شعرت حينها بالدموع تتدفق من عيناي بغزارة نهضت من فوري بغضب و صرخت به:

- أنت أنت....غبي
- مع السلامة آنسة حنين.

قالها بجفاء وتوقف أمامي بعينان يكتسحهما الجمود.

صرت أبكي أمامه فركضت سارة تجاهي تشدني قائلة:

- هيا بنا حنين.
- هيا نذهب فقد كان مجيئي خطأ منذ البداية.

أمسكت بيدها وهربت من أمامه أما هو فجلس مجددًا على المقعد.

لكم شعرت بأني سخيفة، غبية وخرقاء، اندفعت ناحية المنزل وتوجهت إلى غرفتي وفي منتصف الرواق اصطدمت بكمال الذي جاء لزيارتي وكان يحمل بيده صنوقًا لكني دفعته بيدي ليقع أرضًا ويتحطم ما بداخله ودخلت غرفتي باكية..لحق كمال بسرعة فصرخت فيه:

- أغرب عن وجهي الآن هيا...

حدجني بنظرة ملؤها التساؤل، لكن سارة قالت له بأني وقعت أرضًا أمام الناس مما أحرجني بشدة، نظر لي فأشارت سارة أن أتوقف عن البكاء فورًا كي لا يشك بشيء فأومأت له ونهضت أمسح دموعي.

آسفة كمال، لقد شعرت بإحراج شديد خاصة أن بعضهم قد ضحك علي.

- لا تلقي بالاً لهم المهم أنك لم تتأذي أليس كذلك هل يؤلمك شيء صغيرتي.

رفعتُ رأسي ناحيته وهززته وبقلبي آلاف السكاكين تتقطع لكذبي عليه فكمال لا يستحق ما أفعله والمشكلة أني أعرف هذا، لكن بعد اليوم قررت ألا أفكر بذلك العامر مجددًا.

*****

الفصل الرابع عشر

عامر

جلستُ على المقعد متنهدُا بعمق متأسفًا على ما فعلته لتلك الفتاة، حينما رأيتها وحدقت بهاتين العينين شعرت بأن الزمان عاد بي مجددًا لوقت جميل كنت أطارد طيفها فيه صارت أجمل، كوردة جورية في أوج نضوجها، بالمقارنة مع رجل تعيس بائس يكبرها بأكثر من ثلاثة عشر عامًا، كدت أن أضعف، أتمنى أن أحرق كمال، وخالد واختطف قلب هذه الصغيرة التي ستجاريني بكل تأكيد إن حاولت، غزا الشيطان عقلي لحظتها وفكرت في أن احكي لها كل شيء فأنا في نهاية المطاف إنسان، تتحكم به المشاعر وله الحق في أن يختلس لحظات من الزمن يعيشها بسعادة،.وما إن هممت بالبوح لها عن كل شيء، تذكرت خالد وما فعله لأجلي وكيف ساندني بمحنتي، تذكرت كمال وبأنها زوجته شرعًا وجال بفكري مافعله لأجلها، حتى أنا لربما لم أكن لأفعل لها هذا.

وتذكرت فارق السن بيننا، لا أريد أن أؤذيها بأي قول قد يدمر حياتها مستقبلاً ليلصق بها صفة بشعة فالناس لا ترحم، و هي ماتزال صغيرة وطائشة على ما يبدو، على الرغم من جمالها الذي زاد فتنة إلا أن عيناها ماتزالان كما السابق...جميلتان، عميقتان تحويان أسرار الكون كله، نهضت من المقعد واستقليت سيارتي لأعود إلى المنزل، ولأول مرة أدخل دون أن ألتفت إلى ريم ودون أن أجيبها، كانت كل يوم صباحًا تأتي لتطهو وتنظف المنزل ثم تخرج ما إن

أعود أو قبل أن أعود وتذهب للنوم في منزل أبي خالد وعرفت سابقًا أنها تشارك حنين غرفتها..

أغلقتُ الباب، شعرتُ باختناق شديد خلعت قميصي وارتميتُ على السرير أدخن لم أكن لأفعلها سابقًا، لكن ما حل بي بعد وفاة أمي وظهور هذه الفتاة تغير الكثير بي...

أدخن واحدة وراء الأخرى كالقطار البخاري، غرفتي صارت تسبح بغيمة كبيرة من الدخان الأبيض الخانق وأنا أفكر فيها، وببكاءها الذي مزق قلبي.كنت قاسيا فعلاً، لكن أخلاقي لا تسمح لي بالتلاعب بعقل فتاة صغيرة طائشة لا تفكر بعقلها بل تنجرف وراء عواطفها، عندما اقارن نفسي به وبما قدمه وبما سيقدمه لها ستغلب كفة ميزانه بالتأكيد، لا أملك سوى الحب والأحلام وهو يملك كل شيء حتى الأحلام حولها لحقيقة معها.

طُرق الباب مرتين فلم أجيب ؛ فتحته ريم، حدقت بي وبحال الغرفة، و قالت: – عفوًا سيد عامر العشاء جاهز، سأغادر أنا الآن لأن الوقت قد تأخر.

دون أن أتحرك حتى قلت لها، لا أريد أن آكل.

لكنها تقدمت خطوتين قائلة: –هل أنت بخير هل يزعجك شيء؟

رفعت رأسي إلى الأعلى وتنهدت بعمق:

– أو تسألين!

ثم ضحكتُ بأسى وأعلنتُ عيناي تمردهما بشكل أرعبني وقلت:

– يزعجني كل شيء.. حياتي...غبائي...حماقتي..

تقدمت ريم خطوتين أيضًا بلهفة بعد أن رأت اليأس المسيطر علي:

– لا تقل هذا الكلام عن نفسك...أنت.

لكني قاطعتها ونهضت صارخًا ألوح بيدي كالمجانين:

– أنا ماذا....!!!هاه قولي أنا ماذا، مجرد فاشل غبي أضاع سنوات من عمره يركض وراء مجرد حلم، أيوجد أغبى من هذا؟؟

أمسكت ريم بكفي ولأول مرة تنظر بعيني دون أن تخجل...ودون حتى أن تتورد خدودها..كانت نظراتها شافقة....تعيسة...حزينة لحالي

– ..يكفي أن الله سبحانه سخرك لتنقذ الناس من نار الدنيا أيوجد أعظم من عملك.

لكني أبعدتها بعنف وصرخت:

– والنار التي بقلبي من يطفئها وينقذني منها؟.

فصمتت، حدقت بي دون أن تزيح ببصرها كنت أحتاج بهذه اللحظة من يواسيني من يطفئ لهيب قلبي، من يستشعر ألمي،عذابي ووحدتي وسوء وضعي، فانتشلتها على حين غرة واحتضنتها بقوة بين ذراعي، كانت صغيرة جدًا كلعبة ضاعت بين يدي لم أبالي لدهشتها وخوفها بل أزددت تعلقًا بها واستكنت بهدوء..

– عا...مر...!!!

رج صوتها مذهولاً..متحشرجًا... خائفًا مما فعلته وكنت أعرف أني قد رميت بشعلة نار أمام صندوق من الديناميت بهذه اللحظة.

تمالكتُ نفسي أمسكتُ بكتفيها وأبعدتها فورًا عني، ما تزال ذاهلة تنظر إليَّ بصدمة ودموعها متحجرة في مقلتيها مما أقدمت على فعله لتوي.، أصلحت حجابها بارتباك وكادت أن تهرب من أمامي لولا أمسكت بها:

– آسف..ريم.

لكنها هزت رأسها برفض سحبت نفسها من يدي وركضت خارجة من الباب تبكي ولم تعد إلي منذ ذلك الحين.

بعد شهر تقرر زواج خالد وسارة ودعيت، لكني كنت خائفًا مترددًا في الذهاب لا أريد مقابلتها ولا أطيق البعد عنها.

احتلت مخيلتي وقلبي وأحلامي من جديد، اخترق بكاؤها كوابيسي مجددًا وصرتُ لا أنام إلا على صوت كلماتها الرقيقة التي اختلقتها مخيلتي؛ مخيلة رجل وحيد محطم النفس لم يتبق لحياته أي معنى وأي لون بدونها بدون رفيقة أحلامه.، وجاء اليوم الموعود و قررت أنا ألا أذهب لكن ضياء جاء مسرعًا بعد أن علم بقراري وكان يعرف بما أعانيه بسببها منذ البداية.قالها لي، تحاشاها إن أحببت لكن خالد يجب أن تكون متواجدًا في حفلته على الأقل ألق السلام وغادر بعدها إختلق أي مبرر واذهب، تصارعت كثيرًا مع نفسي بين الرفض والقبول حتى استسلمت ورأيت نفسي أقوم بحلاقة ذقني وبارتداء بذلتي السوداء، صففتُ شعري ووقفتُ أمام المرآة التي نسيتُ شكلي منذ مدة طويلة حتى باتت تشعر بالحنين لعامر القديم.

حفلة الزواج كانت بصالة قريبة، صعدت درجات السلم خلف ضياء الذي تقدمني وهمه الوحيد أن يتعرف بامرأة جميلة وكأنه مراهق طائش لا يكف عن العبث ودخلنا باب الصالة الرئيسية وتوجهت ناحية خالد ألقي السلام عليه وأهنئه على زواجه، ثم توجهت ناحية طاولة فارغة وجلست وكل همي كان أن أهرب فقط ما

إن أراها مع أني أبحث بين الموجودين عنها وحانت مني التفاتة ناحية ريم، كانت تجلس برفقة والدة خالد، أخذت نفسًا عميقًا جدًا وتوجهت ناحيتها لأزيل هذا الخلاف، –ريم– نطقت باسمها فرفعت رأسها تجاهي، قطب حاجباها وتجاهلتني، لكن أم خالد قد قامت بالترحاب بي بحفاوة، وبعد أن هنئتها وجهت حديثي لريم:

– هل من الممكن أن أحادثك للحظة.

تلكأتْ قليلاً وكادتْ أن ترفض لكني بقيتُ متسمرًا بمكاني فاضطرتْ للإنصياع إلى مطلبي، توجهنا إلى باب الخروج بعيدًا عن ضجيج الموسيقى.قائلاً:

– أنا آسف.

ضياء كعادته بهذه المناسبات توسط مجموعة فتيات وبدأ بالثرثرة معهن، فذلك المعتوه يعرف جيدًا طريقة التعامل مع حواء كما أعرف أنا طريقة التعامل مع النيران ويبدو أني الوحيد الذي يلعب بالنار خاصة بعد أن رأيت ذلك الملاك البشري الذي يرتدي فستانا أخضر يعكس لون عينيها الساحرتين،.وقفتُ بمكاني أعتزم الهروب، أريد أن أختفي قبل أن أتعلق بها أكثر، أرغب في المغادرة قبل أن تغادر روحي إليها، هي خرجت من الصالة للشرفة الواسعة و قدماي خانتا عقلي وتقدمتا ناحية الشرفة وكأن تيار قوي جرفني ناحيتها متجاهلاً ريم خلفي،

رأيت ملاكًا يستند بيديه فوق العارضة الحجرية للشرفة رافعا رأسه ينظر إلى القمر أو القمر نفسه ينظر إليه ليستمد من نوره ضياءًا يضيئ به عتمة الليل، كان الجو صاخبًا في داخل الصالة وهادئًا جميلاً خارجها نقيًا حلوًا كقطعة السكر أبعدتُ

الحبال الكريستالية من أمام الباب وخطوتُ خارجًا وما زال التيار يدفعني إليها، ما زالت قدماي تصران على مخالفة أوامر عقلي بالتراجع، ووقفتُ خلفها أتذكر أول مرة أرى فيها شعرها الغجري، بلحظة استدارت لتغادر فعلى ما يبدو أنها أراحت نفسها قليلاً خارجًا بهذا الجو النقي لكنها تسمرت بمكانها لمجرد رؤيتي...

امتقع وجهها ومن ثم حدقت بي بنفس الجمود الذي قابلتها به آخر مرة، تجاوزتني لتغادر لكن يدي الأخرى تمردت معلنة انشقاقها عن أوامر عقلي، وأمسكت كفها الرقيق قبل أن تصل إلى الحبال الكريستالية وقفت بمكانها و لم تتفوه بكلمة واحدة لكن أنا من نطقت:

-رأيتك لأول مرة في متجر تشترين السكر..

لكم كنت مراهقة جميلة على الرغم من فارق السن الكبير بيننا إلا أنني انجذبتُ إليك بطريقة غريبة، للون عينيك الأخضر،.لشعرك الناعم الأسود الطويل، لرائحة عطرك.

ينطق لساني تلك الكلمات وأنا أحتقر نفسي، أحتقر مبادئي التي تلاشت أدراج الرياح ما إن رأيتها مجددًا أمامي.، فاستدارت فجأة وقالت استنكارًا:

- أتغازلني الآن سيد عامر، ألا تخاف أن أشكوك لزوجي بما أني امرأة متزوجة لا يجوز أن أكلم الغرباء!

لم أشح ببصري عنها وأجبتها:

- أنا لا أسمي هذا غزلاً، بإمكانك تسميته مجرد بوح لأسرار حصلت في الماضي، سأنصرف ما إن أنطفها لأريح نفسي، لعل طيفك يتركني أنام بسلام.

- لم أفهم!
- تفهمين ما إن أخبرك.

فعقدت يديها على صدرها قائلة:

- أنا أستمع.

ونظرت مجددًا إلى الأسفل وكأنني أريد ألا يفوتني أي شيء من تلك الذكريات الغريبة...

- قبل الحادث بأسابيع صرت أراك لكن في منامي، تزورين كوابيسي وتقتحمين عالم أحلامي كحورية خائفة مذعورة تستنجد بي...تريد أن أحميها من نار توشك على التهامها

*****

الحنين

رمشت أكثر من مرة وكأنني أحاول استيعاب ما ينطق به، نظراته كانت جادة إنه لا يكذب.، احساس داخلي جعلني أوقن أنه صادق في كلماته.

واقدمت منه خطوتين أستمع إليه، أخبرني هو بكل شيء عن الحلم الذي يراوده كل ليلة، وجهي الذي احترق، جسدي الذي أذابته حرارة النيران قبل أن أحترق في الواقع، ونداءاتي المستغيثة إليه، وكنت أستمع بقلبي، بعقلي، بتفكيري، بدموعي التي قررت الهطول فجأة، كل شيء انجذب نحو دفء كلماته وصدق مشاعره وسر أحلامه، ودق قلبي لقربي منه بطريقة لم أشعر بها أبدًا مع كمال وصرتُ أتعلق بنظراته بإحساسه بمعاناتي، ثم أكمل لي عن بحثه المطول عني... وكأني بطلة قصة من قصص شهرزاد، شعرت بنفسي أميرة تنتظر فارسها الذي

جاءها بعد طول عناء، لكنه جاء متأخر جدًا، متأخرًا بشكل مخيف، كان محقًا بكل شيء قاله المرة الماضية، سيشتت أفكاري ويبعثرها وها قد بعثرها بقوة وعنف.

كنت أحمد الله ألف مرة الآن على أن كمال اتصل بي مخبرًا إياي أنه سيتأخر قليلاً وإلا منعه مجددًا من البوح ولربما تشاجرا بعنف.

أخبرني حتى عن رؤيته لكمال وكيف انقلب عليه بعد معرفته عمن يتحدث، آه منك يا كمال ومن جنونك.وأخيرًا صمت عامر، ألقى بعبء كلماته وصمتنا مجددًا، طال صمتي وأنا أحدق في الأفق، وكان يحدق بي:

- هل ارتوى فضولك الآن آنسة حنين.

استدرتُ ناحيته وهززت رأسي بإيجاب ثم قلت له:

- والآن...ألم تعد تحلم بي؟

نظر نحوي بعمق هذه المرة نظرة لو وصفتها بألف كلمة لن أستطيع شرحها لشدة ما تحمله من مشاعر وهموم.

- آه لو عاد بإمكاني أن أحلم بك كما السابق، لم يعد يحق لي أن أحلم بأي شيء يتعلق بك.

أغمض عيناه بعدها وصمت

- لكني أحلم بك.

قلتها بغباء وبألم وبعشق وبغرق بعينيه العميقتين اللتين أذابتا قلبي وتفكيري، وأردفت:

– منذ ذلك اليوم عندما رأيتك في مزرعة جدي أفكر بمن تكون، أحسست بأني أعرفك و لم تغادر تفكيري من حينها.

وضحكت على سذاجتي وحماقتي وتهوري وطيشي وأدرت رأسي دامعة العينين لأتحاشى نظراته، إستدار ناحية العارضة الحجرية وضربها بيده بقوة ثم استدار ناحيتي.

– لا يجوز أن أفعل هذا بك...إنه إثم كبير...إنها...إنها خيانة، لصديقي، خيانة لخطيبك، وخيانة لمبادئي وشرفي وديني الذي يمنعني من الوقوع في هذا النوع من الحب

فهمست له بصوت أجش:

– أعرف.

وبهذه اللحظة تحركت الحبال الكريستالية وتقدم نحونا أحدهم فأجفلت خوفًا واختبأت خلف عامود حجري كبير بجانب الباب...

وسمعت الرجل يقول لعامر: رأيت كمال قريبًا من الشرفة يجدر بكما الخروج نحو الصالة فورًا قبل أن ينتبه لغيابها، وعندما أطليت برأسي من خلف العمود رأيت أنه الطبيب الذي سلمني الورقة...

ألقى السلام ضاحكًا على شكلي وكأنني قطة مذعورة ثم قال:

– اخرجي الآن كي لا يقتحم الشرفة ونضطر إلى الشجار وتخريب الحفل،

أومأت له ونظرت إلى عامر نظرة أخيرة وكأن روحي تفارقني، ثم هربت نحو الداخل أبحث بعيني على كمال حتى وجدته، وقفت قليلاً أهدئ من روعي ثم

رفعت رأسي وتقدمت بكل ثقة منه وأنا أبتسم، أو أغتصب ابتسامة لتخرج.شعور قاتل مميت طعن قلبي هذه اللحظة ما إن اقترب مني وهمس:

– تبدين ملكة اليوم صغيرتي.

وكأنني خائنة وقحة تتلاعب بعواطف ملاك انتشلني من جحيم مستعر إلى جنة خضراء، لكني على ما يبدو اعتدتُ النار وتأقلمتُ مع حرارة لهيبها، نظرتُ إليه ودمعت عيناي ولم أستطع كبحها فقال بقلق:

– هل أنت بخير حنين!؟

– نعم، لكن يبدو أني تحسست من الكحل لأني لست معتادة على وضعه.

ربت على ظهري، وابتسم ثم شدني إليه قائلا:

– هيَّا إذًا أريد أن أراقصك قبل أن تنتهي هذه الليلة.

واستسلمت له، أرحت رأسي على صدره ورغم الضجة التي تملأ القاعة إلا أنني سمعت نبض قلبه.

سالته:

– لما تأخرت وتركتني وحيدة.

وتمنيت هذه المرة فعلاً أن لا يتأخر، فلو كان متواجدًا منذ البداية ما اضطررت لمقابلة عامر، ولا الحديث معه، ولا الغرق أكثر به وبكلماته.

– كان هنالك حالة لامرأة أعالجها في المصحة إضطررت لمقابلتها اليوم فهي لا تتجاوب مع طبيب غيري..

رفعت نظري إليه وابتسمت قائلة بصدق:

– وهل من يراك يستطيع التعامل مع غيرك.

ضحك على كلماتي، ثم قال بجدية فجأة:

– ما الذي يربكك صغيرتي.

توقفتُ عن الرقص لكنه لم يفلتني:

– أنا....لا شيء.

أين كنت قبل قليل بحثتُ عنك؟

ابتلعتُ لعابي بصعوبة وأجبته:

– كنت في الحمام أصلح زينتي.

لكنه ابتسم بزاوية فمه وحدق بي مضيقا عينيه.

– في ذلك اليوم لم تبكي لأنك وقعتُ أرضًا في الشارع ؛ بل لأنك تشاجرت مع أحدهم ربما، أو تعرضت لمضايقة ما لكني لم أشأ إحراجك أمام سارة والآن أيضًا...تشعرين بارتباك وخوف، ما الأمر؟

عاد لسؤالي مجددًا لكن هذه المرة بحدة أكبر.

يا إله السموات أنجدني! أيعقل أنه يقرأ تعابير الوجه بهذه الدقة والوضوح أم أني لا أستطيع إخفاء مشاعري عنه! فأكملت الرقصة معه وأنا ابتسم لأزيح توتري..

– ما الأمر أيها الطبيب أتريد تطبيق ما تعلمته علي أنا.

– هذه المرة يا حنين...قلبي هو من يشعر بك لا معرفتي وعقلي.

ونظر إلى يمينه بتلقائية وتوقف فجأة، اعتصر قبضة يدي بقوة آلمت أصابعي، نظرت إلى ما ينظر إليه فرأيت عامر يقف مع الطبيب، كلاهما بات بنظر باتجاه الآخر فارتعدت أوصالي وسألته بقلق:

– كمال ما بك إلام تنظر؟؟

فتوقف كمال فجأة وحدق بي بجمود نظرة أرعبتني..

– لا شيء لا تشغلي بالك هيَّا نخرج إلى الشرفة أريد أن أدخن.

وسرتُ معه لنختفي وراء حبال الكريستال وما زال عامر ينظر إلينا،.ووقفت معه على نفس الشرفة التي وقفت عليها مع عامر قبل قليل.

لكم صرت أكره نفسي، لكم كرهت مشاعري التي تدفعني إلى خيانته، يبدو أني من الخارج تغيرت كثيرًا لكن كما قالت لي سارة من قبل الجمال الداخلي هو الأهم...وأنا لا أملك جمالاً داخليًا...أملك أنانية مفرطة أملك خيانة مستعدة لأحطم بها جميع من حولي.

أنا أملك شرًا ونارًا ستحرقني وتحرقه كما أحرقتني سابقًا..

أخرج كمال سيجارًا وبدأ بتدخينه بهدوء ؛ فسحبته من يده وصرت أدخنه بتوتر بغضب أسحب منه وأنفث الدخان ليطير ويتلاشى في الأفق وسط نظرات كمال المستنكرة فسحبه من يدي:

– ما بك حنين؟

استدرتُ ناحيته وصرختُ به:

– أنا لا أستحقك كمال.

– لماذا تقولين هذا الكلام الآن؟.

– لأني أنانية، دائما ما أبحث على سعادتي فقط، حتى عندما كنت مشوهة قبيحة كنت أحطم كل من يحاول الإقتراب لمواساتي، أهين كل من يحاول مساعدتي والآن انظر لحالي... أزلت تشوه وجهي وجسدي

مسحته بيديك السحريتين لكنك لم تستطع محو الظلام الداخلي الذي يستعمرني، لم تستطع إزالة التشوه من قلبي.

فأجابني بهدوء:

- هذا التشوه الذي يتملكك يجب أن تقتلعيه، أنت فلا أحد غيرك قادر على إزالته.
- وإن لم أستطع كمال!

حينها نظر إلي بقلق وقال بتردد:

- حينها ابحثي عن سعادتك المشوهة بمكان آخر بعيدًا عني، صدقًا يا حنين سأغفر لك كل شيء إلا الخيانة مجددًا.

لم أصدق ما تفوه به كمال فقال مردفًا:

- –شعرت بأنك قابلتي هـ ذلك اليوم حينما عدت باكية من الخارج، وسمعتكما الليلة تتحادثان من خلف بوابة الشرفة، لست غبيًا حنين...لست غبيًا.

والآن لقد تأخرت وعلي العودة إلى المنزل.

وقبل أن يخرج استدار مجددًا ناحيتي:

- فكري جيدًا واختاري بتعقل أنا لن أضغط عليك أبدًا ولن أتصل أوحتى أراك سأحررك مبدئيًا مني، فلا أريد لصفة بشعة أنت تلاصقك وأنت على ذمتي، سأدعك تفكرين بروية وعندما تتوصلين إلى قرار جاد بشأننا فأنت تعرفين أين تجدينني.

ناديته بفزع:

– كمال انتظر...

توقف واستدار ناحيتي، كان الجمود يسيطر على تقاسيم وجهه، تقدم مني خطوتين، وقال ببساطة:

– أنت حرة من الآن.

و انسحب ببساطة مغادرًا المكان.

*****

كمال

هذه المرة الأولى التي أتحدث بها إليكم....ولربما تكون الأخيرة،من يدري؟؟، إن كانت تراني ملاكًا ينتشلها من مستنقع الألم فلا مانع لدي، تكفيني تلك الذكرى الجميلة التي عشتها معها بمنزل واحد لبضعة أشهر، تكفيني نظرة الامتنان التي أهدتني إياها، وكلمة الشكر التي نطقتها بقلب صادق لي.

بعد أن اغتصبتُ حروف كلمات" أنت حرة " بحفلة زواج خالد، انسحبتُ مندفعًا نحو الصالة متجاوزًا الحضور، متجاوزًا ضياء الذي نظر إلي بقلق، متجاوزًا عامر الذي يحدق بي بتحدٍ، متجاوزًا نفسي وحياتي ومحبتي لتلك الصغيرة القاتلة التي تستلذ بعذيبي في كل يوم و لحظة.، نزلت إلى الشارع واستقليت سيارتي ولا أعرف وجهة محددة، كنت أشعر باختناق حاد، رهيب، ألم يمزق صدري، كلما اتذكر كلماته إليها، ونظراتها تجاهه، صرتُ أدور في شوارع المدينة بلا هدف.، أنا طبيب يعالج كآبة الجميع وأوجاع أرواحهم وعقلهم ولم أستطع علاج روحي الممزقة وقلبي المحترق مما تفعله حنين بي، زدت من سرعتي متوجهًا ناحية

قاسيون وللمكان الذي أخذتها إليه قبل ثمانية أشهر وتوقفت بنفس المكان.

ترجلتُ من السيارة وخطوت ناحية السور أستنشق الهواء بقوة وأزفره، صعدتُ على السور الحجري بنفس النقطة التي أوقفت بها حنين..ولم أشعر بالخوف او الرهبة...بل بالغضب، الغضب فقط من سيطر علي بهذه اللحظة من أنانيتها واستغلالها لحبي بذلك الشكل، لكني أعشق استغلالها لي، أعشق أنانيتها التي تدمرني، رفعتُ رأسي إلى السماء ووددتُ لو أصرخ بنفس الألم الذي صرخت به حينها لكن صوتي كان سجين حنجرتي يأبى الخروج، فاكتفيتُ بآهة ألم خافتة خرجتُ من حجرات قلبي الأربعة، جلستُ بمكاني فتدلت ساقي نحو الوادي وصرتُ أحدق بالهوة العميقة من تحتي وابتسمت بقهر:

- الوقوع في حب حنين أعمق وأشد خطورة من الوقوع منك أيها الجبل العظيم .

حنين

وانتهى الحفل بزواج خالد وبطلاقي من كمال، وعاد كل منهم إلى منزله،ولم أخبر أحدًا عما جرى بيني وبينه، عدت إلى غرفتي واستلقيت على السرير لكن ريم لم تترك لي مجالا لأفكر، بل كانت تقحم عامر برأسي إقحامًا وترغمني على الإستماع إليها فوالله لو كان تعرف ما يعني لي عامر لصمتت.

كانت تصف شكله الجذاب...بذلته السوداء...شعره الأسود الناعم...حتى ربطة عنقه لم تتركها بدون أن تتغزل بها، هذه الحمقاء التي تجلس على الفراش

الأرضي ستصيبني بجنون إن لن تصمت حالاً، للحظة تناسيت ذلك الألم الرهيب الذي سببته لكمال، ورأيتُ نفسي أنجرف وراء كلمات ريم بشدة ثم سألتها بغتة:

- ريم....أنت تحبينه أليس كذلك.

فضحكت وقالت بهيام:

- إنه روحي....أتعرفين يا حنين عندما عملت أمي عندهم كنت لا أزال طفلة صغيرة وكان هو ذلك الرجل القوي الشجاع الذي يحميني من كل شيء، و كبرتُ في منزلهم ورأيتُ نفسي تحت مسؤوليته فجأة، أصبح وصيًا عليَّ دون أن يدري أو أدري أنا، تخيلي لربما لعشر سنوات أو أكثر، أراه كل يوم أمامي، لا أنام إلا حينما يعود من عمله فأطمئن عليه.وأمه رحمها الله كانت أمي الثانية، أغدقتني بعطف وحنان فلم أشعر بأني مجرد خادمة عندهم بل كنت فردًا من أفراد العائلة والآن أشعر بخوف من أن أفقده، ما زلت متمسكة بأمل طفيف بأن يشعر بما أعانيه وأحسه تجاهه.

هي تحكي وقلبي يتمزق أكثر فأكثر ولكن لا أملك لها شيئًا افعله سوى الإنصات،وبعدها أغمضتُ عيناي بقوة ولكن كلماتها لم ترحمني أبدًا بل ظلت تتردد في عقلي، وبدأ أول يوم من المهلة التي أعطانيها كمال صرتُ حرة!لأول مرة منذ أشهر أصحو وآكل الفطور دون أن يكون قد إتصل بي أو على الأقل بعث برسالة.

شعرت حينها بقليل من الحرية لوأنها حرية ينقصها شيء ما شيء كان يحتل مساحة بساعات نهاري ولم يعد له وجود، ريم ذهبت لتنظف منزل عامر وتطبخ له

كما هي العادة وأنا جلست في المنزل وحيدة دون فعل أي شيء، فقط أفكر فيه...فيه فقط.

ومر يوم آخر ارتديتُ ملابسي وقررتُ مرافقة ريم إلى منزله وأنا اعرف أنه لا يعود إلا ليلاً لذالك ارتحتُ قليلاً..

كنت أريد ان أقتحم حياته...أن أعرف تفاصيل معيشته قبل أن أقدم على أية خطوة، كنوع من الفضول الساذج، من فتاة لم تظفر بحياة مراهقة بسبب الحادث، كانت ربم منشغلة في التنظيف والطبخ وكنت أنا منشغلة باستكشاف منزله بأثاثه البسيط الأنيق، برائحة عطره التي تعبق بأرجاء المنزل، وبمكتبته الكبيرة التي تحتل غرفة كاملة، لكن كتبه كانت عتيقة ذات طابع سياسي،تاريخي، حتى الكتب الأدبية كانت تعج بالأدب الجاهلي كمعلقات امرؤالقيس وقصائد بشار بن برد وغيرهم الذين لم أسمع بهم أبدًا، الكثير من الكتب التي تتحدث عن الطب والتمريض والدفاع المدني وغيرها من المواضيع التي لم أقرأ عنها أبدًا حتى رواياته كانت ذات طابع سياسي جامد لا تستهويني، مكتبة رجل بامتياز..أو كهل!!!!

ضحكت من ذوقه الذي يذكرني بمكتبة أبي العتيقة لكني سرعان ما تجاهلت المكتبة وتفحصت أدراج مكتبه، كانت مكدسة بالأوراق مليئة بشخابيط، أو لنقل رسومات لم تكتمل على الرغم من جمالية خطوطه إلا أنه لم يكمل أي منها...لم اهتم بها فلربما كانت مسودات ليس إلا.

على الحائط علقت شهادات لدوراته دراسته ومشاركاته والكثير من أوسمة الشرف، وعلى سطح مكتبه مغلف كبير جلدي أسود اللون، فتحته فكان يحوي

رسومًا بقلم الرصاص لكنها ذات معالم أوضح، رجل عجوز كهل التجاعيد أكلت وجهه،.فتاة ريفية بسيطة تنظر إلى الأفق، شجرة جرداء بجانبها حجارة ونهر جاف...

صرتُ أقلب بالأوراق لكنها جميعًا بعيدة عن الحياة..عن البهجة جميعها وبالرغم من دقتها الفائقة إلا أنها حزينة كئيبة...

قلبت بهم حتى وصلت للوحة منهم لفتاة تقف على السلم، كانت تصرخ وتمد أيديها نحو الأسفل. ؛ حينها ارتعدت أوصالي، أغلقت المغلف بعنف وشعرت بتعرق شديد، لا بد وأنها تمثلني أنا في ذلك اليوم الذي لا أريد أن أذكره مجددًا.

دخلت ريم لتقول لي...لقد انتهيت هيا نذهب.

حينها نظرت مرة أخرى إلى المغلف بوجوم وانصرفت معها.

وتكرر ذهابي لبضعة أيام و بيوم قالت لي:

- إنه رجل فوضوي بطبعه انظري لشكل المنزل..

فابتسمت لها ثم قلت:

- سأساعدك في الترتيب كي لا أشعر بالملل كالمرات السابقة فكتبه لا تناسب ذوقي..

وقفزت مباشرة ناحية غرفته وبدأت بالتجول فيها.

إنه فوضوي فعلا، فالغرفة كانت وكأن إعصارًا مدمرًا قد إقتحمها ليقلب كل شيء وينتشله من مكانه، رتبت له سريره، لملمت أغراضه ورتبتهم في الخزانة وكأنني الآن أعرفه منذ وقت طويل جدًا بل ومعتادة على وجوده بحياتي بكل يوم، كان

كل شيء يدل على بساطة حالته المادية بالنسبة كمال، صرتُ أقارن فجأة بينهما بكل شيء..بأدق التفاصيل حتى...

جلستُ على السرير بعدها أمسك قميصه الأسود.، والمرآة أمامي كبيرة ضخمة ما الذي تحاولين فعله حنين!!! قالتها لي مرآته الضخمة التي فضحت مشاعري وأطلت النظر بنفسي، لكن شرودي هذا ما لبث أن قلب لخوف عندما سمعت صوت الباب وصوت رجل يتحدث ويتقدم من الرواق.

وقفت وقد شعرت بارتباك شديد رميت القميص على الأرض لكن عامر كان قد فتح الباب ورآني بغرفته.

هل أصف لكم شعوري بهذه اللحظة أم أنكم قد توقعتم، بلحظة واحدة شعرت ببرودة شديدة تسير طوال عمودي الفقري.

- حنين!ما الذي تفعلينه هنا؟

سألني السؤال الذي قالته مرآته قبل قليل وكان هو الآخر بحالة صدمة.

- أنا...كنت... وتقدمت ناحية الباب لأهرب لكن جسده الضخم كان يسد المدخل فمنعني من الخروج.
- عامر..عن إذنك.

فأفسح لي المجال بتردد لأتخطاه وهربت بسرعة من المنزل دون أن أسمع كلمة أخرى

عامر

وهربت من أمامي كما ظهرت.، كنت أقف أمام الباب بصدمة من تصرفات هذه الجميلة الطائشة التي كل مرة تدفعني إلى الجنون، ما الذي كانت تفعله هنا ولما جاءت الى منزلي في غيابي؟! لكني قطعت تساؤلاتي وأطلقت سراح ساقي للتمرد مجددًا في اللحاق بها وسط نظرات ريم المتفاجئة من تصرفاتنا.، هرعت أهبط درجات السلم ثم صرت أتلفت حولي في الشارع الذي بدأت أشعة الشمس تغرب عنه فتضفي عليه سحرًا ارجوانيًا حتى رأيتها من بعيد...وركضت تجاهها.

- حنين...توقفي،.ناديتها لكنها لم تستمع لي فزدت من سرعتي وقبضت على يدها بقوة مما اجبرها على الإنصياع لمطلبي.

صرخت بها بقوة:

- ما الذي جاء بك إلى منزلي اليوم.

وقفت تلهث بقوة ثم تعلثمت بكلماتها:

- –أنا...لم أقصد رافقت ريم فقط ل...
- لا تختلقي الأكاذيب.

وتقدمت منها أكثر واخفضت صوتي...

- لا تكذبي...رجاءًا، أريحي قلبي وارحميني من هذا العذاب.

ثم شددت على قبضتها أكثر لنتجه ناحية السيارة..فتساءلت بقلق:

- إلى أين؟
- لأضع حدًا لهذه المسألة.

وانصاعت لي وجلست على المقعد في السيارة شاردة بالطريق لا تنطق وأنا أقود بصمت حتى وصلنا ناحية حديقة كبيرة خالية تقريبًا من الناس.، جلسنا على مقعد خشبي أمام بركة ماء ضخمة وصرنا نحدق فيها ونغتصب الكلمات لتخرج لكن الحوار كان باردًا جدًا غريبًا جدًا...

- رأيته يراقصك....كنتما منسجمين جدًا آنذاك.
- نعم....طلب مني فلم أستطع أن أرفض.
- قتلني تصرفك هذا.

رفعت بصرها تجاهي فأكملت: -اسمعيني جيدًا...لست مراهقًا لأجاريك بتصرفاتك..إن لم تكوني حرة من كمال فلن نقدم على أي شيءيجب أن تفهمي ذلك.

اطرقت رأسها أرضًا ثم همست لي: -كمال

ثم أردفت بعد تنهيدة طويلة:

- يريدني أن أختار أعطاني حرية الأختيار في تركه أو اتمام الزفاف، عرف بطريقة ما مشاعري نحوك وبأننا تحادثنا في الحفل...

اغمضت عيناي بقوة وقلت بحدة.: -دعينا منه الآن هو لا يهمني بشيء، أنت ما الذي تريدينه بالتحديد.

- لا أعلم أنا....مشوشة تائهة..ضائعة..
- بسببي؟

رفعت نظرها تحدق بي ثم أشاحت بوجهها بعيدًا.

حنين...أنا السبب أم أن هنالك سبب آخر لترفضيه.

- أنت فعلاً...شوشت أفكاري.

نهضت من على الكرسي وركعت أمامها، أمسكت بيديها الباردتين كالثلج وتشجعت لأبوح لها:

- إعلمي...أني أحببتك بصدق، شعوري تجاهك كان جميل جدًا، لأول مرة تجتاحني مشاعر عاصفة تجاه امرأة وأي امرأة!! بل طفلة تصغرني بثلاثة عشر عامًا أو أكثر.

عزيزتي أنا رجل أحمق لاحق مجرد حلم ونسي الواقع، كنت أريد أن أمتلكك، أن أحتضن الحلم الجميل الذي داعب أفكاري وأحلامي، لكنه تحول لكابوس مرعب ما إن رأيت كمال في المستشفى معك وعرفت أنه قد تزوجك ليعالجك، أي إنسان قد يفعل هذا إن لم يكن يعشقك حد الجنون!

فهزت رأسها وهمست:

- كان واقعًا معذبًا جدًا لكلينا.
- إذن...إمسحي دموعك وانهضي...وحاولي أن تري الواقع من وجهة نظر عقلانية...لا تلاحقي قلبك فمن يلاحق الأحلام لن يجني سوى السراب.
- لكنك لست سرابًا عامر.

هززت رأسي معترضًا ثم أجبتها:

- اعتبريني كذلك....مجرد تجربة جميلة أو بشعة أيا يكن ما تسميها فقد انتهت،.أعرف أنها ستكون صعبة لك كما هي لي..لكن تجاوزيها.
- أنت...ألم تحبني!!؟؟

زفرت بضيق وقد شعرت بملايين السكاكين تخترق صدري:

- بل عشقتك، رغم عدم معرفتي بك عشقت تفاصيلك، الأحلام التي طاردتني بسببك، ورؤيتك بعد إجرائك العملية قد أعادتني مجددًا للتعلق بك أكثر مما مضى.

ما المشكلة إذن أنا لا أفهمك أتريدني أم لا!!!؟.

تساءلت بقلق وبسذاجة فعلاً، إنها طفلة، ما زالت مجرد طفلة، نهضت من أمامها ثم أدرت وجهي ناحية البركة وأجبتها ببساطة:

عليك أولاً أن تفكري بسعادتك، سعادة تكون عقلانية مع شاب يناسبك وضحى لأجلك، لا شاب رسم لك أوهامًا وحلق بك فوق سماء الأحلام وحياتك معه لربما تبنى على الأوهام فقط.

توقفت حنين فجأة وابتعدت عني ناحية البركة، أدارت وجهها ونطقت ما شل تفكيري تمامًا:-قال أنه مستعد لأن يطلقني إن طلبت منه.

هرولت ناحيتها بسرعة جنونية وأدرتها لتقابلني، فأعادت مجددًا كلماتها:

- اعطاني حريتي لأفكر بقراري النهائي دون أن يضغط عليَّ.

دارت الدنيا بي حينها، لا أعرف كيف أتصرف، شل تفكيري تمامًا وأنا أطالع عيناها، هل هي حرة حقًا، رفرف قلبي لحظتها بسعادة غريبة، جلست على المقعد خلفي ثم استجمعت رباطة جأشي لأقول.

أعطاك كمال مهلة، فكري بها بروية وأظن أنك ستتصرفين بحكمة وإن كنت ترين أنني المناسب لك فلن أتردد لحظة واحدة في الزواج بك فها قد عرفت حياتي ووضعي المادي، إن كنت موقنة أنك ستشاركيني المعيشة بهذا المنزل البسيط بقناعة تامة سأرحب بك بل وستكونين ملكة قلبي وحياتي.

ويومها رجعت إلى المنزل بحياة ظننت بأنها قد ابتسمت لي أخيرًا، رسمتُ مستقبلاً جميلاً مع زائرة أحلامي التي انتظرتها طويلاً جدًا، ودخلت المنزل، كانت ريم تنتظرني في الداخل و تنظر إلي بقلق بالغ، تريد توضيحًا عما جرى أمامها قبل ساعتين لكني اكتفيت بالصمت ولم أجبها، فهزت رأسها دامعة العينين وقالت:

– لا داع لأن تتحدث سيدي فقد فهمت كل شيء، آسفة إن كنت قد انجرفت وراء حلم لن يتحقق عن إذنك، وتركتني مغادرة المنزل

*****

الحنين

وتوالت الأيام وكمال لا يتصل بي ولا يأتي، وأمي تسأل، خالد يسأل وأبي يسأل ما الذي جرى؟ لكني أكتفي بالصمت ولا أجيب.

لكن الوحيدة التي لا تسأل هي ريم، ففي ذلك اليوم لملمت أغراضها حتى دون أن تتكلم معي وتوجهت مباشرة نحو القرية لتقطن في منزل خالها جاسم ، على الرغم من تأخر الوقت الذي شارف على العاشرة ليلاً لكن بعد إصرارها اضطر خالد لتوصيلها للجراج.

وأنا الآن أعيش بوحدة خانقة مخيفة.، أفكر بعامر و بتلك الحالة الجميلة التي وضعني بها وكأنني بطلة قصة خيالية طال بحث أميرها عنها وبذلك الشعور العذب الذي يسيطر على كياني ما إن أراه وأتحدث معه وأكون بقربه وخاصة عندما صار يأتي لمنزلنا ويجلس مع خالد فأقوم أنا بخدمتهم وسط ذهول سارة، فهي تعرف أني لا أطيق إعداد شيء لأحد..

أحادث عامر ليلاً، نتكلم بالساعات ويحكي لي عن نفسه وماضيه، أحدثه عن أحلامي وطموحاتي.

فيصمت أحيانًا وأصمت أنا أحيانًا أخرى، صرتُ أخرج بين يوم وآخر لملاقاته دون معرفة من أحد، وعدت مراهقة من جديد لكن مع رجل يكبرني بسنوات، و بذات اللحظة أتذكر كمال، همساته الدافئة، كلماته الحنون وهداياه التي كان يغدقها علي في كل مرة نتقابل والأهم من هذا هديته الكبيرة التي أتأملها كل يوم عبر المرآة...

((وجهي الجميل)) أيوجد هدية أعظم منها!!احترت كثيرًا وفكرت كثيرًا و ضعت بين النار والثلج،.بين النور والظلام، بين الحقيقة والأوهام، بلحظة أتذكر أسراري التي لم أبح بها لغيره...

اشعر بحزن سعادتي معه، وبرحلتي التي أخذني بها ليعيدني فتاة أخرى والوحدة تزيد في قلبي ومن حولي، لم يفدني أحد بهذه اللحظة.، كما قال لي كمال التشوه الداخلي إن لم أقتلعه أنا فلن يقتلعه أحد من داخلي.

وقلتْ اتصالاتي مع عامر تدريجيًا بشكل غريب لم أفهمه، صرتُ أتهرب منه، الأنانية إن لم أرمها بعيدًا عني فلن ارتاح ولن أريح أحد، لا أريد تكرار تجربة الماضي الفاشلة التي خضتها مع فؤاد وفقدت بسببها كمال.

توالت الأيام وتراكضت ومن حولي، وهم يسألوني ما الأمر؟؟ ما الذي جرى لكني أكتفي بالصمت ولا أجيب، حتى سارة لم تفهم ما الذي يجري ولم أقل لها لأني لا أريد مزيدًا من التشويش بأفكاري، كنتُ أريد أن أفكر بعقلانية وبمنطق ودون

تأثير من أحد، وعندما أشعر بالخوف، أو الملل، والوحدة، والضياع وكثيرًا ما كنت أشعر بها أنتقي إحدى الأفلام التي اشتراها لي كمال وأتابعه...

أو إحدى الكتب التي جلبها لي كمال وأقرأه...

أو أتبرج بالأدوات التي جلبها لي كمال..

والفساتين التي أهداها لي كمال..

والشوكولاه...

كل شيء حولي كان كمال و من كمال....حتى أنا منه

وجهي، جسدي، هو من شكلهم من جديد ورسمهم على هواه.

أرى كل شيء واسترجع ذكرياتي معه ويزداد اليقين في قلبي وعقلي. وأبصرت الحقيقة أخيرًا، قررت أن أختار جنتي وحياتي ومستقبلي لذلك تجهزتُ ولأول مرة منذ أشهر طويلة جدًا أشعر بالرضا والقناعة وبسكينة تستكين بصدري.

كان فستانًا ربيعيًا جميلاً محتشمًا ارتديته، غامق اللون ذا أكمام طويلة، أفلتُ شعري على كتفي واكتفيتُ بأحمر شفاه وردي اللون كمطلبه تمامًا ونظرتُ عبر المرآة مبتسمة بعد أيام طويلة جدًا أمضيتها بين القلق، والخوف، والسهد، قبلت يد أبي وجبهة أمي وتمنيت منهما التوفيق والرضا، ثم خرجت من المنزل

إخترت أن أسير على قدماي رغم المسافة التي قد تتجاوز الساعة والنصف إلا أني أريد التأكيد على كل خطوة أخطوها نحو هدفي وحلمي وحياتي، وصلت أخيرًا ووقفتُ أمام العمارة الطويلة وصعدتُ درجات السلم كذلك درجة درجة لأصل إليه..

وكان هنالك شعورًا جميلاً جدًا يتملكني، لربما الشوق، لربما الحنين إليه..لكنه أبدًا ليس شعورًا بالمسؤولية لما فعله لأجلي.

وها أنذا أمام مكتبه احتضنتُ كفي إلى صدري لأهدئ من أنفاسي المتسارعة ودقات قلبي العنيفة.

تجاوزت المدخل دون حتى أن ألقي بالاً لتلك الموظفة التي أوقفتني لمعرفة اسمي ومن أكون، تجاهلتها وطرقت الباب...

وسمعت صوته من الداخل يقول تفضل

وفتحت الباب ودخلت إليه

*****

عامر

ومر الوقت مسرعًا وكنت موقنًا من اختيارها عندما جاء ذلك اليوم ولم تعد تحيب على اتصالاتي، وموقن من عذابي ووحدتي التي لم يؤنسني فيها أحد بهذا المنزل الخاوي إلا من أنفاسي المتثاقلة وضباب الدخان الذي يغلف سماء الحجرة كالكفن الأبيض..

حتى عبد الحليم لم يعد لي رغبة في الاستماع إليه نهاية الأسبوع لأني لم أعد أصلاً أعرف بدايته من نهايته.، كانت الأيام جميعها متشابهة دون طعم أو لون، لربما شربت الخمر لأول مرة في حياتي وتدخل بي ضياء وتشاجرنا مطولاً، لربما لكمته بقوة عندما كنت مغيبًا عن الدنيا...لربما ضربني على وجهي ولربما وضعني تحت صنبور المياه المتدفقة الباردة لأصحو لكني بالنهاية انقدت إليه وانصعت

له وارتميت متعلقا به فلم يتبق لي أحد سواه بعد موت أمي ورحيل ريم الذي ترك فراغًا كبيرًا بحياتي.

وقال لي أخيرًا..

حنين ستتزوج كمال، إهتم بنفسك وانسها إمحها وامسح ذكراها من قلبك لتستريح، فيما مضى كنت أساعدك أنت لمعرفتي الشديدة بك أما بعد أن قلت أنها طائشة، عديمة المسؤلية، وأخبرتني أنها لا تناسبك بأي شكل لصغر سنها ولأفكارها ولن تستطيع تحقيق أحلامها وطموحاتها الجامحة، لذلك فكرت والأجدر بك محو الماضي.

– إذن اختارته..

سألته بيقين وأومأ لي إيجابًا فشعرتُ بدفء الدمع الذي تدفق أخيرًا وكأنه يغسل ما تبقى بروحي من شوائب حبها.

نهضتُ بعد دقائق ورفعتُ رأسي وأنا أبتسم بقهر وصحت به:

– جهز النرجيلة وسأصنع إبريقًا من الشاي ؛ فاليوم هو الخميس أم نسيت؟

رفع ضياء حاجباه تعجبًا، ثم قهقه وهو يحوقل متجهًا نحو المطبخ لإعداد النرجليه فتوجهت نحو مسجلتي العتيقة لأشغل أغنية لعبدالحليم

اشتقت إليك فعلمني ألا أشتاق

علمني كيف أقص جذور هواك من الأعماق

علمني كيف تموت الدمعة في الأحداق

علمني كيف يموت الحب وتنتحر الأشواق

*****

حنين

رفع رأسه ببطء، لكنه توقف فجأة يحدق بي ولم يكن متوقعًا رؤيتي أبدًا

- حنين!!!
- كيف حالك.
- بخير....بأفضل حال.

قالها لي لكني تقدمت خطوتين وقلتُ استنكارًا:

- بأفضل حال بغيابي، أم لحضوري؟.

نهض من خلف مكتبه وتقدم ناحيتي قائلاً:

- لا...لا طبعًا، لرؤيتك صرتُ بأفضل حال.

فابتسمتُ له وتقدمتُ أكثر ؛ لأقلص المسافة بيننا فحدق بأصابع يدي وقال:

- إذن قررتي أخيرًا.

هززت رأسي بإيجاب فقال باستهتار:

- وصلت الرسالة آنسة حنين.
- ماهي الرسالة التي وصلتك بالتحديد؟؟؟
- لقد خلعتيه هل هنالك رسالة أوضح من تلك.

وأشار لأصابعي الخاوية لكني أخرجت علبة من حقيبة يدي وأنا أقول له: –طبعًا يوجد رسالة أوضح وأجمل..

نظر تجاهي ثم إلى العلبة مما يدل على أنه لم يفهم ما أرمي إليه، ففتحتُ العلبة وأنا أهمس له: –أريدك أن تعيده بنفسك ليزين إصبعي.

ابتسم كمال، ضحك بعدها وحك شعر رأسه، دار حول نفسه وكأنه لا يعرف ما يتصرف حتى انتشلني وصار يدور بي بقوة ويقول أحبك وأنا أصرخ به: –أيها المجنون أنزلني سأتقيأ.

أنزلني فجأة وصار يلهث وقرصني من أنفي:

– يالقرفك يا صغيرة "

– لا تقل صغيرة.

– إذن يا لقرفك فقط

أطلت الموظفة برأسها لتفهم ما الذي يجري بالداخل ؛ فصرخ بها...

– أريج.... إن زغردت الآن فورًا لك راتب شهرين مكافئة.

لتتهلل أسارير أريج وتطلق زغرودة عالية وسط ضحكاتنا.

وتعالت ضحكاته وتعالى شعوري بصحة اختياري وصحة مشاعري واغتيال الأنانية من قلبي، ووأد التشوه الذي كان يسيطر على تفكيري وصرتُ حرة أخيرًا...حرة تحت جناحه.

جناح كمال....حبيبي...زوجي...صديقي...

صرتُ حرة تحت جناح الملاك كمال.

قرأتُ ذات مرة أن الحب الحقيقي لا ينتهي إلّا بموت صاحبه، والحب الكاذب يموت عندما يحيا صاحبه وكمال أحياني، وأحيا الحب بعقلي قبل قلبي..وأحيا محبة الكون من حولي.

*****

عامرة

قررت أن أغير كل شيء بحياتي لأستطيع المواصلة، غيرت الأثاث وأعدت طلاء الجدران وترتيب الغرف وديكوراتها، ورتبت أفكاري وأولوياتي، شذبت ذقني، ارتديت بذلة أنيقة وواعدت خالد وضياء ليذهبا معي نحو أولى أولوياتي..وصلنا ودخلنا دار جاسم ورحب بنا بحرارة...

- جئتك هذه المرة لطلب وأود ألا تردني خائبًا.
- تحت أمرك يا بُني اطلب.

تبادلت نظرات مع الشباب ثم قلت لجاسم.

- يشرفني أن أطلب يد الآنسة ريم، على سنة الله ورسوله.

تهللت أسارير هذا الكهل وقال:-يشرفني مطلبك يا بُني.

- رجاءًا قبل كل شيء أريد معرفة رأي العروس..شخصيًا إن كنت لا تمانع.

هز رأسنه قائلاً:

- طبعًا طبعًا هذا حقها...سأستدعيها فورًا.

وعاد بعد دقائق وورائه تسير فتاة أبعد ما يكون عن ريم التي أعرفها...

فتاة ترتدي فستانا ريفيا أسود اللون، ووشاحًا غامقا كذلك ذات وجه ذابل شاحب وجسد ازداد نحولاً..،وقفت ودرت ببصري بين الحاضرين واستأذنت جاسم

- أأستطيع التحدث معها في الحديقة إن كنت لا تمانع.
- تفضل بني.

ومشيت ولحقت بي إلى الحديقة.

- كيف حالك؟

- الحمد لله.

- الحمد لله دائمًا وابدًا

تشجعت أخيرًا لأنطق...شعرت بوحدة كبيرة بغيابك...فلا يوجد من يثرثر فوق دماغي ويصدعه.

ابتسمت ابتسامة خجلة فأكملتُ.

كل شيء في المنزل اشتاق لوجودك...حتى أنا.

وهنا رفعت رأسها وأزداد احمرار وجنتيها.

- ريم...أتقبلين بي زوجًا.

رفعت بصرها واتسعت حدقتاها، طال الصمت بيننا وأخيرًا هزت رأسها بإيجاب.

- أريد أن أسمعها.

- موافقة سيدي...

- سيدي!

ضحكت و أجابت بخفوت

- أقصد عامر..موافقة.

وتخلصت من الأحلام بالواقع، نفضت الأوهام بالحقائق، فمن غيرها يفهم ما أرغب بقوله حتى دون أن أتكلم، من غيرها عاش معي أجمل لحظات حياتي وأتعسها، من غيرها اعتنى بامرأة كهلة بحب ولهفة وإخلاص وكأنها ابنتها.، من غيرها استوطن تفكيري لحظة ضعفي وعجزي.، من غيرها كان واقعًا جميلاً لم أشعر به إلا حين فقدته!!

*****

وكل منهم اختار حياته وشريكه المناسب، تزوج كمال زواجًا أسطوريًا يشبع غرور صغيرته الجميلة.

وتزوج عامر زواجًا متواضعا لكنه غني بالحب والود والعقلانية بعيدًا عن الأحلام.

وضياء طبعًا قد جمع أرقام الفتيات من جميع حفلات الزفاف السابقة وكما يقول المثل الشعبي لم يطل عنب الشام ولا بلح اليمن!!!!.

قد يمتلئ قلب أي إنسان بالتشوه، وقد يتعلق أي شخص فينا بالأوهام متناسيًا الواقع، لربما لا تكون اختباراتنا صحيحة ولربما يضعنا القدر بمواقف قد لا نتقبلها لكن فيها خيرًا كثيرًا لنا دون أن نعلم

حنين أخطأت كثيرًا...بحقها وبحق جميع من أحبها لكن

ليست المشكلة أن تخطئ حتى لو كان الخطأ فادحًا، إنما المشكلة أن تستمر بالخطأ دون محاولة تصحيحه أو على الأقل دون الرجوع إليه مرة أخرى..

تمت بحمد الله

21/11/2017

حروف من نور

١٠ برج الاشراف شارع الهداية المريوطية فيصل الجيزة

"جمهورية مصر العربية"

الايميل yavinour@gmail.com

ت/ ٠١٠٠٨٢٨٩٦٦٧ (٠٠٢)